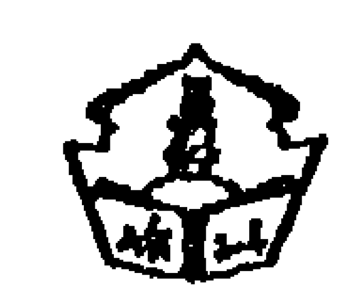


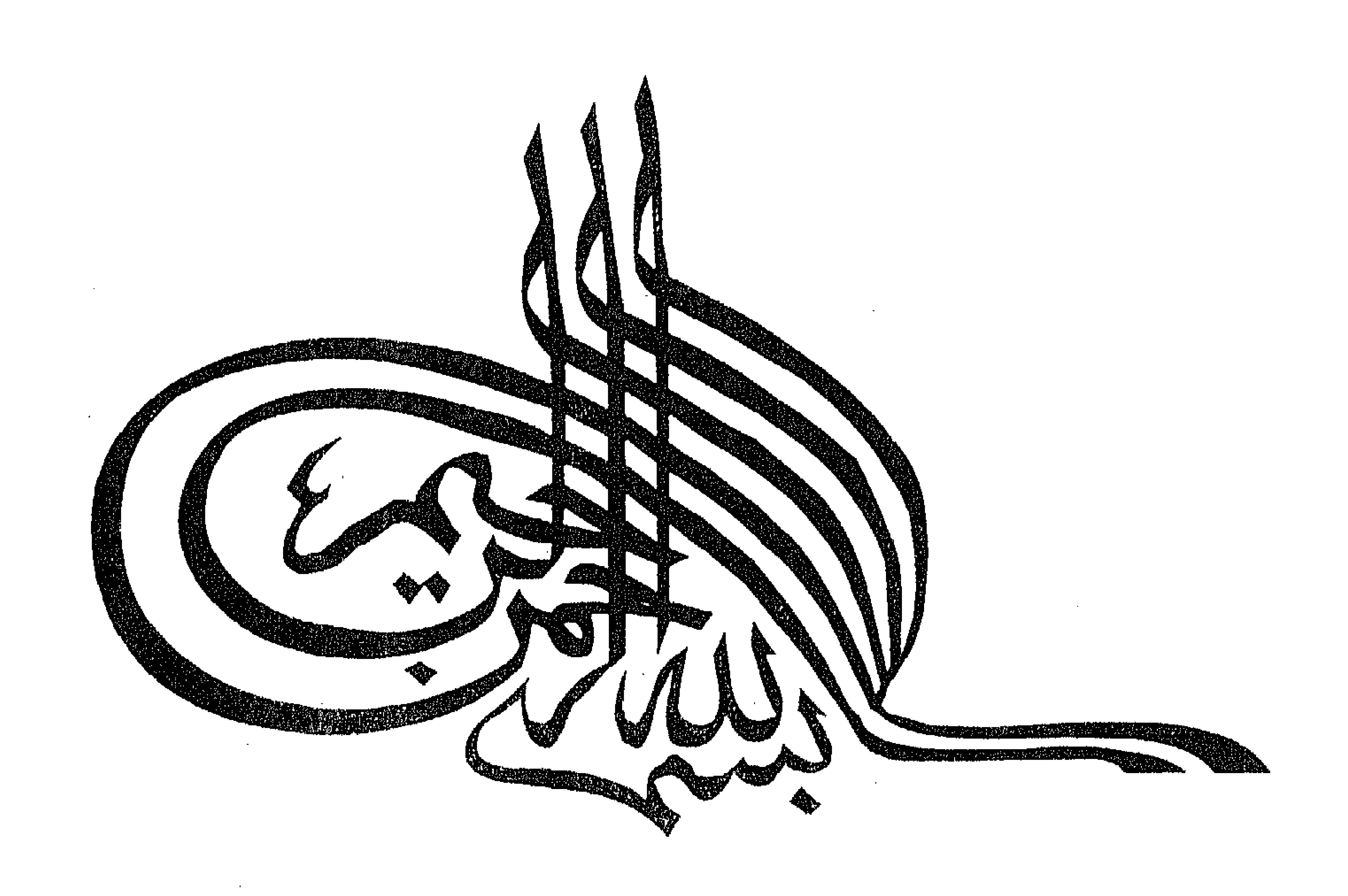
جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنـــات بالإسكندرية
قطوف
من ثمار تراثنا الأدبى
(العصر العباسى)
إعـــداد
الأستاذة الدكتورة
وفاء مصطفى أبو السعود
الأستاذ بقسم الأدب والنقد
وعميد كلية
الدراسات الإسلامية والعربية
دار اقرأ للطباعة الحديثة 045-3363311



جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات
بالإسكندرية

قطوف من
ثمار تراثنا الأدبى
(العصر العباسى)

إعداد
الأستاذة الدكتورة
وفاء مصطفى أبو السعود
الأستاذ بقسم الأدب والنقد
وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴿١﴾
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ
نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ
ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

صدق الله العظيم

فى الشعوبية : بشار بن برد

١ - هــل من رسـول مخبـر
عنـى جميـع العـــرب
٢ - مـن كـان حياً منهـم
ومن ثـوى فى الثُّـربِ
٣ - بـأننـى ذو حســـبٍ
عالى على ذى الحســب
٤ - جـدّى الـذى اسمو بــه
كسـرى وساســان أبـــى
٥ - وقيصـر خالـــى إذا
عددت يومــاً نسبـــى
٦ - كم لى وكم لـى من أبٍ
بتــاجـه معتصـــب
٧ - أشـوس فـى مجلســه
يجثـى لـه بالركـــب
٨ - يغـدو إلـى مجلسـه
فـى الجوهـر الملتهـب

٩ – مستقضل فى فنكٍ
وقائم فى الحجب
١٠ – يسعى الهبانيق له
بآنيات الذهب
١١ – لم يسق أقطاب يسقى
يشربها فى العلب
١٢ – ولا حدا قطٌّ أبى
خلف بعير جرب
١٣ – ولا أتى حنظلة
يثقبها من سغب
١٤ – ولا أتى عرفطة
يخبطها بالخشب
١٥ – ولا شوينا ورلاً
منضنضاً بالذنب
١٦ – ولا تقصعت ولا
أكلت ضبُّ الحزب

١٧ - ولا اصطلى قطُّ أبى

مفحجّا للهب

١٨ - كلا ولا كان أبى

يركب شرجى قتب

١٩ - إنّا ملوك لم نزل

فى سالفات الحقب

٢٠ - نحن جلبنا الخيل من

بلخ بغير الكذب

٢١ - حتى سقيناها - دما

نُبده - نهرى حلب

٢٢ - حتى إذا ما دوُّخت

بالشام أرض الصُّلُبِ

٢٣ - سرنا إلى مصر بها

فى جحفل ذى لجب

٢٤ - حتى استلمنا ملكها

بملكنا المستلب

٢٥ - وجـادت الخيـل بنـا

طنجـة ذات العجـب

٢٦ - حتى رددنـا الملك فى

أهـل النبـى العربـى

٢٧ - يهنـأ أبو الفضـل بهـا

أولـى قريـش بالنبـى

٢٨ - مـن ذا الذى أعاد الهدى

والديـن لـم يُستـلبِ

٢٩ - ومـن ومـن عانـده

أوجـادِ لـم ينتهـب

٣٠ - نغضـب للـه وللإسلا

م أسـرى الغضـب

٣١ - انا ابـن فرعـى فـارس

عنها المحامى العصب

٣٢ - نحن ذوو التيجان والمـ

ـلك الأشم الأغلـب

التعريف بالشاعر

هو بشار بن بُرْد بن يرجُوخ ، فارسى الأصل ، وجده يرجوخ من طخا رستان فسباه المهلب بن أبى صفرة والى خراسان (٧٩- ٨١هـ) وجاء به إلى البصرة ، وجعله من قن امرأته خيرة القشيرية فولد عندها ابنه برداً ، فلما كبر برد ، زوجته خيرة ، ووهبته بعد ذلك لامرأة من بنى عقيل من قيس عيلان كانت متصلة بها ، فولدت له أمرأته بشاراً فى أوائل العقد العاشر من القرن الأول للهجرة ، ولم تلبث العقيلية أن اعتقت برداً ، فانتسب إلى بنى عقيل بالولاء ، وقد نسب نفسه من جهة أمه إلى الروم إذ يقول :

وقيصر خالى إذا
عددت يوما نسبى

وكان يكنى أبا معاذ ويلقب بالمرعث[1] لأنه كان فى أذنه وهو صغير رعاث شأن غلمان الفرس ، وهى عادة قديمة عندهم .

وقد نشأ بشار فى بنى عقيل نشأة عربية خالصة ، فاستوى لسانه على النظام الفصيح ، وكان والده طياناً ، وولد بشار مكفوفاً وحددت هذه الآفة

---

[1] - المرعث : المحلى بالرعاث وهى الحلى التى تعلق بالآذان واحدتها رعثة

حياته منذ نعومة أظفاره ، فاتجه إلى المساجد وإلى سوق المربد بالبصرة ينهل من حلقات العلم والشعر ، وأعانته نشأته فى بنى عقيل على أن يتمثل السليقة العربية ، ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه ، ونزعت نفسه إلى الهجاء ، فلقى الناس منه شرا ، وكان الهجاء حينئذ يضطرم فى موطنه اضطراما بين جميع الشعراء ، فكان طبيعياً أن يكون أول موضوع ينظم فيه الغلام ، ولم يحجم عن التعرض لجرير ، فاستصغره جرير ولم يرد عليه .

وكان إذا هجا قوماً ، جاؤوا إلى أبيه فشكوه ، فيضربه ضربا شديداً ، فكانت أمه تقول : "كم تضرب هذا الصبى الضرير ، أما ترحمه !.." فيقول : "بلى والله وإنى لأرحمه، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى فسمعه بشار فطمع فيه ، فقال له : "ياأبت إن هذا الذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر . وإنى إن ألممت عليه ، أغنيتك وسائر أهلى . فإن شكونى إليك ، فقل لهم : أليس الله يقول : "ليس على الأعمى حرج" فلما عاودوه شكواه ، قال لهم برد ماقاله بشار ، فانصرفوا وهم يقولون : "فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار" (١)

---

١ - العصر العباسى الأول شوقى ضيف ص ٢٠٢

ومن هنا يظهر لنا بوضوح أن بشار طبع على الشعر منذ حداثته ، وطبع معه على الهجاء والشر وحب التكسب والسخر بالدين والناس . فقد عرف بذكائه الفطرى أن والده ساذج جاهل ، فعبث به لينجو من عقابه . ولم يتحوب من العبث بآية القرآن ، فأولها إلى غير معناها ، وجعل الأعمى بريئاً من الإثم إذا اقترافه . والآية لاتقصد إلا إعفاءه من التكاليف التى لاقبل له بها كالجهاد .

واشتد ببشار طموحه إلى إتقان العربية ، فاتجه نحو البادية ، فأقام فيها فترة مكنت له فى عربية لسانه وفقهه الدقيق باللغة وشئون البادية .

ثم عاد إلى البصرة يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم ، كما يكثر من نظم الشعر فيمدح الولاة والقواد ، ويشبب بالنساء . وله فيهن عدة صواحب أشهرهن عبدة أو عبيدة .

ولعل من أقدم مدائحه مانظمه فى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق لسنة ١٢٦ للهجرة [١] . "ولما خطب واصل بن عطاء رأس المعتزلة بين يدى هذا الوالى مع بعض الخطباء البلغاء أشاد به وببيانه

---

[١] - البيان والتبيين للجاحظ ج١ ص ٢٤

طويلاً [1] مما يدل على أن صلة وثيقة كانت منعقدة بينهما ، كما كانت هناك صلة بينه وبين صالح بن عبد القدوس وعمرو بن عبيد وغيرهما من أصحاب الكلام ، ولكن واصلاً لم يلبث أن جافاه وشهر به فى المجامع إذ عرف فيه أنه يدين بالرّجعة أو عودة الإمام المختفى ويكفر جميع الأمة ، وتتابع فيه مايشهد على إلحاده من تمثل قوله يشيد بعبادة النار وأنها أفضل من الأرض والطين :

الأرض مظلمة والنار مشرقة

والنار معبودة مذ كانت النار [2]

كما جافاه أيضاً عمرو بن عبيد ، فناصر واصلاً على الهتف به والتشنيع عليه وشد أزرهما جلة من علماء الدين كالحسن البصرى قاضى البصرة وكبير فقهائها ، ومالك بن دينار العالم الزاهد ، غير أن بشار مضى يعلن زندقته لايزدجر مصرحاً أنه لايؤمن إلا بالعيان وما شهده الحس [3] . فهو لايؤمن بجنة ولانار ولابعث ولاحساب ، ويحاول أن يثير الغبار فى وجه واصل وغيره من المعتزلة ، فيعلن أنه يعارض مايذهبون إليه من

---

١ ـ الأغانى لأبى فرج الأصبهانى ج٣ ص١٤٦
٢ ـ المصدر نفسه ج٣ ص ١٤٥
٣ ـ المصدر نفسه ج٣ ص ٢٢٧

أن الإنسان يخلق أفعاله ، ويقول أنه جبرى ، بل لاشيء سوى الجبر وتعطل الإرادة الإنسانية .

وكل ذلك جعل واصل بن عطاء يثور عليه ثورة شديدة ، ولعل مما زاد هذه الثورة فى نفسه اضطراماً أن رآه يكثر من غزل مادى آثم يعد خطراً أى خطر على شباب البصرة ونسائها ، فهتف به فى بعض خطبه الواعظة داعياً إلى قتله بمثل قوله : " أما لهذا الأعمى الملحد المشنف [1] المكنى بأبى معاذ من يقتله ؟!" [2] . وتعاون واصل واتباعه من معتزلة البصرة فنفوه منها حوالى ١٢٧ هـ (٧٤٤م) فقصد مدينة حران وافداً على سليمان بن هشام بن عبد المللك ، ولكنه انصرف من عنده مغاضباً لأنه مدحه بقصيدة بائية ، وكان سليمان بخيلاً ، فلم يعطه شيئاً ، وقيل بل أعطاه خمسة آلاف درهم . فاستقلها وردها عليه . وخرج من عنده ساخطاً وهجاه ، فاستدعاه أمير العراقيين يزيد ابن عمر بن هبيرة الفزارى زعيم قيس . فأقام فى الكوفة يمدحه ، ويمدح قيس عيلان حتى

---

[1] - المشنف : ذو القرط ، يقال إنه كان يلبس قرطاً وهو صغير فلقب بالمرعث من الرعاث وهو القرط وإلى ذلك يشير واصل

[2] - الأغانى لابى فرج الأصهانى ج٣ ص١٤٠

سقطت الدولة الأموية ، وقتل يزيد بواسط سنة (١٣٢ هـ -٧٥٠م) فرجع إلى البصرة ، وقد مات واصل بن عطاء .

على أن عمرو بن عبيد لم يتركه يطمئن فى أرضه بل سعى فى نفيه ثانية .

فظل يتنقل من بلد إلى بلد حتى توفى عمرو بن عبيد سنة (١٤٥ هـ - ٧٦٢م) ثم ذهب إلى البصرة فأقام بها يمدح ولاتها حتى ارتحل إلى بغداد واتصل بالعباسيين .

كان بشار مبعداً عن البصرة لما انتقلت الخلافة إلى بنى العباس . ومات السفاح ولم يتصل به شاعرنا ، وماكان يستخلف أبو جعفر المنصور حتى هب الحزب العلوى من رقدته يطالب بالإمامة بعد أن رضى بالصمت فى عهد السفاح ولعل السبب فى ذلك أن السفاح قرب الطالبين وأنعم عليهم ، وأحسن مصانعتهم .

وأما أبو جعفر المنصور فكان بخيلاً لايذر درة ، ظلاماً يضطهدهم ويسىء معاملتهم .

فخرج عليه الأخوان محمد وابراهيم ابنا عبد الله بن حسن بن الحسن بن على ، فثار محمد فى المدينة فبايعها أهلها ، وثار ابراهيم بالبصرة ،

وكان بشار منفياً عنها . فأرسل إليه من الكوفة بقصيدته الميمية الشهيرة ، يحرض بها على المنصور ويمدحه ويشير عليه . ولكن الأخوين لم يوفقا فى ثورتهما ، وفاز بها المنصور وقتلهما .

ولم تصل قصيدة بشار إلى ابراهيم ، ولعلها وصلت إليه فضاعت ، فلم يروها راوية ، لأن المنصور لم يطلع عليها إلا بعد أن قلبها بشار وجعل التحريض فيها على أبى مسلم الخراسانى ، والمدح والنصح للمنصور . ولعل هذه القصيدة بعد تغييرها ، كانت السبب فى اتصال الشاعر بالمنصور والحظوة عنده ، على أننا لانعتقد أنه عاش منعماً فى كنفه ، أو أنه أكثر من مدحه . وقد عُرف المنصور ببخله وجفاف يده .

ولما ولى المهدى الخلافة طمعت نفس بشار إلى الوفادة عليه والحصول على جوائزه . وكان شعره قد طار وتناقله الناس . وكان المهدى شديد الحب للنساء ، غيوراً عليهن ، فبلغته أبيات لبشار فيها مجون وتعهر . فلما قدم عليه استنشده الشعر ، فأنشده إياه . فغضب الخليفة وقال : "ويلك أتحض الناس على الفجور ، وتقذف المحسنات المخبآت ! والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً فى نسيب لآتين على روحك ". وكف بشار عن قوله

الغزل على مضض ، وأخذ يردد فى أشعاره أنه ترك الغزل والنسيب نزولاً على إرادة الخليفة من مثل قوله :

يامنظـرا حسنـا رأيته
من وجه جارية فديتـه
بعثـت إلىَّ تسومنـى
برد الشباب وقد طويتـه
والله رب محمـد
ما إن غدرت ولانويتـه
أمسكـت عنك وربما
عرض البلاء ومابتغيته
إن الخليفـة قد أبـى
وإذا أبـى شيئـاً أبيتـه
ونهانـى الملـك الهما
م عن النسيب وما عصيته [1]

---

[1] - الأغانى لأبى فرج لاأصبهانى ج٣ ص٢٣٩

ولم يكن خبثه فى هذا الأسلوب ليخفى على المهدى ، فأظهر له جفوة ، وحبس عنه عطاياه . فكان يمدحه فلايحظى منه بشىء ، ولو جعل مدحه بغير تشبيب . وحاول أن يتقرب من وزيره يعقوب بن داود فلم يحفل به ولا أذن له ولا أعطاه . فرحل إلى البصرة غاضباً وأخذ يهجو المهدى ووزيره ، ويوجع فيهما ، ويقدم المهدى إلى البصرة فى سنة ١٦٨ فيشهد أمامه شهود موثقون بأن بشارا زنديق ، حينئذ يأمر بضربه فيضرب سبعين سوطاً يموت على إثرها ويرمى به فى البطيحة ، ويجىء بعض أهله فيحملونه ويدفنونه .

ولعل من الواضح بعد ماقدمنا أن طبيعة بشار لم تكن بسيطة ولاساذجة ، بل كانت معقدة ، فقد كان فارسى الأصل ، وورث عن الفرس حدة المزاج ، ونشأ قنا ابن قن ، وولد أعمى لايبصر ، قبيح الهيئة وكان لذلك يحس بغير قليل من المرارة ، وضاعفها فى نفسه فقر أسرته وتخلفها فى المجتمع . وكان إلى ذلك حاد الذهن ، شديد الذكاء ، نير البصيرة ، سريع التنبه ، دقيق الحس ، ذرب اللسان ، حاضر البديهة وقد أجمع الرواة والنقاد على أنه زعيم الشعراء المحدثين ، وهى زعامة ترد إلى أنه استطاع أن ينهج لهم فى قوة السبيل التى ترسمها الشعراء من حوله

ومن بعده ، وهى سبيل تقوم على التمسك بالأصول التقليدية للشعر العربى من جهة ، ومن جهة أخرى تفسح المجال لتجديد الشاعر العباسى بحكم رقيه العقلى ومعيشته الحضارية . وبذلك ازدهر الماضى فى الحاضر ونما الحضر من خلاله هذا النمو الذى جعل الشعر العربى عنده يحتفظ بشخصيته الخالدة ، إذ ظلت أساليبه – مهما لانت ورقت– مطبوعة بطوابع الإيجاز والتركيز ، تلك الطوابع التى تشيع فيه الدقة والوضوح والجمال ، كما ظلت معانيه وأغراضه البدوية القديمة بجميع رواسبها الخيالية . ومن الواضح أنه حدث فيه تجديد واسع لكنه تجديد لايفصله من تراثه ، بل يتيح لهذا التراث أن يعاد خلقه بحس متحضر وذوق مرهف وعقل بصير يعرف كيف يفيد من ذخائر الآداب والثقافات المترجمة وكيف يلائم بين مايصوغه وبين بيئته المتحضرة .

وقد طرق بشار كل باب من أبواب الشعر التى عرفت قبله وأربى عليها . وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والخروج به عن الحد المألوف عند أهل زمانه .

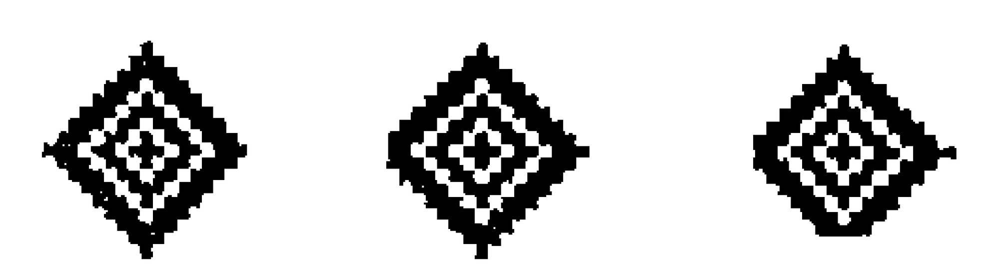
وكان الأصمعى معجباً بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ، وكان يشبه بشار بالأعشى والنابغة الذبيانى ويقول : "كان بشار شاعراً مطبوعاً

لايكلف طبعه شيئاً متعذرا ، لا كمن يقول البيت ويحككه أياما ، وإن بشاراً لخاتمة الشعراء .. ووالله لو أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم".

وقال ابن شرف القيروانى : "شعره ينفق عند ربات الجمال وعند فحول الرجال ، فهو يلين حتى يستعطف ، ويقوى حتى يستنكف".

ولكنه على عنايته بتنخل شعره لم يخرج عن طبعه ، وإنما أضاف إليه براعة الفن فصقله وهذبه وتصرف فيه تصرف الملك فى ملكه . فجدّ وهزل ، ورصن وخف ، فإذا هو على حالتيه دقيق المعانى يحسن توليدها طلى الألفاظ يجيد انتقاءها .

وخلاصة القول إن بشاراً شاعر ساحر ، لعوب بالمعانى والألفاظ ، يحسن البديع والاستعارة والتشبيه ، ويتفنن فى جميع أبواب الشعر . وهو إلى ذلك شاعر مطبوع ، غزير المادة لايتكلف النظم تكلفاً . ويعد خير صلة بين العصرين الأموى والعباسى . فقد خلع الفن على شعره روعة القديم وجلاله ، وزقة الجديد وجماله .



١ - هـل من رسـول مخبـر
عنـى جميـع العــرب
٢ - مـن كـان حيـاً منهـم
ومن ثـوى فى الثُّـربِ
٣ - بـأننـى ذو حسـبٍ
عالى على ذى الحسـب
٤ - جـدّيِ الـذى اسمو بـه
كسـرى وساسـان أبـى
٥ - وقيـصـر خالـى إذا
عـددت يومـاً نسبـى
٦ - كم لى وكم لـى من أبٍ
بتـاجـه معتصـب
٧ - أشـوس فـى مجلسـه
يجثـى لـه بالركـب
٨ - يغـدو إلـى مجلسـه
فـى الجـوهـر الملتهـب
٩ - مستقضـل فـى فنكٍ
وقائـم فـى الحجـب

١٠ - يسعى الهبانيق له
بآنيات الذهب
١١ - لم يسق أقطاب سقى
يشربها فى العلب
١٢ - ولا حدا قطُّ أبى
خلف بعير جرب

اللغة

٢- **ثوى** : ثوى بالمكان ، وفيه أقام واستقر .

٣- **عالى** : رفيع القدر

٤- **أسمو** : أعلو وارتفع ، كسرى وساسان : ملوك الفرس

٥- **قيصر** : لقب كان يلقب به ملك الروم والرُّوس والجمع قياصرة ،

نسبى : النسب القرابة . ويقال نسبه فى بنى فلان : هو منهم والجمع أنساب .

٦- **معتصب** : متوج

٧- **الأشوس** : الشديد ،الجرىء فى القتال ، يجثى له : يجلس على الرُّكب

٨- **الفنك** : دابة تتمتع بأطيب أنواع الفراء وأشرفها .

٩- **الهبانيق** : مفردها هبنق أو هبنوق وهو الوصيف من الغلمان .

١٠- **أقطاب** : جمع قطب وهو الشراب الممزوج باللبن ، ويقال قطب الشراب أى مزجه ، سقى : جمع سقية ، وهى مايسقى ، والعلب : جمع علبة ، وهو قدح ضخم من جلود الإبل أو من خشب يحلب فيها ، ويشرب فيها عامة العرب لأنها لاتتكسر .

١١- حرب : جرباً : أصابه الجرب فهو أجرب .

المعنى

بدأت النزعة الشعوبية تذر قرنها منذ العصر العباسى الأول ، مع أن إرهاصاتها ، بدأت قبل ذلك بكثير منذ عصر الدولة الأموية حيث كانت النظرة إلى الموالى يشوبها غير قليل من الزراية بهم والتقليل من شأنهم ، وقد بدأت هذه النزعة العنصرية فى شكل دعوة إلى المساواة بين العرب وغيرهم وفقاً لما جاءت به الشريعة السمحاء ، ولكن الأمر تطور حيث أصبحت بحثاً عن مثالب العرب وتعالياً عليهم ، وكانت أهم مطاعنهم التى وجهوها إلى العرب أنهم كانوا بدواً رعاة أغنام وإبل ، ولم يكن لهم ملك ولاحضارة ولامدنية ولامعرفة بالعلوم ، فأين هم قديماً من ملك

الأكاسرة والقياصرة ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية والرومية ؟ وأين هم من علوم الهند والفرس والكدان واليونان والرمان ؟ وقد مضوا يزرون على خطابتهم واعتمادهم فيها على العصى وإشارتهم بها واتكائهم على أطراف القسى ، كما أزروا على أسلحتهم البسيطة الساذجة وأطعمتهم الخشنة ، ولعل العرب بسبب أهاجيهم القبلية العنيفة قد وضعوا تحت أيديهم مادة وفيرة منها ، فاستغلوها في ذمهم وأضافوا إليها مادة مختلفة صاغوها فى قصص وأشعار وأضافوها إليهم وقد بلغ من شدة موجدتهم عليهم أن حاولوا تقبيح بعض شيمهم الرفيعة كشيمة الكرم ، وقايسوا بين ماعندهم من المعارف والتعمق فى السياسة وبين ماللعرب من حكم منثورة [1] .

ولعل من المحقق أن رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر ابن الحسين كانوا يذكون نار هذه الشعوبية فيمن حولهم من الفرس ، ولعل أهم شاعر فى العصر العباسى أوقد نيران هذه الخصومة وظل يمدها بحطب جزل من أشعاره بشار بن برد فقد مثل هذا التيار أبشع تمثيل فى هذه القصيدة حيث بدأ بالتقليل من شأن العرب واحتقارهم ،

---

[1] - البيان والتبيين للجاحظ ج٣ ص٥-١٢٤

ويتمثل هذا الموقف فى أنه يود أن يبلغ العرب قاطبة الأحياء منهم والأموات بعلو نسبه ، فهو يضع نفسه بإزاء أمة بكاملها ويفخر عليهم ، وفى ذلك مافيه من التعالى والانحياز العنصرى الذميم .

وقد مضى يزعم أنه ينتسب من قبل أمه إلى قياصرة الروم ، وهذه الأبيات تصور ضراوة حقده العنيف على العرب ، وقد مضى فيها يقارن بين بداوتهم الجافية وحضارة آبائه اللينة من الفرس والروم .

ويعير العرب تلميحاً أقرب إلى التصريح من خلال المقارنة بينهم وبين قومه ، فأبوه لم يحد خلف بغير أجرب ، ولنلاحظ هذا الوصف الذى ألحقه بالبعير وكأنه يومىء إلى العرب قاطبة ، ليس هذا حسب .

١٣ – ولا أتـــى حنظلـــــة

يثقبهـــا مـــن سغـــــــب

١٤ – ولا أتـــى عرفطـيـــة

يخبطهـــا بالخشـــــب

١٥ – ولا شـــويـنـــا ورلاً

منضنضـــاً بالذنــــب

١٦ - ولا تقضعت ولا
أكلت ضبُّ الحزب
١٧ - ولا اصطلى قطٌ أبى
مفحجًا للهب
١٨ - كلا ولا كان أبى
يركب شرجى قتب
١٩ - إنّا ملوك لم نزل
فْى سالفات الحقب
٢٠ - نحن جلبنا الخيل من
بلخ بغير الكذب
٢١ - حتى سقيناها - دما
نُبده - نهرى حلب
٢٢ - حتى إذا ما دوُخت
بالشام أرض الصُّلبِ
٢٣ - سرنا إلى مصر بها
فى جحفل ذى لجب

٢٤ – حتى استلمنا ملكها

بملكنا المستلب

٢٥ – وجادت الخيل بنا

طنجة ذات العجب

اللغة

١٣- **الحنظل** : ثمرة شجر من نوع العضاه يؤكل اضطراراً في المجاعات ، **سغب** : سغباً وسغابة : جاع من تعب والجمع سغاب

١٤- **عرفطة** : نبات ترعاه النحل فيكون في عسلها رائحة غير محمودة .

١٥- **الورل** : دابة كالضب ، طويل الذنب صغير الرأس ، **منضنض** : متحرك بذنبه .

١٦ – **تقصعت** : القاصعاء : حجر الضب ، **وتقصع** : احترش الضب ، **الخرب** : وهو اسم جمع من الخرباءة وهي الأرض الغليظة .

١٧- **مفحجاً** : مدرقا رجليه .

١٨- **الشرج** : القطعة التي توصل بأخرى ، اقتب : رحل البعير

٢٠ - **بلخ** : مدينة فى خراسان وهو يشير بذلك إلى خروج جيش الدعوة العباسية ومجيئه بلاد الشام ثم مصر متابعاً مروان بن محمد أخر خلفاء بنى أمية .

٢١- **نُبده** : نفاجأ

٢٣- **جحفل لجب** : كثير العدد .

المعنى

فى هذه الأبيات يتحدث بشار بن برد عن العرب باحتقار وبصورة مزرية وعن اضطرارهم إلى أكل الحنظل وشوى الورل وأكل الضب وماإلى ذلك من الأمور ، ثم نراه يذكر فضل الفرس فى قيام الدولة العباسية ، وكأنه يشير من طرف خفى إلى أن هذه الدولة ليست للعرب وإنما هى دولة الفرس ، ولايخفى مافى ذلك من تعريض واضح بالعرب .

٢٦ - حتى رددنا الملك فى
أهل النبى العربى

٢٧ - يهنأ أبو الفضل بها
أولى قريش بالنبى

٢٨ – مـن ذا الذى أعاد الهدى

والديـن لـم يُستـــلبِ

٢٩ – ومـن ومـن عانــده

أوجــاد لـم ينتهـــب

٣٠ – نغضـب للـه وللإسلا

م أســـرى الغضـــب

٣١ – انا ابـن فرعـى فـارس

عنها المحامى العصـب

٣٢ – نحن ذوو التيجان والمـ

ـلك الأشم الأغـلبِ

اللغة

٢٧– يهنأ : يسعد ، أبو الفضل : كنية العباس بن عبد المطلب .

٣٠– أسرى : مقصود بها أثرى أى عظم الغضب .

٣١– المحامى العصب : المدافع عن العصبية الفارسية .

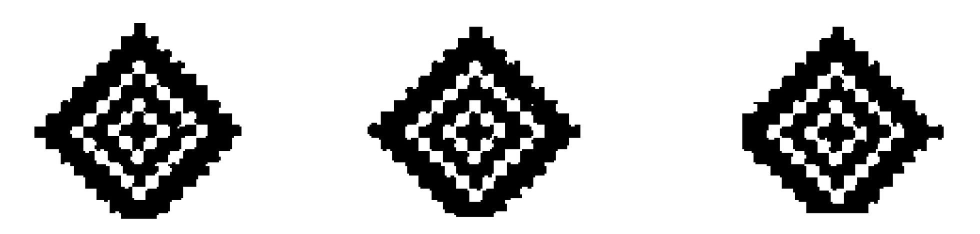
المعنى

لقد حاول بشار فى هذه الأبيات بخبث مكشوف أن يستعصم بالإسلام ومبادئه إذ يريد أن يقول أن غضبته هذه إنما هى من أجل الإسلام ، ولكننا نراه يناقض نفسيه حين يقول بعد ذلك مباشرة :

انا ابـــن فرعـــى فـــارس

عنهـا المحـامـــى العصـــب

وفى الحق أن شعوبيته كانت صارخة ، إذ كان زنديقاً وعدواً للعرب ودينهم الجنيف عداوة ترسب فى ضميره وفؤاده .



تحليل وتعليق

لم يبدأ الشاعر قصيدته على النحو المعهود فى القصيدة العربية بذكر الأطلال بل دخل فى موضوعه مباشرة . وهذا تطور فنى ولاغرو فقد كان ثائراً على العرب وتقاليدهم الفنية تبعاً لذلك .

كما نلاحظ فى هذه القصيدة أنه ركز على الجانب المشهدى فى التصوير . ولم يركز على الجانب البيانى . فقد صور أباه وقومه فى لوحة مشهدية رائعة تبرزهم فى صورة جليلة . وفى الوقت نفسه تبرز العرب فى صورة زرية .

من هنا كان استخدامه لهذا الأسلوب منسجماً مع الغرض الذى رمى إليه .

كما أنه من الواضح فى بنائه لصيغه التعبيرية كثرة النعوت بأنواعها مفردة وجملاً .

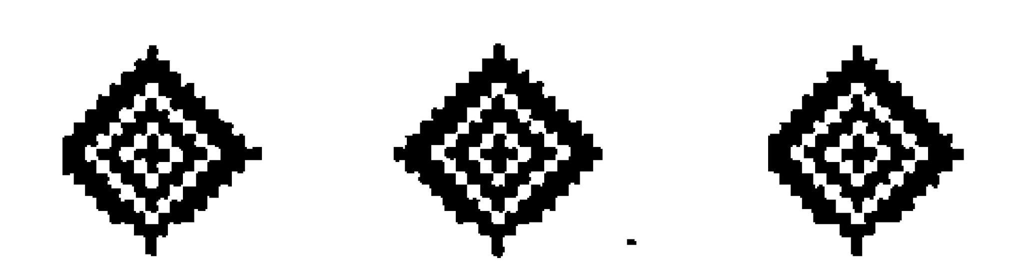
كما أنه أكثر من استخدام ضمير المتكلم للجمع اعتداداً منه بقومه وتقريراً لمكانتهم وإخباراً عن مزاياهم .

حفل المعجم الشعرى للقصيدة بألفاظ خاصة ليست مألوفة فى لغة الشعر العربى التقليدى . إذ حاول بشار أن يبرز خصوصية الفرس فأتى بكلمات حضرية فى مقابل الألفاظ

البدوية التى تنتمى إلى البيئة العربية الصحراوية كالورل والضب والحنظل والعرفطة فى مقابل الهبانيق والفنك وماإلى ذلك .

كما أن الأسلوب السردى القصصى يناسب إلى حد كبير منهج الإدلال بالقيمة والأهمية حيث الوقائع التى تؤيد وتدعم . وقد لجأ بشار إلى هذا الأسلوب .

استخدم بشار فى قصيدته بحر الرجز وهو بحر من بحور الشعر أصيل فى التراث العربى يناسب الطبيعة البدوية . وقد اقتصر على مجزوئه . والرجز مرتبط بمقام الفخر والحرب لأن إيقاعه متضافر يناسب حالة التحفز والتصدى من هنا عمل بشار إليه مثيراً ومستثيراً ومستفزاً . وهو مايناسب المقام .



قال ابو تمام فى رثاء محمد بن حميد الطائى

١ - كـذا فليجـل الخطـب وليفدح الأمر

فليـس لعيـن لـم يفـض ماؤها عـذر

٢ - تـوفيـت الآمـال بعـد محمـد

وأصبـح فـى شغـل عن السفر السفـر

٣ - وما كـان إلا مـال مـن قـل مالـه

وذخـرا لمـن أمسـى وليـس لـه ذخـر

٤ - وما كـان يدرى مجتدى جود كفه

إذا ما استلهـت أنـه خلـق العسـر

٥ - ألا فـى سبيـل الله مـن عطلـت لـه

فجـاج سبيـل الله وانثغـر الثغـر

٦ - فتـى كلمـا فاضـت عيـون قبيلة

دما ضحكـت عنـه الأحـاديـث والـذكـر

٧- فتى دهره شطران فيما ينوبه

ففى بأسه شطر وفى وجوده شطر

٨ - فتى مات بين الضرب والطعن ميتة

تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

٩ - وما مات حتى مات مضرب سيفه

من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

١٠ - وقد كان فوت الموت سهلا فرده

إليه الحفاظ المر والخلق الوعر

١١- ونفس تعاف العار حتى كأنه

هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

١٢ - فأثبت فى مستنقع الموت رجله

وقال لها من تحت أخمصك الحشر

١٣ – غـدا غـدوة والحمـد نسـج ردائه

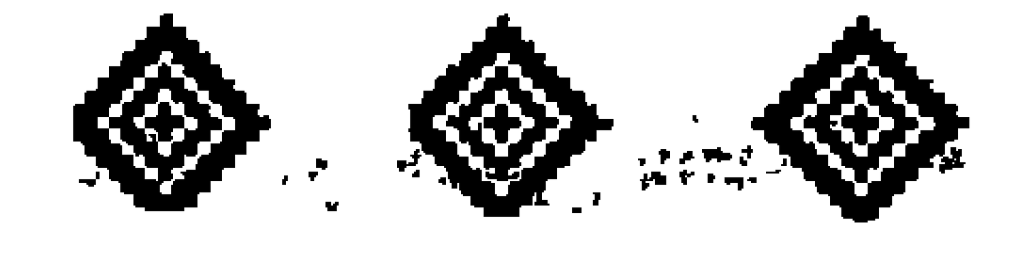
فلـم ينصـــرف إلا وأكفانـــه الأجـــر

١٤ – تـردى ثياب الموت حمـرا فمـا أتـــى

لهـا الليـــل إلا وهـي من سنـدس خضـــر

١٥ – كـــأن بـــني نبهـــان يـــوم فاتـــه

نجـــوم سمـــاء خـــر مـــن بينهـــا البـــدر [1]



[1] - شرح ديوان أبى تمام ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوى دار الكتاب اللبنانى – بيروت الطبعة الأولى حزيران ١٩٨١ ص ٦٧٠ ، ٦٧١

التعريف بالشاعر

هو حبيب بن أوس الطائى ، منسوب إلى طئ القبيلة العربية المشهورة ، وكنيته أبو تمام وبها عُرف ، ومنهم من يدفع نسبته إلى طئ ، ويزعم أن أباه كان نصرانياً من أعاجم الشام وكان اسمه(تدوس)فغير إلى (أوس) ونحن نرجح رأى من يقول بعربيته ومنهم صاحب الأغانى الذى يقول فيه إنه (من نفس طئ صليبة).[١]

ولد أبو تمام سنة ١٩٠ هجرية بقرية جاسم من قرى الجيدور وهو أقليم من دمشق وكان أبواه فقيرين ، فحمله والده إلى مصر وهو طفل فنشأ فيها حتى إذا ترعرع أخذ يسقى الماء بالجرة فى جامع عمرو . وأكثر المؤرخين له يقولون أنه نشأ بدمشق وأن أباه كان عطاراً فيها وأنه ألحقه بحائك كى يحسن حياكة الثياب . ويبدو أنه أخذ يختلف – منذ نعومة أظافره – إلى حلقات المساجد ينهل مما كان يجرى فيها من جداول الشعر والثقافة ، فتعلم العربية وحفظ ما لا يحصى من شعر العرب . وسرعان ما تدفق ينبوع الشعر على لسانه ، ثم خرج إلى قصر الخلافة ويتبين من شعره أنه وفد على المأمون فى خلافته فمدحه ، ولكنه لم

[١] - الأغانى لأبى فرج الأصبهانى ج ١٦ ص ٣٨٣

يتصل به كما اتصل بأخيه المعتصم من بعده . فإن المعتصم أعجب بشعره ، وقدمه على شعراء زمانه فبعد صيته ، واتسعت ذات يده . وكان ولوعاً بالأسفار ، فطفق ينتقل فى الولايات ويمدح أمراءها ، وهؤلاء يسبغون عليه نعمهم . ولما مات المعتصم واستخلف ابنه الواثق ، مدحه أبو تمام ولكنه لم يتصل به اتصاله بأبيه، لذلك قلّت مدائحه فيه.[1] ومدح أيضاً الحسن بن وهب صاحب ديوان رسائله وغيرهم ، ورحل إلى كبار العمال بممالكهم ومدحهم بالقصائد الخالدة ، وقربوه منهم إلى حد الصداقة والإخاء ، ورغبوا به عن التكسب بالشعر ، فولاه الحسن بن وهب بريد الموصل ، فاقام أقل من سنتين ومات بها .

وقد اختلف في تاريخ وفاته ، فجعلها بعضهم تراوح بين سنة ٢٣٠ وسنة ٢٥٠هـ . وهذه مسافة طويلة لا ينبغى لنا المرور بها دون أن نحاول تقصيرها . ولعل من الراجح أنه مات سنة ٢٣١ هـ أى أواخر خلافة الواثق ، لأن أكثر المؤرخين خصوها بالتقدمة على سواها . ثم لأن

[1] - الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه تأليف الشيخ أحمد الإسكندرى ، الشيخ مصطفى عنانى بك الطبعة الخامسة عشرة دار المعارف بمصر ص ٢٦٣

الشاعر لم يمدح خليفة بعد الواثق ، ولوأدرك المتوكل لما توانى عن مدحه ، والواثق مات سنة ٢٣٢ هـ .[١]

وأخبار أبى تمام فى أسرته قليلة ، يقال إنه كان له أخ يسمى سهماً يجرى على لسانه شعر ضعيف[٢] ، وكان ابنه تمام يقول الشعر ، ويظهر أنه كان له بنون مختلفون ، وقد احتسب منهم اثنين رثاهما رثاء مؤثراً ، وبين مراثيه مرثية فى زوجة له ، ويقول الصولى إنه كان اسمراً طويلاً فصيحاً حلو الكلام ، وكانت فيه تمتمة يسيرة جعلته لا يحسن الإنشاد فكان غلامه الفتح ينشد شعره عنه[٣]. وكان قوى الحافظة . قيل إنه حفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير المقاطيع والقصائد . وكان فطنْ حاضر البديهة ، كريم الأخلاق كثير المروءة . ولطالما استخدم نفوذه وشعره لمساعدة من يلوذ به ، ويعتمد عليه .

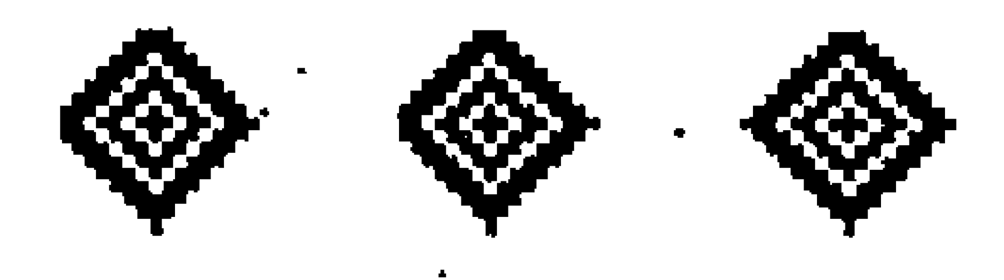
ويُعد أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من الشعراء المحدثين ، وقد انتهت إليه معانى المتقدمين والمتأخرين ، وأجاد فى كل فن من فنون الشعر ،

١ - أدباء العرب فى الأعصر العباسية (حياتهم – آثارهم – نقد آثارهم) بطرس البستانى دار نظير عبود ص ٩٣
٢ - أخبار أبى تمام للصولى ص ١٤٤
٣ اخبار أبى تمام للصولى ص ٢٥٩ وكذا تاريخ الأدب العربى العصر العباسي الأول الطبعة الثامنة دار المعارف ص ٢٧٥

وخاصة في المديح والرثاء حتى اشتهر بأنه : مداحة نواحة ، كما وصفه البحترى[1].

وكان عصره عصر التقاء العلوم والفنون والآداب بين الشرق والغرب ، فتأثر بعلوم وحكم اليونان والفرس والهند ، فحصف عقله ولطف خياله وحفل شعره بالحكم والأمثال ، وكان أول من استدل على الأمور بالأدلة العقلية والكنايات الخفية ، ولو أفضى به ذلك إلي التعقيد أحياناً ، وحاول ستر ذلك بالجناس والطباق والاستعارة فسلم له بعضها واعتل عليه بعضها .

وهو الذى مهد طريق الحكم والأمثال للمتنبى وأبى العلاء وغيرهما ، ولذلك كان يقال إن أبا تمام والمتنبى حكيمان والشاعر هو البحترى[2].



١ - أمراء الشعر السيد فرج ص ٢١٧

٢ - الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه أحمد الإسكندري ، مصطفى عنانى بك ص ٢٦٤

مذهب أبى تمام الشعرى

يمثل أبو تمام تيار الصنعة فى الشعر العربى القديم ، فهو يجهد نفسه فى الصياغة المعنوية واللفظية مولع بالإغراب وتقصى أوجه المعانى وفى التشبيهات والإستعارات ، وشعره يمتلئ بالإشارات التاريخية والفلسفية والنحوية ، ومعانيه جديدة مبتكرة وقد برع فى الرثاء (ولهذا اخترت له هذه القصيدة) ثم المديح وعرف بالحكم الكثيرة المنثورة فى قصائده .

ويرى بعض الباحثين ان أبا تمام يتبنى نظرية جديدة هى نظرية المعنى ثم اللفظ ، فهو يصف القصائد بأنها فيض العقول وهى المعنى البكر ، وهى ابنة الفكر المهذب . وله فى التعريف بمذهبه فى شعر الفكرة هذان البيتان من قصيدة مدح بها أبا دلف العجلى أمير الكرخ وسيد قومه :

ولو كان يفنى الشعر ما أفناه ما قـــرت

حيـــا ضـــك منـــه فـــى العصـــور الذواهـــب

ولكنــــه صـــوب العقـــول إذا انجلـــت

سحـــائـــب منـــه أعقبـــت بسحـــائـــب [1]

---

[1] - شرح ديوان أبى تمام ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوى ص ٨٨

وقد تحدث كثيراً فى هذا المجال ، فهو يصف قصائده أثناء مديحه للواثق بالله فيقول :

جاءتك من نظم اللسان قلادة

سمطان فيها اللؤلؤ المكنون

حذيت حذاء الضرمية أرهفت

وأجادها التحضير والتلسين

إنسية وحشية كثرت بها

حركات أهل الأرض وهى سكون

ينبوعها خضل وحلى قريضها

حلى الهدى ونسيجها موضون

أما المعانى فهى أبكار إذا

نصت ولكن القوافى عون [1]

---

[1] - شرح ديوان أبى تمام ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوى ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ وكذا من أراد أن يتبع ما قاله أبو تمام فى شعره واصفا مذهبه الفنى والمعنوى فليرجع إلى كتاب الشعر والشعراء فى العصر العباسي مصطفى الشكعة دار العلم للملايين – بيروت ص ٦٠٤ وما بعدها

ومن هنا يظهر لنا بوضوح أن أبا تمام يعتمد على الفكرة ، ويروى أن بعض الممدوحين كان يبلغ من فرط إعجابهم بشعر أبى تمام أنهم لا يسمعونه إلا وهم وقوف كالحسن بن رجاء الذى مدحه أبو تمام بقصيدته اللامية فما إن وصل إلى قوله :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى

فالسيل حرب للمكان العالى

وتنظرى خبب الركاب ينصها

محيي القريض إلى مميت المال [1]

حتى نهض واقفاً وقال : " والله لا أتممتها إلا وأنا قائم " فقام أبو تمام لقيامه واستمر منشداً .

وقد استحدث العديد من المعانى وعمد إلى استهلال بعض قصائده بوصف الطبيعة بدلاً من وصف الأطلال ، كما فعل حينما مدح ابن الهيثم حيث يقول:

[1] - تنظرى : ارتقبى ، الخبب : ضرب من السير ، الركاب : المطايا ، ينصها : يستحثها . انظر شرح ديوان أبى تمام إيليا الحاوى ص ٤٥٢

ديمة سمحة القيادة سكوب

مستغيث بها الثرى المكروب [1]

لو سعت بقعة لإعظام نعمى

لسعى نحوها المكان الجديب

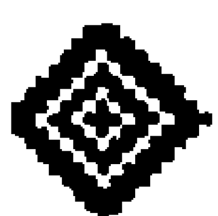
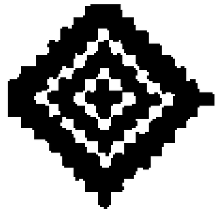
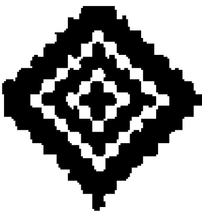
لذ شؤبوبها وطاب فلو تسـ

تطيع قامت فعانقتها القلوب [2]

كشف الروض رأسه واستسر

المحل منها كما استسر المريب [3]

وقد أغنى اللغة العربية بمعان لم تكن مألوفة فيها .

---

1 - الديمة : المطرة الدائمة الهطول ، سمحة القيادة . سمحة الهطول

2 - الشؤبوب : المطر الشديد

3 - شرح ديوان إيليا الحاوى ص ١١٩

١ - كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

٢ - توفيت الآمال بعد محمد
وأصبح في شغل عن السفر السفر

٣ - وما كان إلا مال من قل ماله
وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر

٤ - وما كان يدرى مجتدى جود كفه
إذا ما استلهت أنه خلق العسر

٥ - ألا في سبيل الله من عطلت له
فجاج سبيل الله وانثغر الثغر

اللغة

١ - **جل** : عظم ، **الخطب** : المصاب ،

الأمر الفادح : النازلة التى يعجز الإنسان عن حملها

يفض ماؤها : يكثر بكاؤها

٢ – **السفر**: المسافرون ، ٣ - **الذخـــر**: المال المدخر

٤ – **المجتدى**: طالب المعروف ، **استهلـت**: انهمرت بالعطاء وأصلها فى المطر ٥ - **الفجــاج**: السبل الوعرة

٦ - **انثغـر الثغــر**: إن الثغر تفجّى حزناً عليه وأصبحت الحدود مهددة بالخطر

المعنى

هذه القصيدة فى رثاء قائد شجاع ، ولذلك فإن الخطب عظيم والمصاب جلل فقد أحس الناس بهول الفاجعة فهم فى بكاء وذهول ، إذ انشغل الركبان عن سفرهم لأن خصال ومناقب الفقيد عديدة فهو عدة من لا عدة له ، وهو ينجد الملهوف ، ويقيل عثرات الفقراء ويعضدهم ، ويبدد العسر عن المعسر ، وإننا نحتسب فى سبيل الله مثل هذا الرجل الذى أصبحت ثغور المسلمين مهددة بعده ، وعطل الجهاد لغيابه ، فهو نجدة المستغيث.

٦ – فتـى كلمـا فاضـت عيـون قبيلة

دما ضحكـت عنـه الأحـاديـث والـذكـر

٧- فتى دهـره شطـران فيما ينوبـه

ففـى بأسـه شطـر وفى وجـوده شطـر

٨- فتى مات بين الضرب والطعن ميتة

تقـوم مقـام النصـر إذ فاتـه النصـر

٩ - وما مـات حتـى مات مضرب سيفـه

مـن الضـرب واعتلـت عليـه القنا السمر

١٠ - وقـد كـان فـوت الموت سهلا فرده

إليـه الحفـاظ المرّ والخلـق الوعـر

١١- ونفـس تعـاف العـار حتى كأنـه

هو الكفـر يـوم الروع أو دونـه الكفـر

اللغة

٦ - فاضـت عيـون قبيلة دماً : كناية عن النازلة العظيمة ،

ضحكت عنه الأحاديث والذكر: كناية عن إمتداحه لنجدته تلك القبيلة المنكوبة

١٠ – **فوت الموت** : النجاة منه ، **الحفاظ المر** : المجالدة والدفاع المستميت عن المحارم ، **الخلق الوعر** : الإباء والشمم والثبات الصلب على العقيدة والمبدأ.

١١ – **الروع** : يوم القتال الشديد فى الحرب .

المعنى

فى هذه الأبيات يبين الشاعر أن هذا القائد الشجاع قضى حياته بين الشجاعة فى الحرب والكرم فى وقت السلم ، بينما القبائل الأخرى تبكى دماً على قتلاها ، فيما يضحك منه الذكر والأحاديث لأنه هو الذى كان ينزل الهلاك بأبنائهم ، وقد مات ميتة تعد فى حد ذاتها انتصاراً له لأنه مات ثابتاً فى حومة الوغى وإنه لم يستسلم ولم يمت بسهولة ويسر بل إنه ضارب حتى فلّ مضرب سيفه وأعدم وكلّت الرماح ، وقد كان يسيراً عليه تجنب الموت إلا أن طبعه المقدام العسير وشدة مجالدته وأصراره على القتال دفاعاً عن الدين ومحارمه فهو يكره العار وينأى عنه ويعده كفرا بل إن الكفر أقل منه منزله.

١٢ – فأثبت فـى مستنقـع الموت رجْلـه

وقـال لهـا من تحـت أخمصـك الحشـر

١٣ – غـدا غـدوة والحمـد نسـج ردائه

فلـم ينصـرف إلا وأكفانـه الأجـر

١٤ – تردى ثياب الموت حمـرا فمـا أتـى

لهـا الليـل إلا وهـى مـن سنـدس خضـر

١٥ – كـأن بـني نبهـان يـوم فاتـه

نجـوم سمـاء خـر مـن بينهـا البـدر(١)

اللغة

١٢ – **أخمص القدم** : المكان الفارغ فى وسطها ،

الحشر : البعث حيث يجزى الشهداء بالجنة

١٤ – **سندس خضر** : يقصد الأجر الذى ناله .

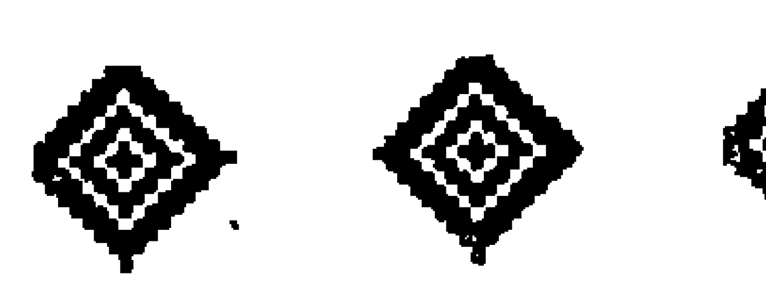
١٥ – **بنى نبهان** : قوم محمد بن حميد الطوسى الطائى .

---

(١) - شرح ديوان أبى تمام ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوى دار الكتاب اللبنانى – بيروت الطبعة الأولى حزيران ١٩٨١ ص ٦٧٠ ، ٦٧١

المعنى

يوضح لنا الشاعر فى هذه الأبيات أن هذا القائد صمد فى ميدان المعركة ، فلم يتركها إلا شهيداً بعد أن سُربل بدمه ، فإذا ما جاء الليل فـ عث الله به الشهداء إلا وقد لبس لباساً هل الجنة كسوة الفردوس الـ ـبية وبين الشاعر أن قومه يوم إستشهاده فى حالة من الفخر بهذا البطل المقدام .



تحليل وتعليق

استهل أبو تمام قصيدته بالفعل المضارع المتصل بلام الأمر وكان خطابه لغير العاقل . مما يوحى بخروج الأمر عن معناه الحقيقى إلى معنى بلاغى وهو (التمنى) أى يتمنى أن يشعر الجميع بفداحة المصاب كما يشعر به حتى يتخفف من ثقل الألم ووطأة الحسرة . وقد أعقب ذلك بلون من ألوان التذييل وهو ضرب من ضروب الإطناب . وجاء هنا فى معرض التوكيد لهول الحادثة والتعليل لمشروعية ما طلبه الشاعر وما تصوره . كما جاء التصريع لينمح الإيقاع جهارة وفخامة تليق بمثل هذه الواقعة الأليمة كما أن الحروف الحلقية كالعين والحاء والخاء وغيرها مما يلى الحلق ويمتلئ به الفم أو يوغل بعيداً فى مخرجه كالصدر . كل ذلك أسهم فى منح المطلع وقعاً مهيباً يشخص ويجسد الخطب الجلل .

- كما تلاحظ أن عنصر التشخيص من العناصر البارزة عند الشاعر ، وهو معروف بهذا اللون من الظواهر البلاغية الأسلوبية . فالآمال عنده شأنها شأن البشر تصيبها الوفاة . فنجد الإستعارة المكنية هنا قائمة على التشخيص . كذلك موت مضرب السيف هاتان الصورتان تصبان فى ذلك المجرى الفاجع الذى تدور حوله القصيدة وهو الموت . وكذلك الإعتلال :

واعتلت عليه القنا السمر .

- كما تلاحظ أيضاً أن المعنويات عند الشاعر تتحول إلى عناصر حية مشخصة فقد ردّه عن النجاة من الموت خلقه ودفاعه عن محارمه . وقد عمد إلى شئ من تركيب الصورة وتعقيدها خصوصاً فى كناياته التى بثها هنا وهناك . والكناية فيها لون من ألوان الخفاء والغموض فهى لا تبث المعنى مباشرة بل بواسطة وهو ما يطلق عليه (معنى المعنى) ففى قوله :

(أصبح في شغل عن السفر السفر) إنما يريد أن المصاب كان فادحاً إلى درجة ذهول الناس وانشغالهم عن مصالحهم وعن أمورهم الخاصة . كما في قوله " فاصت عيون قبيلة دماً " و " ضحكت عنه الأحاديث والذكر " ثم أيضاً ذلك الخطاب الموجه إلى قدمه . ومثل هذا لم يكن مألوفاً في الشعر العربي قبل أبي تمام ومسلم بن الوليد الذين اختطوا منهجاً جديداً في الصياغة الشعرية .

- كما يوجد في الأبيات تلوين بديعي أدى إلى تجديد اللفظ ومنحه سمات إيقاعية ونفسية وظلال إيحائية لقوله (السَّفَر السَّفَر) فهذا اللون من ألوان الجناس الذي جاء في نهاية البيت أعطى زخماً إيقاعياً ونفسياً . وكذلك قوله : (انثغر الثغر) . و (غدا غدوة) حيث شاكل الشاعر بين الفعل والفاعل . بالإضافة إلى ذلك ما أتى به من تكرار في الأبيات . فقد كرر

كلمة فتى ثلاث مرات فى صدر أبيات ثلاثة متتالية وأخبر عنه بجمل متماثلة فى صياغتها . ثم كرر أيضاً (فى سبيل اللّه) .

- كما تلاحظ فى الأبيات محسنات معنوية مثيرة للذهن والنفس معاً فى آن واحد . فهناك الترادف اللفظى فى قوله (فليجل وليفدح) . والتقابل وهما نقيضان . ولكن الشاعر وظفهما توظيفاً جمالياً أفاد فى شحن المعنى بشحنات نفسية وفكرية . فالنفى والإثبات أى المفارقة المعنوية تعد من أبرز المتكآت الأسلوبية فى القصيدة . فالخطب الجلل مقابل العين التى لم تبك والتى لا عذر لها (فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ) ففى الشطر الأول إثبات وفى الشطر الثانى نفى . وكما تتابع التوكيد عبر لام الأمر فى البيت الأول والثانى يتتابع النفى عبر الفعل ليس . والحرف لم فى البيت الثالث . فقد بدأ هذا البيت بتوكيد الإثبات عن طريق القصر (وما كان إلا مال من قل ماله) (وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر) فالمفارقة تشيع فى كل شطر .

- كما يلاحظ فى البيت السادس مقابلة فى قوله :

فتى كلما فاضت عيون قبيلة

دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر

- كما استطاع الشاعر أن يوظف اللون توظيفاً جمالياً مؤثراً وجعل هذه الألوان متقابلة . فالموت الأحمر يقابله الأجر الأخضر فى قوله :

١٢ – تردى ثياب الموت حمرا فما دجى

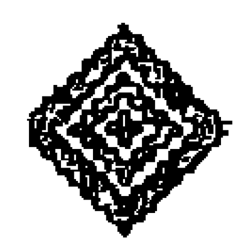
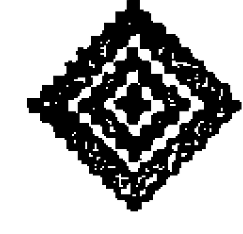
لها الليل إلا وهى من سندس خضر

- كما جاءت صورة ارتدائه ... متقابلة لارتدائه الأجر . فهذه السلسلة من المفارقات المعنوية نظمت المعانى فى القصيدة . وأقامتها على محور أساسى هو محور التحول والتغير والانعطاف وهو ظاهرة فكرية واضحة لدى أبى تمام فى معظم قصائده .

- ومن الواضح أيضاً أن ظاهرة التوليد فى المعانى لا يخطئها الحس فى قصيدة أبى تمام . فهو يتناول المعنى الواحد ويفرع

ويولد منه معانى عديدة . ففكرة الفقد الفاجع تأخذ صوراً عديدة عند الشاعر فهى وفاة للآمال وذهول عن السر . وكذلك فكرة الشجاعة فلبها على وجوها المختلفة فى اشكال عديدة .

- اختيار الشاعر بحر الطويل لأنه الأقدر على استيعاب حالة الحزن هذه ولأن بحر الطويل من البحور ذات النفس الملحمى الطويل التى تتسع للتفاصيل والاستقصاء وهو ما يناسب موضوع القصيدة .

أبو تمام يصف الربيع

١ – رقت حواشى الدهر فهى تمرمر

وغدا الثرى فى حليه يتكسر

٢ – نزلت مقدمة المصيف حميدة

ويد الشتاء جديدة لا تكفر

٣ – لولا الذى غرس الشتاء بكفه

لاقى المصيف هشائماً لا تثمر

٤ – كم ليلة آسى البلاد بنفسه

فيها ويومٍ وبلُهُ مثعنجر

٥ – مطر يذوب الصحو فيه وبعده

صحو يكاد من الغضارة يمطر

- غيثان فالأنواءُ غيث ظاهر

لك وجهه والصحو غيث مضمر .

٧ – وندى إذا ادهنت به لمم الثرى

خلت السحاب أتاه ...وٌ معذرُ

٨ – أربيعنا فى تسع عشرة حجة

حقاً لهنك للربيع الازهرُ

٩ – ما كانت الأيام تسلب بهجة

لو أن حسن الروض كان يعمر

١٠ – أولا ترى الأشياء إن هي غيرت

سمجت وحسن الأرض حين تغيَّر

١١ – يا صاحبى تقصيا نظريكما

تريا وجوه الأرض [illegible]

١٢ – تريا نهاراً مشمساً قد شابه

زهر الربا فكأنما هو مقمر

١٣ – دنيا معاش للورى حتى إذا

جُلى الربيع فإنما هى منظر

١٤ – أضحت تصوغ بطونها لظهورها

نوراً تكاد له القلوب تنور

١٥ – من كل زائرة ترقرق بالندى

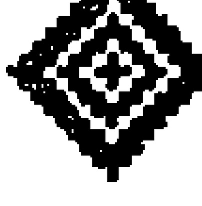
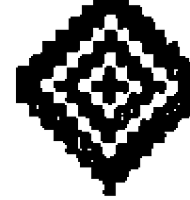
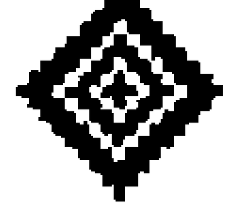
فكأنها عين عليه تحدر

١٦ – تبدو ويحجبها الجميم كأنها

عذراءِ تبدو تارة وتخفر

١٧ – حتى غدت وهداتها ونجادها

فئتين في خِلَع الربيع تبختر [١]

- شرح ديوان أبى تمام ضبط معانيه ومشروحه وأكملها ايليا الحاوى الطبعة الأولى حزيران ١٩٨١ دار الكتاب اللبنانى – بيروت ص ٢٨٥ ، ٢٨٧

١ – رقت حواشي الدهر فهي تمرمر

وغدا الثرى في حليه يتكسر

٢ – نزلت مقدمة المصيف حميدة

ويد الشتاء جديدة لا تكفر

٣ – لولا الذي غرس الشتاء بكفه

لاقى المصيف هشائماً لا تثمر

٤ – كم ليلة آسى البلاد بنفسه

فيها ويومٍ وبلُهُ منعنجر

٥ – مطر يذوب الصحو فيه وبعده

صحو يكاد من الغضارة يمطر

٦ – غيثان فالأنواءُ غيث ظاهر

لك وجهه والصحو غيث مضمر

اللغة

١ – **تمرمر** : تتمايل وتموج ، **الثرى** : التراب ، **الحلى** : الزينة ،
يتكسر : يتثنى

٢ – **نزلت** : جاءت ، **مقدمة المصيف** : أوله (الربيع) ،
حميدة : محمودة الأثر ، **يد الشتاء** : المقصود فضله ،
جديدة : ظاهرة ، **تكفر** : لا ينكرها أحد (مشاهدة)

٣ – **الهشائم** : نباتات ذابلة صفراء يابسة متكسره

٤ – **آسى** : ساوى أو أنال ، **الوبل** : المطر ، **المثعنجر** : السائل من المطر الغزير المصوّت .

٥ – **الغضارة** : الخصب والسعة ، **يمطر** : يسكب الماء .

٦ – **الغيث** : المطر ، **الأنواء** : تجمع الأمطار .

المعنى

الشاعر مفتون بجمال الطبيعه فى فصل الربيع فيقول : إن الدهر بمقدم الربيع رقت حواشيه فهى تتمايل ، والتراب امتلأ زهوراً ونباتاً فهو يموج

ويتمايل بتمايلها ، لقذ أتى الربيع جميلاً رائعاً وما زالت آثار الشتاء ظاهرة من بقايا المطر والسحب فلولا غراس الشتاء الذى قدم بكفه له الماء والنماء ما أثمر الربيع زهراً وروحاً وريحاناً ، ولولا هذه الأمطار التى سقت الزروع والأشجار فاخضرت لجاء الربيع ووجد هذه الأشجار والنباتات صفراء ذابلة لا حياة فيها ، وكم ليلة أعطى الربيع البلاد فيها بنفسه وجوده ، وكم يوم أغدق على الحياة والناس المطر والماء فتتقلب الأرض على يديه من صحو إلى غيم ومطر ومن مطر إلى صحو مشرق نضر يكاد من شدة خصبه يسيل الماء ، وقد جعل الشاعر الأرض بالربيع في غيثين : غيث ظاهر هو المطر المنسكب ، وغيث خفى هو الصحو الذى يعقبه كالمطر لأنه يكمل ما أداه الغيث إذ ينمى النبت وتمتلئ الأرض فيه بالنبات والزهور . (١)

---

١ - تراثنا الأدبى صور من روائعه وملامحه ابراهيم على أبو الخشب ، محمد عبد المنعم خفاجى دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة ص ٢٤٣

٧ – وندى إذا ادهنت به لمم الثرى

خلت السحاب أتاه وهوُ معذرُ

٨ – أربيعنا فى تسع عشرة حجة

حقاً لهنك للربيع الأزهرُ

٩ – ما كانت الأيام تسلب بهجة

لو أن حسن الروض كان يعمر

١٠ – أولا ترى الأشياء إن هي غيرت

سمجت وحسن الأرض حين تَغيَّر؟

١١ – يا صاحبى تقصيا نظريكما

تريا وجوه الأرض كيف تصور

١٢ – تريا نهاراً مشمساً قد شابه

زهر الربا فكأنما هو مقمر

اللغة

٧ – **اللمة** : الشعر المجاور شحمة الأذن أضافها للثرى وهى الأرض مجازا ، **خلت** : ظننت ، **المعذر** : الذى نبت له عذار وهو الشعر النازل على اللحيين. ٨ – **الحجة** : المرة والسنة .

٩ – **تسلب بهجة** : يُنتزع منها جمالها وتُفقد ، **حسن** : جمال ، **يعمر** : يدوم ويخلد ويبقى ويعيش كثيراً . ١٠ – **سمجت** : قبحت

١١ – **تقصيا نظريكما** : تأملا وتحققا وانظر فى دقة ، **وجوه الأرض** : أنحاؤها ، **تصور** : تتصور وحذفت التاء للتخفيف

١٢ – **شابه** : خالطه وامتزج به ، **الربا** : الأماكن العالية.

المعنى

يقول الشاعر فى الربيع يتساقط الندى على وجه الأرض حتى ليظن أن السحاب أمطرها مطراً خفيفاً ، ثم يخاطب الشاعر الربيع الذى صادف بدؤه فى التاسع عشر من ذى الحجة أو فى عام ٢١٩ هـ فيقول له : لم يأت ربيع مثلك مذ هذه المدة فى كثرة الأمطار ودلائل الأثمار . يؤكد الشاعر أن سعادتنا متعلقة بالطبيعة فى فصل الربيع فلو كان فصل الربيع

يدوم طوال العام وتظل مظاهر الجمال موجودة إلى الأبد كانت سعادتنا ستدوم ولا تنقطع أبداً .

ثم يقول الشاعر إن من الأشياء ما إذا ناله تغيير قبح وصار دميماً ولكن حسن الأرض وجمالها فى تغيير فصول السنة من شتاء إلى ربيع إلى صيف فخريف ، والفصول تسير حتى تكتمل بالربيع ، الذى تكتمل به الارض بهجة وجمالاً.

ثم يوجه الشاعر خطابه إلى صاحبيه على عادة الشعراء القدماء فيدعوهما ليتأملا منظر الطبيعة وكيف تنتقل الأرض من حالة إلى حالة وكيف تبدو كل يوم بوجه جديد ، والذى يمعن النظر للطبيعة فى الربيع يعجبه منظر شعاع الشمس الذى يتساقط بالنهار على الأزهار فيبدو النهار وكأنما هو ليل مقمر منير .

١٣ – دنيا معاش للورى حتى إذا

جُلى الربيع فإنما هى منظر

١٤ – أضحت تصوغ بطونها لظهورها

نوراً تكاد له القلوب تنور

١٥ – من كل زائرة ترقرق بالندى

فكأنها عين عليه تحدر

١٦ – تبدو ويحجبها الجميم كأنها

عذراء تبدو تارة وتخفر

١٧ – حتى غدت وهداتها ونجادها

فئتين فى خِلَع الربيع تبختر

اللغة

١٣ – **الورى** : الخلق ، **جلى** : أظهر وبين ، **منظر** : شكل بديع جميل .

١٤ – **تصوغ** : تصنع ، **بطونها** : باطن الأرض ، **ظهورها** : ظهر الأرض ، **النور** : الزّهر ، **تنور** : تضئ أو تزهر .

١٥ – **ترقرق** : تجرى جرياً سهلا ، **تحدر** : تسكب الدمع

١٦ – **الجميم** : النبات المغطى الأرض . **العذراء** : البكر ،

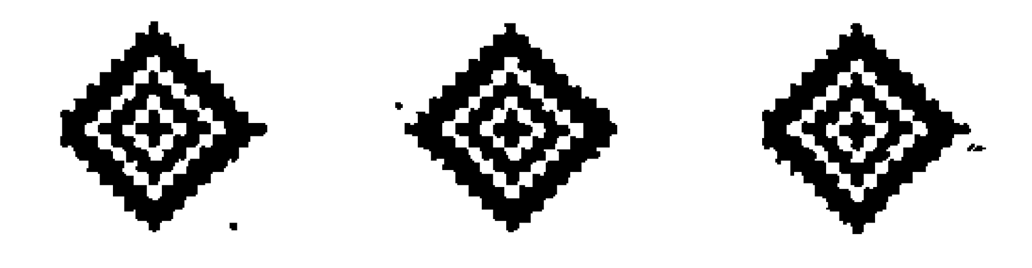
تخفر : تستحى

١٧ – **غدت** : أصبحت ، **الوهدات** : المنخفضات ، **النجاد** : جمع نجد وهي الأرض المرتفعة ، **الفئة** : الطائفة ، **الحلل** : الثياب ، **تبختر** : تتمايل فى تيه وزهو .

المعنى

وما أروع منظر الدنيا فى فصل الربيع فالناس تسعد بمناظره الخلابة وكأنه مكافأة لهم على السعى والعمل والكفاح طوال العام ، وفى الربيع أصبحت بطون الأرض بما تخرج على ظهرها من أزهار وورود تكسو الأرض ثياباً مختلفة الألوان تكاد لها القلوب أن تنور وتشرق سروراً وسعادة لهذا المنظر البديع ، وأعجب لما تخرجه الأرض فى الربيع من زهرة تترقرق بالندى فتتفتح ويتساقط من فوقها حتى لتظنها عيناً تطل عليك وترنو إليك ودمعها يسيل .

وما أجمل منظر الزهور بين الحشائش والنباتات حيث تظهر تارة وتحجبها النباتات أخرى ، فكأنها عذراء تظهر محاسن وجهها تارة ، ثم تحجبها تارة أخرى ، وجميع بقاع الأرض بمرتفعاتها ومنخفضاتها قد أصبحت وكأنها نوعان من الفتيات الحسان يتمايلن زهواً وتيها فى حلل الربيع المزركش الألوان .



تحليل وتعليق

الربيع دائماً قد ألهم الشعر روائع القصائد ، وغر القلائد فلا بدع أن يلهم الشاعر العربي الكبير أبا تمام فينطق بهذا الوصف الرائع البديع .

فى هذه القصيدة نجد الشاعر يمدح المعتصم ويصور الربيع واصلاً بينه وبين عصر المعتصم وكأنه يرى عصره ربيع العصور العباسية . وهذا الوصل بين الممدوح والطبيعة يجعلنا نحس فى وضوح عنده بوحدة القصيدة ، وكأنها بمقدماتها عمل فنى نامٍ لا يزال بعضه يتولد من بعض .

وفى أسلوب أبى تمام كثيراً من ألوان الصناعة الشعرية . وكثير من صنع البديع من طباق وجناس ومقابلة وسواها . وذلك فن اشتهر به أبو تمام . وتفوق فيه ومن أمثلة ذلك : المطابقة فى البيت الثانى بين قوله "المصيف ، الشتاء" وفى التاسع بين " تسلب ، يعمر " وفى العاشر بين " سمجت ، حسن " وفى الثانى عشر بين " شمسا ، مقمر " وفى الرابع عشر بين " بطونها ، ظهورها " وفى السابع عشر بين " وهداتها ، نجادها ".

ومن المحسنات البديعية الجناس الناقص فى البيت الرابع عشر بين " نورا ، تنور " .

ومن المحسنات البديعية المقابلة فى البيت الثالث عشر بين شطرى البيت .

والقصيدة حافلة بالاستعارات ومن أمثلة ذلك : قوله فى البيت الثالث " غرس الشتاء بكفه " ، والبيت التاسع " ما كانت الأيام تسلب بهجة " وفى البيت الثالث عشر " جُلى الربيع "

وفى البيت الرابع عشر " أضحت تصوغ بطونها لظهورها نورا "

وفى البيت السابع عشر " فئتين فى خلع الربيع تبختر " ، والقصيدة أيضاً حافلة بالكنايات ومن أمثلة ذلك قوله " لاقى المصيف هشائما لا تثمر "

وفى البيت التاسع قوله

" ما كانت الأيام تسلب بهجة   لو أن حسن الروض كان يعمر" البيت كله كناية عن السعادة فى فصل الربيع .

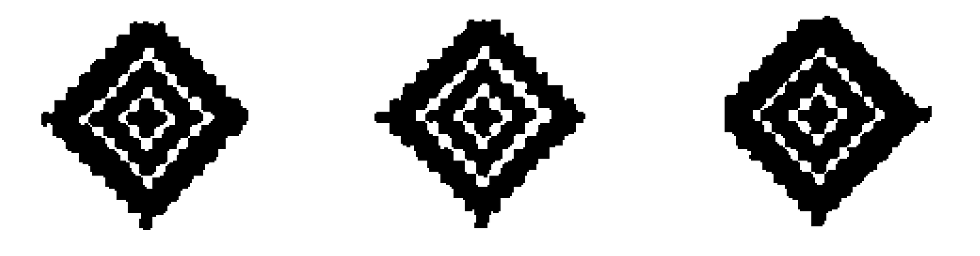
وفى البيت الحادى عشر " تريا وجوه الأرض ".

وفى البيت الثالث عشر " دنيا معاش للورى "

وفى قوله " إنما هى منظر "

وفى البيت الرابع عشر " تكاد له القلوب تنور".

ولغة أبى تمام فى هذه القصيدة حسنة وألفاظه فيها بعض الغرابة ومن بين ألفاظه الغريبة لفظة " مثعنجر " ووصفه للربيع فى جملته وصف لمظاهره المادية الخارجية.



وصف إيوان كسرى للبحتري

١- صُنتُ نفْسِي عَمّا يُدنّس نفسي،

وَتـرَفّعتُ عـن جَـدا كـلّ جِبْسِ

٢- وَتمـاسَكْتُ حَيَنُ زَعزَعني الدّهْـ

ـرُ التماساً منهُ لتعسِي، وَنُكسي

٣- بُـلَغٌ مـنْ صُبابَةِ العَيـشِ عندِي،

طَفّفَتهـا الأيّامُ تطفيـفَ بَخْسِ

٤- وَبَعـيدٌ مَا بَيـنَ وَارِدِ رِفْـهٍ،

عَـلَلٍ شُـرْبُـهُ، وَوَارِدِ خِمْـسِ

٥- وَكَأنّ الزّمَـانَ أصْبَـحَ مَحْمُـو

لاً هَـوَاهُ معَ الأخَس الأخَسّ

٦- وَاشتـرَائي العـرَاقَ خِطّـةَ غَبْنٍ،

بَعـدَ بَيعـي الشّآمَ بَيعةَ وَكْسِ

٧- لا ترُزْنـي مُـزَاوِلاً لاخْتـبَارِي،

بعـد هـذي البَلوَى، فتُنكرَ مَسّي

٨- وَقَديماً عَهـدْتـنـي ذا هَنَاتٍ،

آبيـاتٍ، علـى الدّنياتِ، شُمْسِ

٩- وَلَقَدْ رَابَنـي نُـبُوُّ ابـنِ عَـمّي،

بَعْـد لِيـنٍ من جانبَيـهِ، وأنسِ

١٠- وإذا ما جُفيتُ كنتُ جـديـراً

إنْ أرَى غيرَ مُصْبحٍ حَيثُ أمسِي

١١- حَضَرَتْ رَحليَ الهُمُومُ فَوَجّهْـ

ـتُ إلى أبيَضِ المَدائنِ عُنسِي

١٢- أتسَلّى عَنِ الحُظُوظِ، وَآسَى

لَمَحَلٍّ من آلِ ساسَانَ، دَرْسِ

١٣- أذكَرتنيهُمُ الخُطوبُ التوالي،

وَلقَدْ تُذكِرُ الخُطوبُ وتُنسِي

١٤- وَهُمُ خافضُونَ في ظلّ عَالٍ،

مُشرفٍ يُحسرُ العُيون ويُخسِي

١٥- مُغلَقٍ بَابُهُ عَلى جَبَلِ القَبْـ

ـقِ إلى دَارتَيْ خِلاطٍ ومَكْس

١٦- حِلَلٌ لم تكُنْ كأطلالِ سُعدَى

في قِفارٍ منَ البَسابسِ، مُلْسِ

١٧- وَمَسَاعٍ، لَوْلا المحَابَاةُ منّي،

لم تُطِقْها مَسعاةُ عَنسٍ وَعَبْس

١٨- نقَلَ الدّهرُ عَهدَهُنّ عَنِ الجِـ

ـدّة، حتّى رجعنَ أنضاءَ لُبْس

١٩- فكَأنّ الجِرْمَزَ منْ عَدَمِ الأنـ
ـسِ وإخْلالِهِ، بَنيّةُ رَمْسِ
٢٠- لَوْ تراهُ عَلمْتَ أن اللّيَالي
جَعَلَتْ فيهِ مأتماً، بعد عُرْسِ
٢١- وَهْوَ يُنْبيكَ عَنْ عَجائِبِ قَوْمٍ،
لا يُشَابُ البَيانُ فيهم بلَبْسِ
٢٢- وإذا ما رَأيْتَ صُورَةَ أنطَا
كيَةَ ارْتَعْتَ بَينَ رُومٍ وَفُرْسِ
٢٣- والمَنايَا مَوَاثِلٌ، وأنُوشَرْ
وانَ يُزْجي الصّفوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ
٢٤- في اخضِرَارٍ منَ اللّباسِ على أصْـ
ـفَرَ يَختالُ في صَبيغَةِ وَرْسِ

٢٥- وَعِرَاكُ الرّجَالِ بَيـنَ يَدَيـهِ،
في خُفوتٍ منهمْ وإغماضِ جَرْسِ

٢٦- مِـنْ مُشيحٍ يهوي بعاملِ رُمْحٍ،
ومُليحٍ، مِـن السّنانِ، بتُرْسِ

٢٧- تصِفُ العَينُ أنهُّمْ جِدُّ أحيَا
ءَ لَهُـمْ بَينَهُمْ إشـارَةُ خُـرْسِ

٢٨- يَغتلي فيهِمُ ارْتِيـابـيَ، حَتّى
تتقَرّاهُـمُ يَـدايَ بِلَمْـسِ

٢٩- قَد سَقاني، ولَمْ يُصَرِّدْ أبو الغَوْ
ثِ على العَسكَرَينِ شُرْبَةَ خلْـسِ

٣٠- مِنْ مُدامٍ تظنّهَا هيَ نجْـمٌ
ضَوأ اللّيلَ، أوْ مُجاجَةُ شمْـسِ

٣١- وَترَاها ، إذا أجَدّتْ سُــرُوراً،

وَارْتيـاحــاً للشّــارِبِ المُتحَسّــي

٣٢- أفْرِغَتْ في الزّجاج من كلّ قلبٍ،

فَهْيَ مَحبُوبَـةٌ إلـى كـلّ نفْـسِ

٣٣- وَتوَهّمْـتَ أنْ كسرَى أبَرْويـ

ـزَ مُعَاطـيَّ، والبَلَهْبَذُ أُنسِـي

٣٤- حُلُمٌ مُطبِقٌ على الشّكّ عَيني،

أمْ أمَانٍ غَيّـرْنَ ظَنّـي وَحَدْسـي؟

٣٥- وَكأنّ الإيوَانَ منْ عَجَبِ الصّنْـ

ـعَةِ جَـوْبٌ في جنبِ أرْعَنَ جِلسِ

٣٦- يُتَظَنّى مِنَ الكَآبَـةِ أنْ يَبْـ

ـدُو لعَيْنَـي مُصَبِّـحٍ، أوْ مُمَسّـي

٣- مُزْعَجاً بالفَراقِ عن أنسِ إلْفٍ

عَــزّ أوْ مُرْهَقَـاً بتطليــق عِــرْسِ

٣- عكَستْ حَظَّهُ اللّيالـي وَباتَ الـ

ـمُشتَرِي فيهِ، وَهو كوْكبٌ نحــسِ

٣- فَهْوَ يُبْدي تجَلّداً، وَعَلَيْـهِ

كَلكَـلٌ مـن كَلاكـلِ الدّهـرِ مُرْسِـي

٤- لمْ يَعِبْهُ أنْ بُزّ منْ بُسُطِ الدّيـ

ـباج وَاستُلّ مـن سُتـورِ الدِّمَقْـسِ

٤- مُشْمَخِرٌّ تعْلُو لَهُ شُرَفَـاتٌ،

رُفِعتْ فْي رؤُوسِ رَضْوَى وَقُـدْسِ

٤- لابسَاتٌ من البَيَاض فَمَا تُبْـ

ـصِرُ منهـا إلاّ غَلائـلَ بُـرْسِ

٤٣ - لَيسَ يُدرَى: أَصُنعُ إنسٍ لجنٍّ

سَكَنوهُ أمْ صُنعُ جنٍّ لإنسِ

٤٤ - غيرَ أني أراهُ يَشْهَدُ أنْ لَمْ

يكُ بَانيهِ في الملوكِ بِنكْسِ

٤٥ - فكأني أرى المَراتبَ والقَوْ

مَ، إذا ما بلغتُ آخرَ حسّي

٤٦ - وكأنّ الوُفودَ ضاحينَ حسرَى،

من وقُوفٍ خلفَ الزِّحامِ وخُنسِ

٤٧ - وكأنّ القِيانَ، وسْطَ المقاصيـ

ـرِ، يُرجّعن بينَ حُوٍّ ولُعسِ

٤٨ - وكأنّ اللِّقاءَ أوّلُ منْ أمْـ

ـسِ، ووشْكَ الفِراقِ أوّلُ أمسِ

٤٩- وَكَأنّ الذي يُريدُ اتبَاعاً

طامعٌ في لُحوقهمْ صُبحَ خمسِ

٥٠- عَمَرَتْ للسّرُورِ دَهْراً، فصَارَتْ

للتّعَزّي رِبَاعُهُمْ، وَالتّأسّي

٥١- فَلَهَا أنْ أعِينَهَا بدُمُوعٍ،

مُوقَفَاتٍ عَلى الصَّبَابَةِ، حُبْسِ

٥٢- ذاكَ عندي وَلَيستِ الدّارُ داري،

باقترَابٍ منها، ولا الجنسُ جنسي

٥٣- غَيرَ نُعْمَى لأهْلِهَا عندَ أهْلي،

غرَسُوا منْ زَكَائِها خيرَ غَرْسِ

٥٤- أيّدُو مُلْكَنا، وَشَدّوا قُوَاهُ

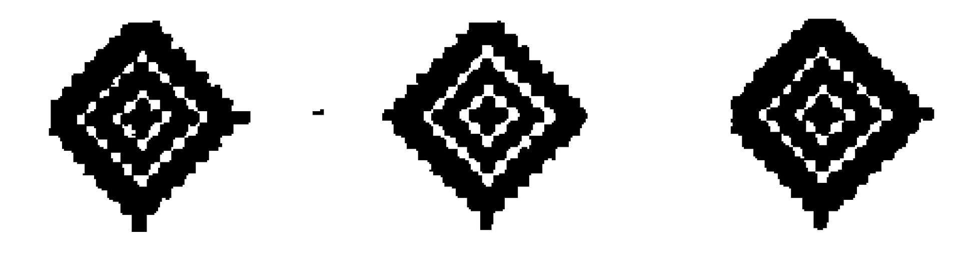
بكُماةٍ، تحتَ السّنَوّرِ، حُمْسِ

٥٥- وأعَانُوا عَلى كتائِبِ أرْيَا

طَ بطَعنٍ على النّحورِ، وَدَعْسِ

٥٦- وأرَانِي، منْ بَعدُ، أكْلَفُ بالأشْـ

ـرافِ طُرّاً منْ كلّ سِنخٍ وَإسّ [١]



---

[١] - ديوان البحترى عنى بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفى الطبعة الثالثة دار المعارف المجلد الثانى ص ١١٥٢-١١٦٢

التعريف بالشاعر

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى ، ولد فى مدينة منَبْج إلى الشمال الشرقى من حلب على الطريق المؤدية منها إلى الفرات وهى مدينة كثيرة البساتين عذبة الماء باردة الهواء ، سنة ٢٠٦ هجرية ونشأ فى قبائل بنى طئ غربياً خالصاً ، ومات سنة ٢٨٤ هجرية . تنقل بين بلدان الشام يتكسب بمديح أشخاص ليسوا من أصحاب الجاه والسلطان واتسع رحلاته إلى حمص فإذ هو يسمع بأن أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فعرض عليه شعره ، فأقبل عليه ، وقال له " أنت أشعر من أنشدنى فكيف حالك " ، فشكا إليه حاله فكاتب أبو تمام أهل معرة النعمان : " يصل كتابى مع الوليد أبى عبادة الطائى وهو على بذا ذاته " سوء حاله " شاعر فأكرموه " واستقبلوه استقبالاً حسناً ووظفوا له أربعة آلاف درهم " [1] ولعل من الواضح أنه لم يصله بأهل معرة النعمان فقط ، بل وصله أيضاً ببعض ممدوحيه إذ نراه يقبل على بعض من خصهم بمديحه فيمدحهم

[1] - الأغانى لأبى فرج الأصبهانى ج ١٨ ص ١٦٩

، مثل آل حميد الطوسى فى الموصل ، وخالد بن يزيد الشيبانى والى أرمينية والثغور ، وأبى سعيد بن يوسف الثغرى الطائى الذى ولاه المعتصم حلب وثغور الشام والجزيرة ، وقد لزمه ولزم ابنه يوسف ، ويبدو أنه أول من اتصل بهم من ممدوحى أبى تمام .(١)

كما اتصل أيضاً بالفتح بن خاقان وزير المتوكل وبالمتوكل فنال الحظوة عندهما ، وقد مدح الطولونيين حكام مصر آنذاك .

ولم يكتف أبو تمام بتقديم البحترى إلى بعض ممدوحيه، فقد مضى يتعهد شاعريته ، ويلقنه كيف يجيد الشعر ويحسنه ، حتى خرَّجه فيه شاعراً ممتازاً راع معاصريه ، وقد وضع أبو تمام نُصْبَ عينى البحترى دستوراً قويماً لإحسانه صناعة الشعر وقد أوصى البحترى وصايا كثيرة حتى يتقن صناعته ، من هذه الوصايا أن يتخير أوقات إلهامه ، ثم يصف له الجودة التى يقوم عليها النسيب والمديح جميعاً ، مع العناية بدقائق المعانى وجمال الألفاظ والأساليب ، وأغلب الظن أنه حين وجد فى تلميذه حسن الاستجابة ، واطمأن إلى أنه شاعر

١ - تاريخ الأدب العربى العصر العباسي الثانى شوقى ضيف الطبعة الثانية دار المعارف ص ٢٧٢

سيكون له شأن أخذ يعرفه لا على أهل معرة النعمان فحسب ، بل أيضاً على ممدوحيه فى حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية.

ولم تذكر لنا كتب الأدب أخبار عن هيئته وصورته إلا ما روى عنه من أنه كان أسمر طويل اللحية قبيح الهيئة وسخ الثياب معجباً بنفسه متقلب الهوى يحب المال ، شديد البخل ، وقد نشأ فى أحضان عشيرته يتغذى من فصاحتها ويبدو أنه اختلف مبكراً إلى الكتّاب ، فحفظ القرآن الكريم أو قدراً كبيراً منه . كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب ، واختلف حين شبَّ إلى حلقات العلماء فى المساجد يأخذ عنهم اللغة والنحو وشيئاً من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام . واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه فى بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته.[1]

وكان البحترى يأخذ بحظوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية فى عصره وليس معنى ذلك أنه تخصص فى أحد فروعها ، ولكنه كان يلم بها ، إذ كانت حلقاتها مفتوحة للصادر والوارد فى جميع أنحاء العالم العربى حينئذ ، ويرمز إلى ذلك فى شعره أننا نراه فيه يعرض لبعض

---

[1] - أسراء الشعراء السيد فراج الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ ص ٢٢٩

اصطلاحات علم الحديث ، إذ يقول فى مديحه لإبراهيم بن الحسن بن سهل :

خـلـق أتيت بفضلـه وسنائـه
طبعـا فجـاء كأنـه مصنـوع

وحديـث مجد عنك أفرط حسنـه
حتـى ظننـا أنـه موضـوع[1]

ولعل ذلك يؤكد صلته بالدراسات الإسلامية لعصره ، وبالمثل كان على صلة بالدراسات العربية من تاريخية ولغوية ونحوية ، ولعل هذا طبيعى لأنه أعد نفسه ليكون شاعراً مرموقاً ، فكان لابد له أن يتزود بهذه العلوم المختلفة .

وكان لا يبارى فى ثقافته بالشعر ، مما جعله يضع فيه ديوان حماسة مشاكلة ومشابهة لأستاذه أبى تمام فى حماسته المشهورة ، وقد قال فى معظم أغراض الشعر ، وشهد له نقاد عصره ومن تلاهم

---

[1] - ديوان البحترى عنى بتحقيقه وشروحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفى المجلد الثانى ص ١٣١٦

كالأمدى والثعالبى وابن رشيق وابن الأثير والصولى ،ومعروف ببراعة الوصف الذى غلب فنون الشعر عنده ، وقد أكثر من وصف القصور والرياض ، ولهذا اخترت له هذه القصيدة فى الوصف على الرغم من كثرة مدائحه ، إذ يروى أنه لم يترك وجيهاً ولا ولياً ولا صاحب خراج فى طريقه من سامراء إلى منبج إلا ويقدم إليه مدائحه ويأخذ جوائزه .

ومن الجدير بذكر أن البحترى لم يتورط مثل ابن الجهم فى هجاء المعتزلة إرضاء للمتوكل ولا فى هجاء العلويين ولا فى هجاء النصارى.

وأظلمت الدنيا فى عينيه بعد مقتل المتوكل وصاحبه الفتح بن خاقان ، فخرج إلى المدائن يتعزى ، وهناك نظم سينيته مودعاً فيها حزنه وآساه وعاد إلى سامراء وتركها إلى منبج وأهله . ودفعه الطمع إلى أن يعود إلى المنتصر سريعاً وأن يقف بباب وزيره أحمد بن الخطيب متوسلاً إليه بكاتبه الحسن بن مخلد حتى يقربه منه ويسترضيه له، ويجيبه إلى أمنيته ، فيعفو عنه المنتصر ، ويستمع

إلى قصيدته فيه ، وكان قد رفع المحنة التى أنزلها أبوه بالعلويين ودفع الأذى عنهم والتعرض لشيعتهم ، وفى ذلك يقول البحترى :

وَآلُ أبـــي طالِـــبٍ بَعـدَمــا

أذيـــعَ بِسِربِهِــم فابــذَعَـــرْ

وَنـــالَـــتْ أدانِيهُــمُ جَفــــوَةٌ

تَـكـــادُ السَمــاءُ لهــا تَنفَطِـرْ

وَصَلـــتَ شَوابِـــكَ أرحامِهِــمْ

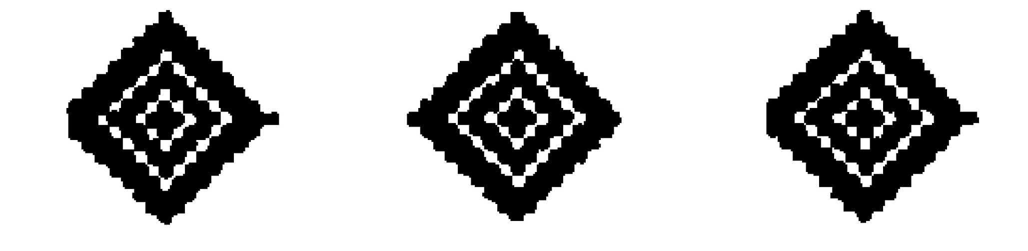
وَقَـــد أوشَـــكَ الحَبـــلُ أن يَنبَتِرْ[1]

وهو جانب فى البحترى لاحظه بعض معاصريه ، إذ تحدثوا عن كفره للإحسان وعدم وفائه ، حين يقلب الدهر مجنّه لبعض ممدوحيه أو حين يسبق إليهم الموت ، فإنه بدلاً من أن يثير ذلك فى نفسه ضروباً من الشفقة والرحمة ، يسارع إلى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء ما فى أيديهم من المال والنفع .

---

[1] ـ ديوان البحترى تحقيق حسن كامل الصيرفي المجلد الثانى ص ٨٥٠

أما القصيدة التى بين أيدينا فقد قالها البحترى بعد مقتل المتوكل وصاحبه الفتح بن خاقان فخرج إلى المدائن يعزى نفسه ويقف على القصور ، فقد تحدث عن قصر الجعفرى المدمر بالقرب من سامراء على شاطئ القاطول فرع دجله الذى استحدثه المتوكل ، وكان معروفاً بحبه لبناء القصور ، فقد أنفق ما يقرب من ثلاثة عشر مليون جنيه.



١- صُنتُ نفْسِي عَمّا يُدَنس نفسي،

وَتـرَفعتُ عن جَدا كـلّ جِبْسِ

٢- وَتماسَكْتُ حَينَ زَعزَعني الدّهْ

ـرُ التماسـاً منهُ لتعسِي، وَنُكسي

٣- بُـلَغٌ مـنْ صُبابَةِ العَيـشِ عندِي،

طَفّفَتهـا الأيّامُ تطفيـفَ بَخْسِ

٤- وَبَعـيدٌ مَا بَيـنَ وَاردِ رِفْــهٍ،

عَـلَلٍ شُـرْبُـهُ، وَوَارِدِ خِمْـسِ

٥- وَكَـأنّ الزّمَانَ أصْبَـحَ مَحْمُـو

لاً هَـوَاهُ معَ الأخَـسّ الأخَـسّ

٦- وَاشـتـرَائـي العـرَاقَ خِطّـةَ غَبْـنٍ،

بَعـدَ بَيعـي الشّـآمَ بَيعةَ وَكْـس

اللغة

١ - الجِبْس : الجبان واللئيم والفاسق والثقيل الروح .

٢ - النكسى : انقلاب الرجل على رأسه ، أو سقوطه كلما نهض أى الإنكفاء والانهزام.

٣- بلـغ : جمع بُلغة : وهو ما يسد رمق الإنسان من الطعام والشراب أى ما يتبلغ به فى العيش ولا يفضل منه شيء

الصبابة : البيقة من الماء ، التطفيف : نقص الكيل ،

بخس حقه : أنقص منه وظلمه فيه .

٤ - وارد رفه : أى مرفه الماء يتوفر له متى شاء فهو يرده حينما يريد فهو طيب العيش ولينه . ويقال رفهت الإبل اى وردت الماء متى شاءت .

العَلَل : ورود الماء ثانية بعد الورود الأول الذى يسمى النهل.

الخمس : من أظمأ الإبل وهى أن ترعى ثلاثة أيام وترد فى اليوم الرابع وترد الماء كل خمسة أيام على عكس وارد الرفه.

٦ - اشترائى العراق : اختيارى للعراق بعد هجرى الشام من أجل التكسب فكان أن خسرت الشام ولم أربح العراق

الغبن : الخداع فى البيع والشراء ، الوكس : النقصان والخسارة

المعنى

تدور هذه الأبيات حول محور الذات ، فالبحترى يفخر ويشكو ويتحدث عن نفسه فهو لا يقبل الوضاعة ويترفع عن الدناءة والذل ، ويشكو من الزمان الذى يميل مع الأخس ، ويسعى فى تعسى الشريف ونكسه ، وهو صامد ثابت أمام مصائب الدهر الذى يحاول أن ينال من عزيمته ، وقد أصبح يعيش عيشة الكفاف بعد ان قدر عليه رزقه ، فأين هو من أولئك المرفهين الذين يعيشون عيشة طيبة لينة يحتسون الحياة ماءً قراحاً وقتما يشاؤون ، وأين هو من عيشة الرفاهية وقد ترك الشام من أجل التكسب فأخطأ الحساب حين لم يجد ما يعوضه فىَ العراق .

٧- لا تَرَزَّنـي مُـزَاولاً لاخْتـبَارِي،

بعـد هـذي البَلوَى، فتُنكرَ مَسّي

٨- وَقَـديمـاً عَهِـدتَنـي ذا هَنَـاتٍ،

آبيـاتٍ، علـى الدّنياتِ، شُمْـسِ

٩- وَلَقَدْ رَابَنِي نُبُوُّ ابنِ عَمِّي،

بَعد لينٍ من جانبيهِ، وأُنسِ

١٠- وإذا ما جُفيتُ كنتُ جديراً

أنْ أرى غيرَ مُصْبحٍ حَيثُ أمسِي

١١- حَضَرَتْ رَحليَ الهُمومُ فَوَجَّهْـ

ـتُ إلى أبيَضِ المَدائنِ عُنسِي

١٢- أتسَلى عَنِ الحُظُوظِ، وَآسَى

لَمَحَلٍّ من آلِ ساسانَ، دَرْسِ

اللغة

٨ – **الهنات** : خصال شر ، ويبدو أن البحترى استعملها عامة دون تخصيص أى يقصد أخطاء بسيطة ، **الشُمس** : حرون عديدة لا ترضى الذل

٩ – **النبوّ** : الجفوة والنفور ، ويقصد البحترى بقوله " ابن عمى " الراهب عبدون بن مخلد .

١٠ – **غير مصبح حيث أمسى** : أغادر المكان سريعاً إذا شعرت بالمذلة .

١١ - **العنسى** : الناقة القوية ،

أبيض المدائن : إيوان كسرى (المدينة البيضاء)

١٢ - **آل ساسان** : ملوك الفرس ، **درس** : أى مندرس وهو ما عفا أثره أى عفا عليه الزمن ممحو وبالٍ.

المعنى

يقول البحترى : لقد اصبح فقيراً معدماً فلا يحاولن أحد أن يختبره بعدهذه المصيبة ، ولكنه مع هذا كله ذو خلال وصفات صعبة المراس فقد بعد عنه وجفاه الأقربون بعد ما كانوا يعيشون فى لين وانس معه ، وهو جدير بأن يرحل عنهم إلى حيث لا يلاقى ذلاً ولا هواناً .

ثم ينتقل البحترى إلى الحديث عن سبب مجيئه إلى الإيوان ووقوفه عليه ، فهو إنما جاء إلى هذا المكان لكى يتناسى همومه ويسلى نفسه ويعزيها بما أصاب صاحب هذا الصرح العظيم الشامخ .

١٣- أذكَرتنيهمُ الخُطوبُ التوالي،

وَلَقَدْ تُذكِرُ الخُطوبُ وتُنسِي

١٤- وَهُمُ خافضُونَ في ظلّ عَالٍ،

مُشرفٍ يُحسرُ العُيونَ وَيُخسِي

١٥- مُغْلَقٌ بَابُهُ عَلى جَبَلِ القَبْـ

ـقِ إلى دَارَتَيْ خِلاطٍ وَمَكْسِ

١٦- حِلَلٌ لم تكُنْ كأطلالِ سُعدى

في قِفَارٍ منَ البَسابسِ، مُلْسِ

١٧- وَمَسَاعٍ، لَوْلا المحَابَاةُ منّي،

لم تُطقها مَسعاةُ عَنسٍ وَعبسِ

١٨- نقَلَ الدّهرُ عَهْدَهُنّ عَنِ الجِـ

ـدّةِ، حتّى رجعنَ أنضَاءَ لُبْسِ

اللغة

١٤ : **خافضون** : عائشون برفاهية ودعة أي ناعمو العيش ،

عالٍ : قصر موصوف بهذه الصفة ،**يحسر العيون ويخسى** : يرد العيون كليلة ضعيفة غير قادرة على موالاة النظر .

١٥ – **القبق** : جبل في آخر حدود أرمينية ، **خلاط** ويقال أخلاط : وهي قصبة أرمينية الوسطى ، كانت على الشاطئ الغربي لبحيرة وان ، ويطل عليها الجبل العظيم كوه سيبان ،**ومكسى** : موضوع بأرمينية

١٦ – **البابس ، الفقار ، الململس** : الأرض التي لا نبات فيها يقارن البحتري بين حياة الفرس الناعمة وحياة العرب المتقشفة .

١٧ – **المساع** : المكرمات ، واحدتها مسعاة ،

المحاباة مني : الإنحياز إلى قومي، **عنس** : قبيلة قحطانية من اليمن ، **عبس** : قبيلة عدنانية من نجد

١٨ – **رجعن جدة الشئ** : حداثته ، **الأنضاء** : جمع النضو وهو المهزول من الحيوان ، **ومن الثياب** : البالي

المعنى

يقول البحترى لقد تذكرت هذا الإيوان بسبب كثرة المصائب التى نزلت بساحته ، ثم نراه يتحدث عما كان يتمتع به أصحاب هذا القصر من عيشة مرفهة ناعمة فى ظل هذا القصر المتطاول ، ثم يتحدث عن موقعه ، ويقارن بينه وبين الأطلال والمنازل العربية ، فلولا انحيازه لقومه لأقر بعجز العرب أن يصنعوا مثل هذا الأثر الباقى ، ولكن عوادى الزمن أحالته إلى طلل بالٍ أين منها الأطلال العربية التى أقيمت فى أرض مقفرة .

١٩ - فكَأنَ الجِرْمَزَ منْ عَدَمِ الأنـ

ـسِ وإخْلالهِ، بَنيّةُ رَمْسِ

٢٠ - لوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أن اللّيَالي

جَعلَتْ فيهِ مأتماً، بعد عُرْسِ

٢١ - وهْو يُنْبيكَ عَنْ عجائبِ قوْمٍ

لا يُشَابُ البَيانُ فيهم بلَبْسِ

٢٢- وإذا ما رَأيـتَ صُورَةَ أنطَـا

كـيَـةَ ارتَعْتَ بَيـنَ رُومٍ وَفُـرْسِ

٢٣- والمَـنايَـا مَوَاثِلٌ، وأنُـوشَـرْ

وانَ يُزْجي الصفوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ

٢٤- في اخضِرَارٍ منَ اللِّبَاسِ على أصْـ

ـفَرَ يَخْـتَـالُ فـي صَبيغَـةِ وَرْسِ

اللغة

١٩ -الجِرْمَزُ : اسم بناء كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره ، وكان عظيماً ، **الأنس**: يجوز فيها كسر الهمزة بمعنى الخلو من السكان ، ويجوز الضم بمعنى الوحشة ، **والإخلال** : التَّرْك والغياب ، من أخل بالمكان أى غاب عنه وترك ، **البنية** : الشئ المبنى ، **الرمس** : القبر

٢١ - **لا يشاب البيان فيهم بلبس** : لا يختلط الأمر ولا يغمض ، **فاللبس** : الغموض والإبهام وعدم الوضوح .

٢٢ - **انطاكية** : مدينة فى شمالى سورية فى الحوض الأدنى لنهر

العاصى على مقربة من مصبة ، وهى الآن من مدن تركيا . وكان القدماء يسمونها أنطوخيا ، **ارتعت** : اصابك الخوف .

٢٣ - **المنايا موائل** : لاموت حاضر ، **يزجى** : يسوق ، **الدرفس** : راية ملوك الفرس العلم الكبير .

٢٤ - **الوَرْس** : ذكر " فى لسان العرب " أنه نبت أصفر باليمن يصبغ به وثباته كالسحم ، وكذلك وصفته المعاجم الأخرى . ولكنها تقول : ثوب وارس وورس أى أحمر . وفى " المعجم الوسيط " أنه نبت من الفصيلة البقلية والفراشية ، وهى شجرة تنبت فى بلاد العرب والحبشة والهند وثمرتها قرن مغطى عند نضجه بغدد حمراء يستعمل لتلوين الملابس الحريرية لاحتوائه على مادة حمراء ، والبحترى يصف هنا الفرس الذى يمتطيه أنوشروان .

المعنى

الشاعر هنا يبدى حسرته على الجرماز (القصر العظيم) الذى كاد أن يتحول إلى قبر ، ثم يرسل لنا لوحة كلية ناطقة لهذا المكان بما عليه من نقوش وتماثيل .فصورة أنطاكية تحكى وقائع المعركة بين الروم والفرس.

٢٥- وَعِرَاكَ الرّجَالِ بَيـنَ يَدَيـهِ،
فـي خُفوتٍ منهمْ وإغماضِ جَـرْسِ
٢٦- مـنْ مُشيحٍ يُهوي بعاملِ رُمْحٍ،
وَمُليـحٍ، مِـنَ السّنـانِ، بتُـرْسِ
٢٧- تصِفُ العَيـنُ أنهُـمْ جِـدُّ أحيَا
ءَ لَهُـمْ بَينَهُـمْ إشـارَةُ خُـرْسِ
٢٨- يَغتلي فيهـمُ ارْتِيـابـيَ، حَتّى
تتقَـرّاهُـمُ يَـدايَ بلَـمْـسِ
٢٩- قَد سَقَاني، وَلمْ يُصَرِّدْ أبـو الغَو
ثِ على العَسكَرَيـنِ شُرْبَةَ خَلْـسِ
٣٠- منْ مُدَامٍ تظنهَـا هـيَ نجْـمٌ
ضَوّأ اللّيْـلَ، أوْ مُجَاجةُ شَمـسِ
٣١- وَترَاهـا، إذا أجَدّتْ سُـرُوراً،
وَارْتياحـاً للشّـارِبِ المتحَسّـي

٣٢- أفرغَتْ في الزّجاجِ من كلّ قلبٍ،

فهْيَ مَحبُوبَـةٌ إلـى كـلّ نفْـسِ

٣٣- وَتوَهّمْـتَ أنْ كسرَى أبَرْويـ

ـزَ مُعَـاطـيَّ، والبَـلَهْبَذُ أنسِـي

اللغة

٢٥ – **خفوت** : سكون صوت ، **الجرْس** : الصوت الخافت الخفى .

٢٦ – **المشيح** : الحذر المجدّ ، **عامل الرمح** : صدره وهو ما يلى السنان دون الثعلب ، **المليح** : الخائف الحذر ، يقال ألاح منه أى خاف وحاذر . وأصله : لاخوف من شئ له بريق ثم كثر حتى استعمل فى كل مخوف ، **السنن** : نصل الرمح ، **الترس** : صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيوف ونحوه

٢٧ – **تصف العين** : تتخيل من دقة الصورة .

٢٨ – **يغتلى** : من الغلوّ أى يتجاوز الحدّ ويزيد ويقصد به هنا يعظم ، **ارتيابى** : شكى ، **تتقراهم** : تتبعهم وتتحسسهم

٢٩ – **لم يصَرد** : لم يقلل ، **شربة خلس** : اى مختلسة سريعة ،

أبو الغوث : يحيى بن البحترى .

٣٠ – **المجاجة** : الريق " ما ينفث من الفم " أى عصارة كل شئ .

٣١ – **أجدَّت** : أحدثت ، **المتحسى** : الذى يشرب شيئاً بعد شئ

٣٣ – **البلهبذ** : مغنى كسرى أبرويز

المعنى

فى هذه الأبيات يكمل البحترى لوحته الكلية الناطقة لهذا المكان وما حدث فيه من وقائع المعركة بين الروم والفرس ، وتصف هيئة الجنود المقاتلين وما يلبسون وقائدهم ، وحركة الهجوم والدفاع والكر والفر وكأننا أمام شريط سينمائى ، كأن صورهم تمثل أشخاصهم الحية وهم يتبادلون إشارات الخرس فيما بينهم ، حتى إن الشك ليبلغ مداه عند الشاعر فيحاول أن يلمسها ليتأكد أنهم مجرد نقوش وليسوا أحياء .

٣٤- حُلُمٌ مُطبِقٌ على الشَكِّ عَينـِي،

أَمْ أَمَانٍ غَيَّرْنَ ظَنِّي وَحَدْسِي؟

٣٥- وَكَأَنَّ الإِيوَانَ مِنْ عَجَبِ الصَنْـ

ـعَةِ جَوْبٌ في جنبِ أرْعَنَ جِلسِ

٣٦- يُتَظَنّى مِنَ الكَآبَةِ أَنْ يَبْـ

ـدُو لعَيْنَي مُصَبِّحٌ، أَوْ مُمَسِّي

٣٧- مُزْعَجاً بالفِراقِ عن أُنسِ إلْفٍ

عَزَّ أَوْ مُرْهَقاً بتطليقِ عِرْسِ

٣٨- عكَسَتْ حَظَّهُ اللَيالي وبَاتَ الـ

ـمُشْتَري فيهِ، وَهوَ كوْكَبُ نحسِ

٣٩- فَهْوَ يُبْدي تجَلّداً، وَعَلَيْـهِ

كَلْكَلٌ من كَلاكلِ الدّهرِ مُرْسِي

اللغة

٣٤ – **الحدس** : التوهم والتخمين .

٣٥ – **جوب** : **ترس** ، **الأرعن** : الجبل ذو الرعن وهو أنف يتقدم الجبل والمراد به هنا هو الأحمق ، **الجلس** : الرَجلُ الغليظ القدمَ ثقيل الظل .

٣٦ – **يتظنى** : يظن فيه .

٣٧ – **مرهقاً** : متعباً ، **عرس** : زوجة

٣٨ – **المشترى** : كوكب

٣٩ – **تجلداً** : تصبراً ، **الكلكل** : الصدر أو ما بين الترقوتين

المعنى

يعقب البحترى على وصفه تلك اللوحة الناطقة بتساؤل يكشف عن تردده بين الشك واليقين فيما يختص بحيوية العناصر المكونة لها ، فتارة يظن أنها حلم ، وتارة يعتقد أنها أمنيات طافت بظنه وخاطره ، ونراه يشبه القصر بأنه لضخامته كأنه خرق أو نحت فى الجبل ومع ذلك يبدو الإيوان كله ، وكأنه ترس أو درع يتقى ضربة من رجل

غليظ أرعن ثقيل الظل كناية عن الزمن أو المصائب والنوازل . لقد كان الإيوان تعيس الحظ فبدا كوكب المشترى وهو كوكب سعد عند العرب ولكن البحترى يقول إنه انقلب كوكب نحس بما أصاب القصر من مصائب وكأنه مؤذن بالخراب ، ومع هذا فإنه يبدى الصبر والصمود رغم ما فعله الدهر به إذا أناخ بكلكله عليه وجثم فوقه.

٤٠ - لمْ يَعِبْهُ أنْ بُزّ من بُسُطِ الدّيـ

ـباج وَاستُلّ من سُتـورِ الدّمَقْـسِ

٤١ - مُشْمَخِرٌّ تعْلُو لَـهُ شُرَفَـاتٌ،

رُفعتْ فـي رُؤوسِ رَضْـوَى وَقُـدْسِ

٤٢ - لابسَـاتٌ مِن البَيَاضِ فَما تُبْـ

ـصِـرُ منهـا إلاّ غَلائـلَ بُــرْسِ

٤٣ - لَيسَ يُدرَى: أصُنْعُ إنسٍ لجنٍّ

سَكَنُـوهُ أمْ صُنْـعُ جـنٍّ لإنـسِ

٤٤- غَيرَ أنـي أراهُ يَشْهَدُ أنْ لَـمْ

يَلكُ بَانيـهِ في المُلـوكِ بنِكْــسِ

٤٥- فَكَأنِي أرى المَرَاتبَ والقَـوْ

مَ، إذا مـا بَلَغْـتُ آخـرَ حسّـي

اللغة

٤٠ – **بُزَّ** : نزع وأخذ وسلب ، **استل** : انتزع وأخرج كما ينتزع السيف

من الغمد ، **الديباج** : الثوب الذى سداه ولحمته حرير ،

الدمقس : الحرير الأبيض .

٤١ – **المشمخر** : العالى ، **الشرفة من القصر** : ما أشرف من بنائه ،

رضوى : جبل بالمدينة قرب ينبع ، **قدس** : جبل عظيم بأرض نجد.

٤٢ – **الغلائل** : جمع غلالة وهى شعار يلبس تحت الثوب ،

البرس : (بضم الباء أو كسرها) القطن أو شبيه ذلك

٤٤ – **النكس**: الضعيف الدنئ الذى لا خير فيه والمقصر عن غاية النجدة والكرم .

المعنى

فى هذه الأبيات نجد البحترى يعود لوصف الإيوان متحدثاً عما فرش به ، وعن علوه وارتفاعه الذى يقارب قمم الجبال " رضوى " و " قدس " فكأن الإنسان يحار من عجائب صنعه فهل الذين صنعوه هم من الجن أو الإنس غير أن عظمة هذا المكان توحى بأن الذى بناه ملوك عظماء.

٤٦- وَكَأنَّ الوُفُودَ ضَاحِينَ حَسرَى،

مِن وقُوفٍ خَلفَ الزِّحَامِ وَخُنسِ

٤٧- وَكَأنَّ القِيَانَ، وَسْطَ المَقَاصيـ

ـرِ، يُرَجِّعنَ بينَ حُوٍّ وَلُعسِ

٤٨- وَكَأنَّ اللِّقَاءَ أوّلُ مِنْ أمْـ

ـسِ، وَوَشْكَ الفِرَاقِ أوّلُ أمْسِ

٤٩- وكأنَ الذي يُريدُ اتبَاعا

طامعٌ في لحوقهمْ صُبحَ خمسِ

٥٠ - عَمَرَتْ للسَّرُورِ دَهْراً، فصَارَتْ

لِلتَّعَـزِّي رِبَـاعُهُـمْ ، وَالـتَّأسِّـي

٥١ - فَلَهَـا أنْ أعِينَهَا بدُمـــوعٍ،

مُوقَفَـاتٍ عَلـى الصَّبَابَةِ، حُبْـسِ

٥٢ - ذاكَ عندي ولَيستِ الدّارُ دارِي،

باقتِرَابٍ منها ، ولا الجنسُ جِنسِي

٥٣ - غيرَ نُعْمَى لأهْلِهَا عندَ أهْلِـي،

غَرَسُـوا مِـنْ زَكَائِهـا خيـرَ غَـرْسِ

٥٤ - أيّدُو مُلْكَنـا، وَشَدّوا قُـوَاهُ

بكُماةٍ، تحتَ السَّنَوّرِ، حُمْسِ

٥٥ - وأعَانُـوا عَلَـى كتَائِبِ أرْيَـا

طَ بطَعْـنٍ على النّحُورِ، وَدَعْـسِ

٥٦ - وأرَانِـي، مِنْ بَعدُ، أكْلَفُ بالأشْـ

ـرافِ طُـرّاً مِـنْ كلّ سِنـخٍ وإسّ

اللغة

٤٦ – **ضاحين** : بارزين للشمس ، **حسرى** : جمع حسير وهو المعيى

الخنس : المتأخرون .

٤٧ – **القيان** : الإماء المغنيات واحدتهن قينة ، **المقاصير** : جمع

المقصورة وهى الدار الواسعة المحصنة ، والحجرة من حجر الدار ،

يرجعن : يرددن أصواتهن بالغناء ، **الحو** : ذوات الحوة وهى سواد إلى

الخضرة أو حمرة إلى السواد ، وهى صفة للشفاه ، **لعسى** : جمع لعساء

وهى الجارية بها لعسى وهو سواد مستحسن فى الشفاه .

٥٠ – **رباعهم** : دورهم .

٥٤ – **أيدوا** : ساعدوا ، **الكماة** : جمع الكمى وهو الشجاع أو لابس

السلاح لأنه يكمى نفسه أى يسترها بالدرع والبيضة ، **السنور** : الدروع ،

الحمس : الشجعان .

٥٥ – **أرياط** : القائد الحبشى الذى غزا اليمن، **الدعس** : الدوس والطعن

٥٦ – **أكلف** : أعجب ، أغرم ، **السنخ والأسى** : الأصل .

المعنى

فى هذه الأبيات يرمى البحترى إلى الإعتذار عن تمجيد الفرس بأنهم أعانوا قومه قديماً ، وهو عذر فيه شئ من التكلف لأنه يقول : أن الذى يطمع فى إدراك الفرس لن يستطيع إلا بعد أن يقطع خمس ليال.

كما يعبر البحترى عن وجهة نظره المحايدة فيقول : إن ذلك رأيه على الرغم من اختلاف الجنس بينه وبين صناع هذا الإيوان ويعدد مناقب الفرس ومآثرهم وأياديهم على العرب ومساعدتهم لهم فى الحروب فى عهد أنوشروان والمساعدة التى قدمها لليمنيين الذين يرجع إليهم نسب الشاعر فهو قحطانى ، وذلك حين ساعد الفرس سيف بن ذى يزن أمام غزو الأحباش لليمن بقيادة القائد الحبشي (أرياط) . والبحترى بعد هذا وذاك يحب ويعجب بالإشراف من أى جنس كانوا .

تحليل وتعليق

- تبدو فى هذه القصيدة مرارة التجربة وحسرة اللوعة حيث نحس بالمشاعر الحزينة التى تنبئ عن تجربة البحترى . المريرة . وقد تبدت فى الإيقاع الهامس الذى يوحى به حرف الروى وهو السين المكسورة التى تأتى بعد سكون . فتوحى بعمق الانكسار الداخلى . ويشيع هذا الإيقاع فى مختلف أبيات القصيدة . كما أن القصيدة على بحر الخفيف . وهو من أفضل البحور للغناء والإنشاد .

الأبيات من (١ - ١٠) كثرة فيها النسبة إلى ياء المتكلم وذلك يقدم معادلاً فنياً للحالة النفسية التى كان يعيشها البحترى إبان وقوفه على إيوان كسرى .

- كما أن وقوف الشاعر على أطلال الإيوان . وهى آثار فارسية تمثل نقلة حضارية انعطفت بالقصيدة العربية إلى منحى جديد ذلك أن الطلل أصبح رمزاً ولم يعد معلماً دالاً على وضعية حضارية تعكس طبيعة الحياة العربية . فالإيوان يُمثل

مجداً غابراً وعزاً آفلاً يناسب ما آلت إليه حال الشاعر من إندحار وانكسار خصوصاً بعد مقتل المتوكل ممدوحه الأثير .

- عنصر التجريد المتمثل فى خطاب الآخر ، لم يعد مجرد تقليد فنى كما هى الحال لدى الشاعر الجاهلى وإنما تحول إلى حيلة فنية تعكس رغبة الشاعر فى التنفيس عن كربه وبث الشكوى والحزن .

- الأبيات من (١١ – ٢٠)

أحسن البحترى الربط والانتقال بين المشاعر الذاتية والحديث عن هذا المعلم الحضارى الذى جاء طبيعياً متصلاً بتلك المشاعر . غير أنه انتقل إلى ما يشبه الحديث الموضوعى عن هذا المكان التاريخى دون أن تتقاطع أنفاسه الذاتية وتتبدد فى هذه المداخلة الفكرية الموضوعية.

- يلاحظ كثرة صيغ الجمع فى هذه الأبيات : الهموم والمدائن والحظوظ والخطوب والعيون .... إلخ مما ينبئ عن تزاحم وتكاثر

واحتشاد واختلاط الأشياء والمشاعر فى أعماق الشاعر كذلك مما يلفت الانتباه صيغ الحال الذى يأتى جملاً ، وكذلك الاوصاف .

- كما اعتمد البحترى على البوح المباشر فى شكل قصصى وصفى ، ولكنه فى صوره الجزئية القليلة كان اتكاؤه على التشبيه ، والتشبيه كما هو معروف عقد مماثلة بين شيئين اشتركا فى صفة واحدة . ولهذا فهو تكريس للانفصال بينما الاستعارة تفيد التوحّد ، وهذا تمثيل لموقف الشاعر الذى لا ينتمى إلى هذا المكان ، وإن بدا التشابه بين الحالتين (حالة البحترى وحالة الإيوان) واضحاً ولكن شتان ما بينهما .

- الأفعال فى هذه لأبيات تفيد التحّول والتغّير :(نقل الدهر عهدهن - رجعن - وجعلت) فهناك انتقال من حال إلى آخر والأبيات فى مجملها تفيد هذا التبدل والتغير . فالبحترى قد انتقل من الشام إلى العراق ومن حال إلى حال . وراودته الذكرى من الحاضر إلى الماضى .

- الأبيات من (٢١ - ٣٣) يرسم لنا البحترى فى هذه الأبيات صورة كلية حافلة بالتفاصيل الوصفية . وتأتى هذه

التفاصيل على ذكر العناصر الثابتة فتحتال لذلك من خلال الجمل الإسمية المتتالية ، وحين تعرض لوصف العناصر المتحركة انتقل إلى الجمل الفعلية ذات الأفعال المضارعة . وتأتى هذه الجمل أخباراً لمبتدآت فتجمع بين الإسمية والفعلية تمثيلاً لواقع الجمع بين الثابت والمتحوّل .

(فالمنايا مواثل) جملة إسمية . (وأنوشروان يزجى الصفوف) جملة إسمية . الخبر فيها جملة فعلية وقد أكثر البحترى من استخدام حروف الجر(فى . من) وهما يفيدان الحلول والظرفية .

- ومن الملاحظ فى هذه الأبيات أن البحترى ينتقل بين المصادر التى تركز على حالة الحدوث المجردة (الاخضرار - العراك - الخفوت - الإغماض) وأسماء الفاعلين . واسم الفاعل عادة يدل على حدوث الفعل أيضاً وهو حدوث متغير وليس ثابتاً فهو فى حالة حركة .

-كما استخدم البحترى المفردات التصويرية (ارتعت) فحرف العين وهو حرف حلقى وقد توسط بين التاءان المحيطتان به يوحيان بحالة الارتباك . فالتاء توحى بالتأتأة التى تنجم عن

الاضطراب . والعين وهي حرف حلقي تصور حالة من حالات الضيق والاختناق . ومن الواضح أيضاً أن امتزاج الألوان الأصفر والأحمر يشارك في تصوير هذه الحالة المرتبكة أثناء المعركة .

ومن المفردات التصويرية أيضاً التي استخدمها البحتري (الخفوت . الإغماض) فهما يوحيان بجرسهما وينبئان ويعلنان عن حالة الصمت وكذلك الجناس الناقص في مشيح ومليح . كما أن استخدام البحتري للفعل (يغتلي) يعبر عن حالة الغليان الداخلي حيث يصل الشك إلى ذروته . كما أن استخدام كلمة (ارتيابي) بدلاً من الشك تؤكد المنزع التصويري .

- الأبيات من (٣٤ - ٥٦) تميزت هذه الأبيات من القصيدة عن غيرها - حيث خلع البحتري مشاعره وحالته النفسية عليها مازجاً بين الوصف الحسي والخيالي فهو يتخيل نفسه وهو البائس المظلوم . القابع في خرائب الإيوان . نديم كسرى وأنيس وزيره . ثم لا يلبث حتى يبعث بوصفه الخيالي الحياة في الإيوان . فإذا بتلك الرسوم الصامتة حية تنطق . والآثار الساكنة تعود

إليها الحياة والعظمة والجمال . فالوفود تتزاحم . والقيان ترجع أو ترحج وكأن الزمان لحظة . ومئات السنين يوم واحد .

- كما أن النزعة الفلسفية طغت على مشاعر البحترى الذاتية وقدم موقفاً حضارياً متميزاً اعتراف بفضل الفرس .

كما بدت الألفاظ فى هذه الأبيات أكثر غرابة . وكذلك الصور (فالجوب والجلس والكلكل . وبُزّ المشمخر . الستوروسنخ) كلها ألفاظ معجمية تبدو أقرب إلى المفردات الجاهلية فى غرابتها . وربما كان بعضها معرباً وهو فى الغالب كذلك .

- ومن الملاحظ أن البحترى ظل متمسكاً بمنهجه الجزئى القائم على التشبيه فى بناء الصورة البلاغية ولكنه أضاف فى هذه الأبيات عنصراً جديداً هو عنصر التشخيص .

- ومن الواضح فى هذه الأبيات أن البحترى قد أصابه الفتور . فقد خفت الصوت الداخلى الحميم . وبدت أفكاره أكثر تجريداً ومباشرة كما أنه انصرف إلى التغنى بإتقان الصنع وروعة البناء متخلياً عن الحديث النفسى الحميم الذى بدأ به فى أول

قصيدته وأسلوب القصيدة جزل يميل إلى القوة ، وتراكيبها قوية مرصوصة يصعب فيها حذف كلمة وزيادة أخرى ، وأكثر الأبيات موصول فكأنها نثر قوى معقود بالقوافى ، ولا تميل مفرداتها إلى العظمة والفخامة ، بل تميل إلى الجزالة والغرابة ، وتظهر عليها آثار التهذيب والتثقيف ، ويضعف فيها التزين والتنميق ، وتقل المحسنات البديعية وتكاد تختفى وراء سدول يرخيها البحترى بأحكامه وتفننه .

وفيها من المحسنات البديعية الطباق بين تماسكت وزعزعنى ، واشترائى وبيعى ، ونبو ولين ، وتذكر وتنسى ، والجدة وانضاء ، ومأتم وعرس ، والمزاوجة بين تعسى ونكسى ، ولين وأنس ، واتسلى وآسى ، ويحسر وبخسى ، والجناس بين عنس و عبس ، ومشيح ومليح ، إلى غير ذلك من المحسنات البديعية التى تدل على صنعة البحترى صنعة أجاد فيها ، وتهذيبه الشعر تهذيباً وفق فيه .

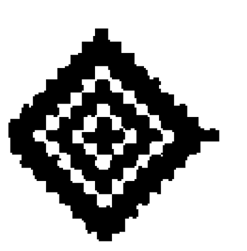
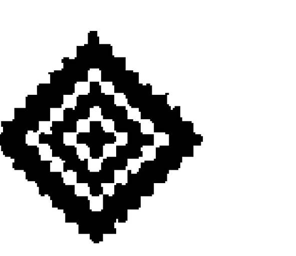
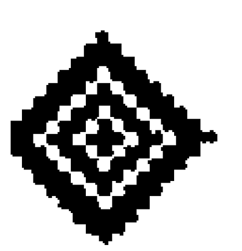
وفى القصيدة كثير من الاستعارات الرائعة ، والمجازات البديعية . والتشابيه الجيدة ، والكنايات السائرة ، مثل زعزعنى الدهر ، واشترائى العراق وبيعى الشام . ونقل الدهر وتشبيه الخمر بالنجم ، ومجاجة الشمس . وأفرغت من كل قلب ، وعكست خطة الليالى ، ويبدى تجلداً إلى آخر ما هنالك من أنواع البلاغة والبيان .

ولعل قيمة القصيدة فى جمال خيالها . فكلها صور رائعة ورسوم حية تكاد تنطق ، وعلى هذه الصور والرسوم تقوم منزلتها وشهرتها . وقد حلق البحترى فى وصف ظل الإيوان ، وبعث فيه الحياة وأجمل الصور فنا أقربها إلى الحياة :

رأى البحترى فى الإيوان صورة واقعة جرت بين الروم والفرس فى أنطاكية . فصور كسرى بلباسه الملوكى الأخضر المصبوغ يختال فيها . ويسوق الجنود تحت العلم الكبير . حتى يشك البحترى نفسه فى حياة الصورة فيتقراها باللمس ليزيل شكه .

ولعل من الصور الرائعة أيضاً أن البحترى جعل من الإيوان المستدير الرابض أمام عظمة الصباح ورهبة المساء ، شخصاً حياً تعلوه الكآبة كأنه عاشق فارق إلفه ، أو زوج طلق عرسه ولكنه على كبته عظيم النفس أبيها ، يبدى أمام المصائب صبراً ، ودون كلاكل الدهر تجلداً . إلى غير ذلك من الأوصاف الحسية الجميلة .

أما فيما يتعلق بأسلوب البحترى وانتمائه الفنى فهو يعد فى عداد الشعراء المحافظين الذين يمثلون تيار الطبع لذلك وقف إلى جانبه علماء اللغة من أمثال المبرد والشعراء المحافظون . وقد خالط الشعراء المحدثين وتمثل معانيهم وصورهم وأخيلتهم . وأخذ عليه أنه لا يحسن التخلص من موضوع إلى موضوع لأنه لم يكن يخضع شعره للمنطق كما كان يفعل أستاذه أبو تمام . ونستطيع أن نلحظ ذلك فى هذه القصيدة التى بين أيدينا فهو يمزج ويكرر . فهو حين يتحدث عن نفسه يقرن إلى ذلك وصف الإيوان ثم يعود إلى نفسه ثم يرتد إلى وصف الإيوان وهكذا ....

رثاء البصرة لابن الرومي

١- زاد عن مقلتي لذيذ المنام
شغلها عنه بالدموع الجسام
٢- أيّ نومٍ بعد ما حل بالبصـ
ـرةِ ما حل من هنات عظام
٣- أيُّ نومٍ بعدما هتك الزنـ
ـج جهراً محارمِ الإسلام
٤- إن هذا من الأمور لأمر
كاد ألا يقر في الأوهام
٥- -لرأينا مستيقظين- أمورا
حسبنا أن تكون رؤيا منام
٦- أقدم الخائن اللعين عليها
وعلى الله أيما إقدام
٧- وتسمى بغير حق إماما
لا هدى الله سعيه من إمام

٨- لهف نفسي عليك أيتها البصـ

ـرة لهفاً كمثل لهب الضرام

٩- لهف نفسي عليك يا قبة الإسـ

ـلام لهفاً يطول منه غرامي

١٠- لهف نفسي عليك يا فرضة البلـ

ـدان لهفاً يبقى على الأعوام

١١- لهف نفسي لجمعك المتفاني

لهف نفسي لعزك المستضام

١٢- بينما أهلها بأحسن حال

إذ رماهم عبيدهم باصطلام

١٣- دخلوها كأنهم قطع الليـ

ـل إذا راح مدلهم الظلام

١٤- أي هولٍ رأوا بهم أي هولٍ

منه يشيب رأس الغلام

١٥- إذ رمـوهـم بنارهـم عن يمين

و شمـال و خلفهـم و أمـام

١٦- كم أغصوا من شارب بشراب

كم أغصوا من طاعم بطعام

١٧- كم ضنين بنفسه رام منجى

فـتلقـوا جبينـه بالحسـام

١٨- كم أخٍ قد رأى أخاه صريعاً

تـرب الخد بين صرعى كـرام

١٩- كم أب قد رأى عزيز بنيه

و هـو يعلى بصـارمٍ صمصـام

٢٠- كم مفدى من أهله أسلموه

حـين لم يحمـه هنالـك حـامى

٢١- كم رضيع هناك قد فطموه

بشبا السيف قبل حين الفطام

٢٢- كم فتاة -بخاتم الله- بكـر-

فضحـوها جهراً بغير اكتتـام

٢٣- كم فتاة مصونة قد سبوهـا

بـارزاً وجههـا بغـير لـثـام

٢٤- صبحوهم فكابدالقوم منهم

طـول يـوم كأنـه ألف عـام

٢٥- من رآهـن فـي المسـاق سبايـا

داميـات الوجـوه والأقـدام

٢٦- من رآهن في المقاسـم وسط الـز

نـج يقسمن بينهـم بالسهـام

٢٧- مـن رآهـن يتخـذن إمـاءً

بعـد ملك الإمـاء و الخدّام

٢٨- ما تذكرت من أتـى الزنـج إلاّ

اضـرم القلب أيما إضـرام

٢٩- ما تذكرت ما أتــى الزنـج إلاّ
أوجعتـني مـرارة الإرغـام
٣٠-رب بيـع قـد أرخصـوه
طال ما قد غلا على السـوام
٣١- رب بيـع هنـاك قد أخـربوه
كـان مـأوى الضعاف والأيتـام
٣٢- رب قصـر هنـاك قد دخلـوه
كان من قبل ذاك صعب المرام
٣٣- رب ذى نعمـة هنـاك ومـالٍ
تركـوه محالـف الإعـــدام
٣٤- رب قــوم باتــوا بأجمع شملٍ
تركـوا شملهـم بغـير نظـام
٣٥- عرجـا صاحـبي بالبصرة الزهـ
ـراء تعـريج مدنـفٍ ذي سقـام

٣٦ فاسألاها – ولا جواب لديها

لسؤال – ومن لها بالكلام

٣٧- أين ضوضاء ذلك الخلق فيها

أين أسولقها ذوات الزحام

٣٨- أين فلك منها وفلك إليها

منشآت في البحر كالأعلام

٣٩- أين تلك القصور والدور فيها؟

أين ذاك البنيان ذو الإحكام

٤٠- بدلت تلكم القصور تلالاً

من رمادٍ ومن تراب ركام

٤١- سلط البثق والحريق عليها

فتداعت أركانها بانهدام

٤٢- وخلت من حلوها فهي قفر

لا ترى العين بعد تلك الأكام

٤٣- غـير أيـدٍ وأرجـل بائنـات

نبـذت بينـهن أفلاق هـــام

٤٤- ووجــوه قــد رملتهـا دمـــاء

بأبـي تلكم الوجـوه الـدوام

٤٥- وطئت بالهوان والذل قسرأ

بعد طول التبجيل و الإعظام

٤٦- خاشعـات كأنـهـا باكيـــات

باديات الثغـور لا ابـتـســـام

٤٧- بل ألّما بساحة المسجد الجا

مع إن كنتمـا ذوى إلمـــــــــام

٤٨- فاسـألاه ولا جـواب لديـــه

أين عبـاده الطـوال القيـــــام

٤٩- أين عَّمـاره الأولـى عمّـروه

دهـرهـم فـى تـلاوة وصيـــام ؟

٥٠- أين فتيانه الحسان وجوها؟

أين أشياخه أولو الأحلام؟

٥١- أى خطبٍ وأىّ رُزءٍ جليلٍ

نالنا فى أولئك الأعمام

٥٢- كم خذلنا من ناسكٍ ذي اجتهادٍ

وفقيه في دينه علاَّم

٥٣- واحيائى منهم إذا ما التقينا

وهم عند حاكم الحكام

٥٤- أي عذر لنا و أي جواب

ندعي على رؤوس الأنام

٥٥- يا عبادي أما غضبتم لوجهي

ذي الجلال العظيم و الإكرام

٥٦- أخذلتم إخوانكم و قعدتم

عنهمُ -ويحكم- قعود اللئام؟

٥٧- كيف لم تعطفوا على أخواتٍ
في حبال العبيد من آل حام؟

٥٨- لم تغاروا لغيرتي فتركتم
حرماتي لمن أحل حرامي

٥٩- لم يغر على حرماتي
غير كفئ لقاصرات الخيام

٦٠- كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلاً
وهو -من دون حرمةٍ- لا يحامي؟

٦١- واحيائي من النبيِّ إذا ما
لامني فيهم أشدَّ الملام

٦٢- وانقطاعي إذا هم خاصموني
وتولى النبي عنهم خصامي

٦٣- مثلوا قوله لكم-أيها النا
س إذا لامكم مع اللوام

٦٤- "أمـتي أيـــن كنتم إذ دعـتني
حُـرَّة مـــن كرائـــم الأقـــــوام"

٦٥- صرخـت"يا محمـداه فهـــلا
قـــام فيهـــا رعـــاة حـــق مقـــامى"

٦٦- لم أجبها إذ كنت ميتاً فلولا
كـان حى أجابهـا عـن عظامـــى

٦٧- بأبـى تلكم العظام عظاماً
وسقتهـا السمـاء صـوب الغمـــام

٦٨- وعليها من المليك صـلاة
وسـلام مـؤكّـد بســـلام

٦٩- انفـروا أيها الكرام خفافاً
وثقـالاً إلى العبيد الطغـام

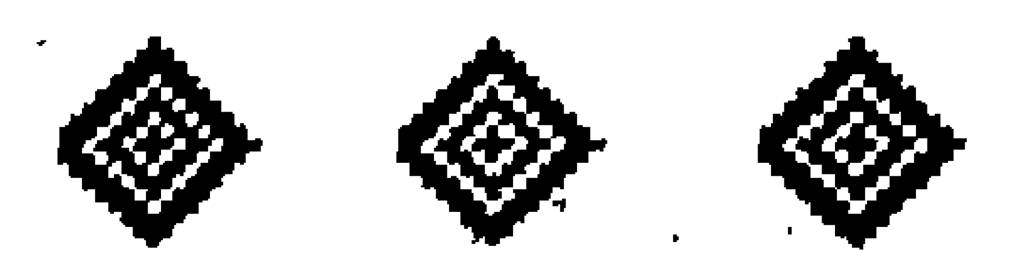
٧٠- أبرمـوا أمرهـم و أنتم نيام
ســوءة ســوءة لنـوم النيــام

٧١- صدَقوا ظن إخوة أملوكـم
و رجـوكـم لنوبـة الأيــام

٧٢-أدركوا ثأرهم فذاك لديهم
مثل رد الأرواح في الأجسام
٧٣- لم تقروا العيون منهم بنصرٍ
فأقروا عيونهم بانتقام
٧٤- أنقذوا سبيهم -و قل لهم ذا
ك حفاظاً و رعية للذمام
٧٥- عارهم لازم لكم أيها الناس
لأن الأديان كالأرحام
٧٦- إن قعدتم عن اللعين فأنتم
شركاء اللعين في الآثام
٧٧- بادروه قبل الروية بالعز
م و قبل الإسراج بالإلجام
٧٨- من غدا سرجه على ظهر طرفٍ
فحرام عليه شدُّ الحزام
٧٩- لاتطيلوا المقام عن جنة الخلـ
ـد فأنتم في غير دار مقام

۸۰- فاشتروا الباقيات بالعرض الأد

نى و بيعوا انقطاعه بالدوام



هو على بن العباس بن جريج ولقبه ابن الرومى ، وكنيته أبو الحسن وقد نشأ على الولاء لعبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور العباسي وقد أسلم على يديه ، وكان يونانى الأصل ، ونجده فى شعره ينسب نفسه إلى اليونان مراراً وقد يسميهم الروم أحياناً من مثل قوله :

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجى
ومجد وعيدان صلاب المعاجم

وأمه فارسية ، وعلى نحو افتخاره بأصوله من الروم يفتخر بأصوله وخئولته من الفرس ، حتى لينسب نفسه إلى ملوكهم الساسانيين ، وهى نسبة لم يكن عليها حجاب فكان كثير من الشعراء ذوى الأصول الفارسية يدعونها ، ومن فخره بنسبه العريق - فى رأيه - من قبل أمه قوله :

كيف أغضى على الدنية والفر
س خئولى والروم هم أعمامى

وإذا أردت ولاءه فهو عربى عباسى:

قومــى بنــو العبــاس حلمهــم
حلمى كذاك وجهلهم جهلى

مـولاهـم وغـذى نعمتهـم

والرؤوم حيـن تنصـى أصلـى

ولد فى بغداد سنة ٢٢١ هجرية نضوا ضئيلاً نحيلاً دميم الوجه تقتحمه العيون ، وظل طوال حياته ينعى على نفسه دقة جسمه وضآلته وقبحه ، وله فى ذلك أشعار كثيرة يصرح فيها بدمامته بالإضافة إلى ذلك أن رأسه قد علاها الشيب وله من العمرى إحدى وعشرون سنة كما أصيب بالصلع الذى كان يأخذ معظم رأسه حتى اضطر ألا يخلع العمامة أبداً لتستر صلعته[1] ، وله مقطوعة يصور فيها صلعه وقبح وجهه ونجده يختمها بقوله :

شغفـت بالخـرد الحسان وما

يصلح وجهى إلا الذى ورع

كـى يعبد الله فى الفلاة ولا

يشهد فيها مساجد الجمع

وقد مات والده وهو صغير ، فاتكل فى معاشه على أمه وأخيه محمد وكان منتهالكاً على اللذة ، يحب ألا تفوته فرصة ، ويحرص على ألا

---

1 - أدباء العرب بطرس البستانى المجلد الثانى ص ٢٣٦ وكذا تاريخ الأدب العربى العصر العباسى الثانى شوقى ضيف ص ٢٩٦،٢٩٧

تفلت من يده لذة ، وكان مسرفا فى طعامه وشرابه متهالكا على السهر والملذات.

اتجه ابن الرومى منذ نعومة أظافره إلى التعلم فالتحق ببعض الكتاتيب، وكانت تعنى بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والخطب وشيئاً من الحساب ، فالتهم ذلك كله الصبى ، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء فى المساجد تارة يستمع إلى محمد بن حبيب الراوية المعروف أو إلى زميله ثعلب ، وأخرى يستمع إلى بعض المحدثين أو بعض الفقهاء أو بعض رواة التاريخ والأخبار . وكانت دار الحكمة التى عنى بها الرشيد والمأمون مدَّ يده وعينه ، وكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاضاً يقرأ ويستوعب ويستسيغ ويتمثل تمثلاً نادراً ويروى أنه كان يتقن اليونانية والفارسية ، ولم يوفق ابن الرومى إلى الإنتفاع بشعره ،فعاش فقيراً يطلب الدرهم بشعره فلا يعطى ، وتزوج وولد له ثلاثة أولاد ماتوا صغاراً ، وماتت زوجته فأصيب بالوسواس ، وكذلك أصيب فى أخيه الذى وفر له شيئاً من الاستقرار فى حياته ولهذا أصيب بالإحباط والتشاؤم ، وكان كثير التطير جدا وله فيه أخبار غريبة ، حتى كان أصحابه إذا أرادوا أن يعبثوا به أرسلوا له

من يتطير من اسمه ، فلا يخرج من بيته ، ويمتنع من التصرف سائر يومه ، وكان القاسم بن عبيد الله وزير المعتز يخاف هجوه وفلتات لسانه ، فيقال أنه دس عليه من أطعمة خشكنانة مسمومة فأكلها ، ثم أتى منزله وأقام به أياماً ومات سنة ٢٨٣ هـ ببغداد. وقيل بل مرض ووصف له الطبيب دواءً فيه سم فغلط فى مقداره وأكثر منه فمات.(١)

ومن أبرز مزايا ابن الرومى فى شعره طول نفسه ، واستيفاؤه المعنى إلى أبعد حد، قال ابن رشيق : "كان ابن الرومى ضنيناً بالمعانى حريصاً عليها ، يأخذ المعنى ويولده فلايزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه فى كل وجه وإلى كل ناحية حتى يميته ويعلم أن لامطمع لأحد".

وهذه الميزة من مظاهر الأدب اليونانى ، لأن خيال العربى وثاب ووحدة الشعر العربى البيت لا القصيدة ، ولكن ابن الرومى كان إلى العربية أقرب منه ، فهو لا يجعل من قصيدته وحدة تامة مثل القصائد اليونانية ، ولا يتوغل فى الشعر الموضوعى شأن شعراء

---

١ - الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه أحمد الإسكندرى، مصطفى عنانى بك ص ٢٦٨

اليونان ، وربما كان أميل إلى الشعر النفسى الوجدانى من شعراء العرب ، أما قصيدته فأجزاء يربط بينها وحدة فى التفكير ، وأقسام تجمع بينها المعانى المتشابهة ، وليس من فرق كبير بين قصائد ابن الرومى الطويلة وسينية البحترى ، أوبائية أبو تمام ، أو دالية المتنبى ، ولكن ابن الرومى أتقن هذا الفن حتى غلب عليه واشتهر به ، وله من القصائد الطوال أكثر من سواه ، ومن قصائدهقصيدة تبلغ مائتين وستة عشر بيتاً ، وكلها من جيد الشعر ومتينه ، وميزة ابن الرومى مع طول نفسه وامتداده أنه لا يسف فى أواخر قصائده ، ولاتظهر عليه آثار التعب والإجهاد ، فكأنه جواد كريم أصيل يجود كلما طال شوطه ، ولولا ذلك لكان طول قصائده ضعفاً لا قوة.

وابن الرومى فى امتداد نفسه راغب فى استيفاء المعنى حتى لايبقى فيه بقية لغيره ، قال ابن خلكان : "يأخذ المعنى فلا يزال يعالجه حتى لايبقى فيه بقية ، وأكثر معانيه تامة ، وأوصافه مستوفاه يدور بها على غرضه ، ويتبسط فى تفاصيله ، ويذكر كل مايتعلق به ، حتى لايترك مطمعاً لغير".

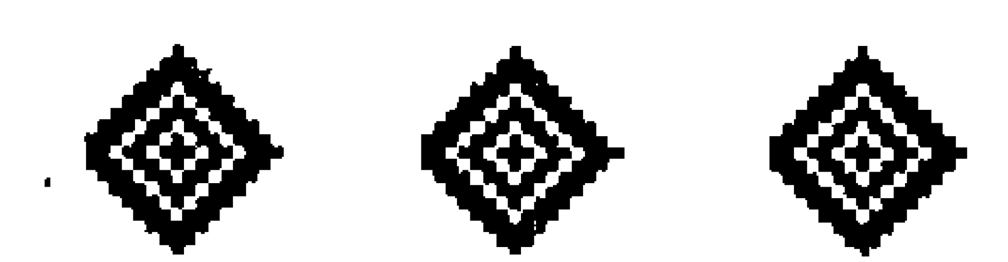
ويظهر اتساق أفكاره فى ارتباط معانيه وأغراضه ، ثم فى اعتماده على الأسلوب المنطقى ، فإنه اتخذه إماماً له وعلى الأخص فى

احتياجه إلى الرد على خصومه ومعيّريه ، وإلى معاتبة ممدوحيه واسترضائهم ، وإلى ابداء آرائه فى الحياة وصروف الدهر . وتختلف أحكامه المنطقية بين القوة والضعف ، فمنها ما يستقيم له ومنها مالايستقيم . ذلك أن قوة التفكير عنده تنازعها قوة العاطفة.

ورأى أهل بغداد أن ابن الرومى كان متشيعاً لأنه ثار على العباسيين ودافع عن العلويين بدليل قصيدته التى رثى بها أبا الحسين يحيى بن عمر الطالبى ، وهجا العباسيين من أجله وأفحش فيهم ، أما أبو العلاء فلا يراه إلا على مذهب غيره من الشعراء . ولكن العقاد فى مصر ألف كتاباً كبيراً عن ابن الرومى خطأ فيه المعرى وقال أن أبا العلاء لم يطلع على شعر ابن الرومى كله ففاته أمره، والأرجح أن المعرى كان مصيباً والعقاد المخطىء ، فقد رثى ابن الرومى القائد العباسى الذى تولى حرب العلويين عندما مات وأراد العقاد أن يجد مايبرر موقف ابن الرومى فدار ولم يوفق ، ولعل خير مايقال فى ذلك أن ابن الرومى كان نصير الضعفاء وكان ثائراً على الأقوياء ولو كان العباسيون الضعفاء لكان عباسياً ولذلك نقم على الزنج الذين أحرقوا البصرة وفتكوا بأهلها بعد ثورة على سادتهم ، ولعل ابن الرومى كان يرجو من الثورة الإصلاح لا استبداد المظلوم بالظالم

إذا قوى ، وفى ذلك من العاطفة الإنسانية السامية مافيه وربما كان لمزاجه الشخصى أثر فى رقة فؤاده ، فقد كان يكره الدماء ولو طلب تطهير الأرض من الناس الكلاب.

وجملة القول إن ابن الرومى أطول الشعراء نفساً ، وأكثرهم اختراعاً للمعانى ، واستيفاءً لها ، وأبعدهم نظراً فى وصف دقائق الأشياء ، وأقربهم إلى وحدة الموضوع . وأبرع من صورَ الأخلاق والصفات ، وجعل لمهجويه تصاوير هزلية مضحكة وأصدق مؤرخ لحياته فى ملذاتها وأفراحها ، وفى مكارهها وأحزانها ، ولئن أهمله عصره ، ولم يقدره حق قدره ، لقد كان على الرغم من عصره ، فى طليعة الشعراء المولدين ، ويكفيه فضلاً ان يكون المتنبى أحد رواة ديوانه والآخذين عنه .



١- زاد عن مقلتي لذيذ المنـــام

شغلها عنه بالدموع الجســـام

٢- أيّ نومٍ بعـد ما حل بالبصـــ

ـرة ما حل من هنات عظام

٣- أيُّ نـومٍ بعدمـا هتـك الـزن

ـج جهـراً محـارم الإســلام

٤- إن هـذا مــن الأمــور لأمــر

كـاد ألا يقــر في الأوهــام

٥- -لرأينـا مستيقظين- أمــورا

حسبنا أن تكون رؤيا منام

٦- أقــدم الخائــن اللعين عليهــا

وعلـى الله أيمـا إقـــدام

٧- وتسمـى بغـير حـق إمامــا

لا هـدى الله سعيه من إمـام

٨- لهف نفسي عليك أيتها البصـ

ـرة لهفاً كمثل لهب الضرام

٩- لهف نفسي عليك يا قبة الإسـ
ـلام لهفاً يطول منه غرامي

١٠- لهف نفسي عليك يا فرضة البلـ
ـدان لهفاً يبقى على الأعوام

١١- لهف نفسي لجمعك المتفاني
لهف نفسي لعزك المستضام

اللغة:

١- زاد : أبعد ، الجسام : العظام.

٢- هنات : مصائب.

٦-الخائن اللعين : زعيم الزنج (على بن محمد)

٨- لهب الضرام : شدة الاحتراق والاشتعال.

٩- قبة الإسلام : موئل الإسلام ورمزه .

١٠-فرضة البلدان : ياخير البلدان ويأحنها.

١١-العز المستضام : الذى لحق به الذل.

المعنى

استهل الشاعر قصيدته ببيان ضخامة الحادثة وخطورتها فقد هجم صاحب الزنج بمجموعة على البصرة وأنزل بها النهب والسلب والحرق

وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً وأنزل بها من ضروب الذل والهوان والخسف والعسف ماملأ نفسه ألماً وهولاً وحسرة ولوعة حتى أنه أصابه الأرق وانتابه البكاء ويظل يبكي بكاء مراً طوال نهاره وطوال ليله ، نتيجة لما حلّ بالبصرة من مصائب إثر هذه الثورة ، فقد انتهك الزنج محارم الإسلام مما لايتصوره عقل ، فهي أشبه بالحلم ، لما أقدم عليه زعيمهم الذي تلقب الإمامة زوراً وبهتاناً ، ثم نراه يعبر عن أساه وحسرته التي شبت في قلبه كالنيران ، ثم يصف البصرة بأنها رمز الإسلام وأنها خير البلدان وتستمر الحسرة عليها في قلبه أعواماً طوالاً.

١٢- بينمـا أهلهـا بأحسـن حــال
إذ رماهم عبيدهم باصطلام

١٣- دخلـوهـا كأنـهم قطـع الليـ
ـل إذا راح مدلهم الظلام

١٤- أي هـولٍ رأوا بـهم أي هولٍ
منـه يشيـب رأس الغـلام

١٥- إذ رمــوهــم بنارهم عن يمين

و شمــال و خلفهــم و أمــام

١٦- كم أغصوا من شارب بشراب

كم أغصوا من طاعم بطعام

١٧- كم ضنين بنفسه رام منجى

فــتلقــوا جبينــه بالحســـام

١٨- كم أخٍ قد رأى أخاه صريعاً

تــرب الخد بين صرعى كــرام

١٩- كم أب قد رأى عزيز بنيه

و هــو يعلـى بصــارمٍ صمصــام

٢٠- كم مفدى من أهله أسلموه

حــين لم يحمــه هنالـك حــامى

٢١- كم رضيع-هناك-قدفطموه

بشبا السيف قبل حين الفطام

٢٢- كم فتاة -بخاتم الله- بكـــر-

فضحـوها جهراً بغير اكتتـــام

٢٣- كم فتاة مصونة قد سبوهـــا

بـــارزاً وجههـــا بغـــير لـثـــام

٢٤- صبحوهم فكابدالقوم منهم

طـــول يـــوم كأنـــه ألف عـــام

٢٥- من رآهـــن فـــي المســـاق سبايـــا

داميـــات الوجـــوه والأقـــدام

٢٦- من رآهن في المقاسم وســـط الـــز

نـــج يقســـمن بينهـــم بالسهام

٢٧- مـــن رآهـــن يتخـــذن إمـــاءً

بعـــد ملـــك الإمـــاء و الخـــدّام

اللغــــة:

١٢- الاصطلام : القتل والترويع .

١٣- مدلهم : شديد الظلمة .

١٧- ضنين : بخيل ، رام منجى : طلب النجاة ، الحسام : السيف .

١٨- ترب الخدّ : معفر الوجه .

١٩-الصارم : القاطع ، الصمصام : السيف القوى .

٢٠- مفدى : غال يفدّونه بالنفيس من المال والنفس .

٢١- شبا السيف : حد السيف .

٢٢- اكتتام : استتار .

٢٥- المساق : المكان الذى سيقت فيه السبايا .

المعنى

فى هذه الأبيات يندب الشاعر مجد البصرة وأمنها ومن سفكوا الدم فيها ، حتى كان الأخ لايفكر فى أخيه ولا الأب فى بنيه ، فالجميع مشغولون بأنفسهم كل يريد النجاة ولامنجى فالسيوف تحصدهم حصداً ، أما النساء فساقوهن سبايا حاسرات الوجوه ، وباعوهن بيع الرقيق .

٢٨- ما تذكرت من أتــى الزنـج إلاّ
اضـرم القلـب أيمـا إضــــرام

٢٩- ما تذكرت ما اتــــى الزنـج إلاّ
أوجعتــني مــرارة الإرغـــام

٣٠- رب بيع قد أرخصوه
طال ما قد غلا على السوام

٣١- رب بيع هناك قد أخربوه
كان مأوى الضعاف والأيتام

٣٢- رب قصر هناك قد دخلوه
كان من قبل ذاك صعب المرام

٣٣- رب ذي نعمة هناك ومالٍ
تركوه محالف الإعدام

٣٤- رب قوم باتوا بأجمع شملٍ
تركوا شملهم بغير نظام

٣٥- عرجا صاحبي بالبصرة الزهـ
ـراء تعريج مدنفٍ ذي سقام

اللغـة :

٣٠- السوام : الذين يسألون عن الثمن بغية الشراء .

٣٢- المرام : المطلب .

المعنى

يستقصى الشاعر مافعله الزنج بالبصرة بعد أن أتى على ذكر الوقائع ذكراً عاماً مطلقاً ، فهو هنا يدخل فى التفاصيل ، فيتحدث عما فعلوه من إرخاص النفس من الأشياء وهدم البيوت على الضعفاء والأيتام ، وكم من قصر استباحوه وكان قبلهم منيعاً حصيناً ، وأصبحت القصور بالتحريق تلالاً ، وقد جعلوا أصحاب الثراء معدمين فقراء ، وشتتوا شمل الناس ومزقوهم ، وخرت المدينة الكبيرة عند أقدام الزنج تترنح إعياء.

٣٦- فاسألاها – ولا جواب لديها

لسؤال – ومن لها بالكلام

٣٧- أين ضوضاء ذلك الخلق فيها

أين أسواقها ذوات الزحام

٣٨- أين فلك منها وفلك إليها

منشآت في البحر كالأعلام

٣٩- أين تلك القصور والدور فيها؟

أين ذاك البنيان ذو الإحكام

٤٠- بُدلت تلكم القصور تــلالاً

مـن رمـادٍ ومن تـراب ركـام

٤١- سلـط البثق والحريـق عليهـا

فتـداعـت أركانهـا بانهـدام

٤٢- وخلـت من حلوها فهي قفـر

لا تـرى العين بعد تلك الأكام

٤٣- غـير أيـدٍ وأرجـل بائنـات

نبـذت بينهن أفلاق هـام

٤٤- ووجـوهٌ قـد رملتهـا دمـاء

بأبـي تلكـم الوجـوه الـدوام

٤٥- وطئت بالهوان والذل قسراً

بعد طول التبجيل والإعظام

٤٦- خاشعـات كأنـهـا باكيـات

باديات الثغور لا ابـتـسـام

اللغـــة :

٣٥ – **عرجاً** : مُرّا على البصرة ، **المدنف** : ذى السقام: الذى امرضه الشوق

٤١ – **البثق** : مقذوفات نارية يقذفها المنجنيق .

٤٢ – **الأكام** : جمع أكمة وهى التلة المرتفعة .

٤٣ – **بائنات** : مقطوعات ، **أفلاق** : أجزاء مقطعة ، **الهام** : الرأس

٤٤ – **رملتها** : لطختها .

المعنى

جرد ابن الرومى من نفسه شخصين يخاطبهما على طريقة الشعراء الجاهليين ويدعوهما إلى الوقوف بالبصرة وسؤالها عما كانت عليه قبل ثورة الزنج من مظاهر الحياة والانتعاش والأزهار حيث كانت السفن غادية رائحة منها وإليها وكانت عامرة بالقصور والدور الشامخة العظيمة ، وكيف أصبحت الآن ركاماً بعد أن ضربت بالمنجنيق وأصبحت قفرا انتشرت فيها الجوارح والوجوه الدامية المعفرة بالتراب ، فأصبحت ذليلة بعد طول العز .

٤٧ بل ألّما بساحة المسجد الجا

مـع إن كنتمـا ذوى إلمـــــــــام

٤٨- فاسألاه ولا جـواب لديـــه

أيـن عبادِهِ الطـوال القيـــــام

٤٩- أين عمّـاره الأولـى عمّـروه

دهــرهــم فـى تـلاوة وصيــــام ؟

٥٠- أين فتيانه الحسان وجوهـا؟

أين أشياخــه أولــو الأحـــلام ؟

٥١- أى خطبٍ وأىّ رُزءٍ جليـــــلٍ

نالنـــا فـــى أولئـــك الأعـمـــــام

٥٢- كم خذلنا من ناسكٍ ذي اجتهادٍ

و فـقـيــه فــي دينـه عــــــلاّم

٥٣- واحبائي منهم إذا ما التقينا
وهم عند حاكم الحكام

٥٤- أي عذر لنا، أي جواب
ندعي على رؤوس الأنام

٥٥-يا عبادي أما غضبتم لوجهي
ذي الجلال العظيم و الإكرام

٥٦- أخذلتم إخوانكم و قعدتم
عنهم -ويحكم- قعود اللئام؟

٥٧- كيف لم تعطفوا على أخوات
في حبال العبيد من آل حام؟

٥٨- لم تغاروا لغيرتي فتركتم
حرماتي لمن أحل حرامي

٥٩- لم يغر على حرماتي
غير كفء لقاصرات الخيام

٦٠- كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلاً

و هو -من دون حرمةٍ- لا يحامى؟

اللغــة:

٤٧ – ألما بالمسجد الجامع : زواره

٥٠ – أولو الأحلام : أصحاب العقول

٥٢ – علاَّم : كثير العلم.

٥٤ – الأنام : الخلق

٥٧ – آل حام : الزنوج

٥٩ – قاصرات الخيام : المقصود هنا الحور العين

٦٠ – بعل : زوج .

المعنى

فى هذه الأبيات يدعو الشاعر صاحبيه لزيارة المسجد الجامع ليقفا على ما حل به ، وليسألاه عن القوّام والصوام والقراء والشيوخ والفتية والفقهاء ، والعلماء والوعاظ ، فقد أصبح المسجد الجامع قفراً من عباده ونساكه . ويتحول ابن الرومى من وصف الكارثة المروعة إلى استصراخ الناس كى يردوا سيل الزنج الكاسح عن البصرة ومدن العراق ،

ويعبر عن شدة خجله وحيائه ويشير إلى المساءلة يوم القيامة حيث يسأل الناس عن سبب تخلفهم وقعودهم عن نصرة إخوانهم ، وعدم نجدتهم لأخوانهم اللواتى وقعن فى السبى ، فإن من يفعل ذلك ليس جديراً بالحور العين لأنه لم يدافع عن حرمات الله.

٦١- واحيـائي مـن النبيِّ إذا مـا
لامني فيهـم أشـدَّ المـلام

٦٢- و انقطاعي إذا هـم خاصموني
و تولـى النبي عنهـم خصامي

٦٣- مثلـوا قولـه لكم-أيها النا
س إذا لامكـم مـع اللـوام

٦٤- "أمـتي أيـن كنتم إذ دعـتني
حـرّة مـن كرائـم الأقـوام"

٦٥- صرخت "يا محمداه فهلا
قام فيها رعاة حق مقامى"
٦٦- لم أجبها إذ كنت ميتاً فلولا
كان حى أجابها عن عظامى
٦٧- بأبى تلكم العظام عظاماً
وسقتها السماء صوب الغمام
٦٨- وعليها من المليك صلاة
وسلام مؤكّد بسلام

اللغة :

٦٤ – كرائم : جمع كريمة

٦٥ – صرخت : صاحت صياحاً شديداً واستغاثت

٦٧ – صوب الغمام : السحابة أو المطر ما ينفع ولا يؤذى

٦٨ – المليك : صاحب الملك والجمع مُلكاء.

المعنى

ينتقل الشاعر فى هذه الأبيات ليصور مدى غضب الرسول صلى الله عليه وسلم من خذلان المسلمين لأهل البصرة ، فهو يخشى لومه صلى

الله عليه وسلم ويتمثل استغاثة امرأة عربية من كرائم النساء تستجير بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكيف أن القوم لم يقوموا بحق الرسول صلى الله عليه وسلم حيث لم يلبوا دعوتها ولم يغيثوها ، وكيف أن عظامه الطاهرة توشك أن تستجيب لندائها ، ويفدى الشاعر تلكم الأجداث الطاهرة ويصلى على المصطفى عليه الصلاة والسلام .

٦٩- انفروا أيها الكرام خفافاً
وثقالاً إلى العبيد الطغام

٧٠-أبرموا أمرهم وأنتم نيام
سوءةً سوءة لنوم النيام

٧١- صدَّقوا ظن إخوة أملوكم
ورجوكم لنوبة الأيام

٧٢-أدركوا ثأرهم فذاك لديهم
مثل رد الأرواح في الأجسام

٧٣- لم تقروا العيون منهم بنصرٍ
فأقروا عيونهم بانتقام

٧٤ أنقذوا سبيهم -و قل لهم ذا

ك حفاظاً و رعية للذمام

٧٥- عارهم لازم لكم أيها الناس

لأن الأديان كالأرحام

٧٦- إن قعدتم عن اللعين فأنتم

شركاء اللعين في الآثام

٧٧- بادروه قبل الروية بالعز

م و قبل الإسراج بالإلجام

٧٨- من غدا سرجه على ظهر طرفٍ

فحرام عليه شدُّ الحزام

٧٩- لاتطيلوا المقام عن جنة الخلـ

ـد فأنتم في غير دار مقام

٨٠- فاشتروا الباقيات بالعرض الأد

نى و بيعوا انقطاعه بالدوام

اللغـــة :

٦٩ – **انفروا خفافاً وثقالاً** : دعوة إلى الجهاد مستلهمة ومقتبسة من القرآن الكريم ، **الطغام** : الطغاة الظلمة

٧٠ – **أبرموا** : احزموا ، **سوءة** : سوءة دعاء بالسوء ، أوصف لتلك الحال التعيسة

٧١ – **نوبة** : مصيبة ، **ردّ** : عودة

٧٤ – **سبيهم** : أسراهم من النساء .

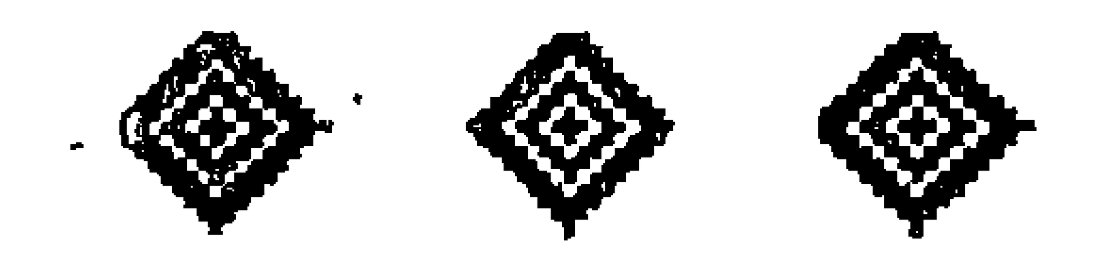
٧٦ – **اللعين** : زعيم الزنج

٨٠ – العرض الأدنى : المتعة الزائلة والغرض الآنى

المعنى

دعوة يوجهها الشاعر إلى المسلمين كى يسرعوا إلى جهاد الطغاة الذين حزموا أمرهم فى غفلة منهم ، ويستفزهم فى حماسة بالغة لرد هذا العار للثأر والانتقام وأن يكونوا عند حسن ظن إخوانهم لهم حتى تقر عيونهم بالنصر والانتقام من هؤلاء الأشرار ، فمن واجبهم أن يخلصوا نساءهم من عار السبى ، فالعار على الجميع ، وصلة الدين كصلة الرحم ، وإذا سكتوا عن هذا المجرم فهم شركاء له فى جريمته . ويختم ابن الرومى المرثية ببيان فضل المجاهدين وما أعدّ لهم من الجنان والرضوان العظيم

لأنهم بادروا مسرعين ضاربين بالدنيا الزائلة عرض الحائط ومسرعين إلى شراء الآخرة الباقية بالدنيا الفانية . وهذه القصيدة تعد مرثيه من جهة واستصراخاً واستنفاراً لحرب الزنج من جهة ثانية ، وهو استنفار يكتظ بالغيظ والحنق الشديد.



تحليل وتعليق

بدأ ابن الرومى قصيدته دون مقدمات معبراً عن مشاعره الشخصية . وبدت البصرة فى حديثه وكأنها معشوقته . فقد تداخلت صورة البصرة فى صورة الحبيبة . وقد كانت الأبيات الأولى نوبة بكاء استهل بها القصيدة قبل أن يبدأ بسرد القصة سرداً وجدانياً لا موضعياً.

لقد لجأ ابن الرومى إلى التساؤل الملح الذى يصور مدى الألم والحزن والدهشة (أى نوم) كررها مرتين . ثم كرر (لهف نفسى) خمس مرات وكأنه ينتحب ويُعدد (على طريقة الثكالى) واستخدام أسلوب النداء وكأنه يحاول أن يقرب ما أصبح بعيداً . ويعقد الصلة بعد ما انقطعت إثر هذه الثورة الغادرة . وكان لاستخدام المفعول المطلق وتكراره أثر فى الكشف عن عمق المأساة وتوكيدها . كذلك كان الدعاء فى صيغة النهى لوناً من ألوان الندب . وقد عمد إلى استخدام (كاد) من أفعال المقاربة ليوضح إلى أى مدى قرب هذا الصنيع من الخيال . كما توالت النعوت على نحو واضح . وقد جاءت فى أشكال متباينة وصور مختلفة فهى تارة مفردة . وتارة جملة إسمية أو فعلية . كذلك أدوات التوكيد التى تتفاوت سبلها . كالتكرار والمفعولات المطلقة ولعل ابن الرومى فى هذه القصيدة يقدم لنا شريطاً سينمائياً حافلاً بالمشاهد المتوالية . فهو لا يسرد

فحسب بل يصور وينتقى من المشاهد أكثرها تأثيراً فهو يرسم لنا لوحة ناطقة حين يصور مشهد الاقتحام والترويع . وقد وظف عناصر كثيرة لتصوير هذا المشهد ولعل من هذه العناصر التشبيه فى قوله (كأنهم قطع الليل) الذى لم يكتف ابن الرومى بذكر المشبه به فحسب . بل راح يلح على استقصاء صفاته الموغلة فى الظلمة ، ومن ذلك أيضاً الاستفهام الذى يقصد به التعظيم والتهويل وقد عمد إلى تكراره أيضاً (أى هول ؟أى هول ؟) وكذلك كم الخبرية التى تفيد التكثير وقد كررها تسع مرات . ومن هذه العناصر أيضاً استقصاء جوانب المشهد " إذ رموهم بنارهم من يمين ومن شمال وخلفهم وأمام " ولعل هذا الاستقصاء بدا وكأنه كاميرا مسلطة على أدق التفاصيل والجزئيات موغلة فى الكشف والتقاط كل ملامح الصورة . وقد عرف ابن الرومى بهذة السمة الأسلوبية .

استطاع الشاعر أن ينتقى بعناية تضاريس الحدث وإبراز ما كان منه مؤثراً ومعبراً ، وكان في المراوحة بين الفعل الماضى والمضارع ما يسلط الضوء ويثير الحركة ويبعث الحياة وكان فى انتقاله من الثبات إلى التحول حيث الانتقال من الظرف إلى الفعل ما يؤكد هذه السمة ، بالإضافة إلى ذلك صيغ الحال المبثوثة هنا وهناك فى تضاعيف القصيدة " رأى أخاه صريعا ترب الخد " " وهو يعلى رأسه بحسام " ..... إلخ . وجاءت جمل الاستفهام المكررة " من رآهن " مثيرة

للمشاعر مستفزة للخواطر وقد جاءت هذه الأساليب مقرونة بنون النسوة مصحوبة بالأحوال التى تشخص الوقائع الفاجعة .

من الملاحظ فى القصيدة أيضاً احتشاد الظروف المكانية والزمانية فى تركيز وتعميق للمشهد المأسوى . كذلك المصادر الدالة على الحدوث دلالة مطلقة فالتردد بين المطلق والمقيد فيه تفجير للمشاعر والعواطف .

كما يلاحظ استخدام الشاعر أسلوب التكرار فى الصيغ النحوية التى بدت وكأنها قوالب تستوعب فى كل مرة مضموناً جديداً .

كما قارن ابن الرومى بين الماضى والحاضر . وبين ما كان وما آل إليه الشئ وعنصر التحول هو المحور فى القصيدة . وهو عنصر من عناصر المفارقة التى من شأنها أن تثير المتلقى .

كما أن استخدام حرف الجر الشبيه بالزائد الذى يفيد الكثرة أو القلة وفقاً للسياق أتاح لابن الرومى حرية فى أن يتحدث بشئ من الحرية ودون تحديد للكم أو الكيف . ولكنه فى الغالب دال هنا على الكثرة والعموم . وهو ما يناسب سياق المعنى .

من الملاحظ أيضاً استخدام الشاعر لعنصر التجريد الجاهلى فيذكرنا بمعنى التحوّل . فهو يستخدم فى الأغلب الأعم إبان الوقوف على الأطلال الخربة بعد أن كانت منازل عامرة بمظاهر الحياة والانتعاش والازدهار . وهذا العنصر التقليدى يصبح مظهراً من

مظاهر التجديد بعد أن أعيد توظيفه ، ونفض عنه غبار الزمن ووضع فى سياق جديد .

ظهر انفعال الشاعر بصورة واضحة عبر تلك المجموعة من الأسئلة التى تنم عن الحسرة والتفجع فقد استخدم خمسة أساليب استفهامية متتالية خاصة بالمكان . وعبر تلك الصيغ الطلبية كالأمر . ثم توالت بعد ذلك المشاهد وكأنها الجواب على تلك الأسئلة . وهى الوجه الآخر المقابل الذى يحمل المفارقة . فالاستفهام من عناصر الحياة والازدهار والمشاهد تبرز عناصر الدمار والخراب . وعبر هذه المفارقة تبرز المأساة .

معجم الشاعر موزع على قسمين دلاليين هما : قسم العمران والحضارة وقسم الخراب والهدم . وهذا القاموس المفارق عماد الرؤية فى القصيدة .

استخدم الشاعر تعبيرات قرآنية أكسبت الموقف مهابة وجلالاً " منشآت في البحر كالأعلام " .

اختار ابن الرومى ألفاظاً ذات إيحاءات صوتية معينة كقوله : (ألما) . فاللام والميم المشددة تصور مدى التوتر والقهر وكذلك : (عباده وعماره) حيث التضعيف الذى يوحى بهذا اللون من ألوان الكمد والحسرة . كذلك فإن المشاكلة الصوتية (لم تغاروا لغيرتى) (من دون حرمة لايحامى) والمفارقة المعنوية فى قوله (أحل حرامى) بالإضافة

إلى تكثيف الأساليب الإنشائية والطلبية وهذه الأساليب تستدعى المشاركة الوجدانية وتثير الأفعال .

كما يستدعى الشاعر صوت الرسول صلى الله عليه وسلم مصوراً مايتخيل أنه قائله له حين يلقاه . كما يستلهم صرخة المرأة الزبطرية التى استجارت بالمعتصم فأجارها فى عمورية وقد أوحى بها الشاعر إيحاءً واضحاً .

من الملاحظ أن القصيدة من بحر الخفيف . وهو كما يقول عنه الدارسون يميل إلى الفخامة من بعد الطويل والبسيط لأنه ساطع النغم ثرى بالموسيقى صالح للحوار والجدل والترديد والسرد . وفيه روح ملحمى . يكثر فى البيئات المتحضرة فهو مناسب لهذه القصيدة وهو أخف البحور له جزالة ورشاقة وجاءت الألف قبل الميم فى القافية وكأنها تجسد حالة من حالات الصراخ والدعاء . أما الكسر فيعبر عن حالة الحزن السائد فى القصيدة . والميم فى التراث العربى تعبر عن الضيق . وهى ثانى حرف فيكثر ترداده بعد اللام . وهو دقيق وهادىء وملائم لهذه الملحمة بما فيها من جدية وحرارة وجيشان واصطخاب [1] .

احتشاد القصيدة بمختلف صيغ الاستفهام حيث تبدو الكارثة مستدعية لمزيد من الأسئلة عن هذا المصاب الجلل .

---

[1] - دراسات فى النص الشعرى العصر العباسى عبده بدوى منشورات دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع جدة ص ١٦٥

ولعل من الظواهر البارزة فى هذه القصيدة التكرار . وقد أدى التكرار وظائف متعددة فإبن الرومى فى إلحاحه عليه إنما أراد أن يؤكد مدى ضيقه وانفعاله وعظمة المصاب والتوجع فضلاً عما أشاعته هذه الظاهرة من غزارة إيقاعية وانفعالية .

استخدم الشاعر مختلف صيغ النداء وخصوصاً الندبة والإستغاثة . وذلك تعبيراً عن توتره وتأثره وإنفعاله .

تؤرخ هذه القصيدة لثورة الزنج تأريخاً فنياً . فقد تحولت إلى عنصرية سوداء . لقد قدم يحيى بن محمد وهو من قواد الزنج إلى البصرة فى جيش كبير . وحين رأى واليها إبراهيم بن يحيى المهلبى هذا استأمنه لأهل البصرة فأمنهم . وكان أن نادى منادى إبراهيم : من أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم فلما حضروا فتك بهم الزنج . وقد قال الحسن بن عثمان المهلبى وهو شاهد هذه المأساة فإني لأسمع تشهدهم وضجيجهم وهم يقتلون . وقد سمعت بالطغاوة وهى على بعد من المكان وقد أتلف كل شىء فى البصرة حتى المساجد وأحرق الزرع وقتل البهائم .

قصيدة المتنبى فى مدح سيف الدولة

١- على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

٢- وتعظم في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم

٣- يكلف سيف الدولة الجيش همه

وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

٤- ويطلب عند الناس ما عند نفسه

وذلك ما لا تدعيه الضراغم

٥- يفدي أتم الطير عمراً سلاحه

نسور الملا أحداثها والقشاعم

٦- وما ضرها خلق بغير مخالب

وقد خلقت أسيافه والقوائم

٧- هل الحدث الحمراء تعرف لونها

وتعلم أي الساقيين الغمائم

٨- سقتها الغمام الغر قبل نزوله

فلما دنا منها سقتها الجماجم

٩- بناها فأعلى والقنا تقرع القنا

وموج المنايا حولها متلاطم

١٠- وكان بها مثل الجنون فأصبحت

ومن جثث القتلى عليها تمائم

١١- طريدة دهر ساقها فرددتها

على الدين بالخطي والدهر راغم

١٢- تفيت الليالي كل شيء أخذته

وهن لما يأخذن منك غوارم

١٣- إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً

مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازم

١٤- وكيف ترجي الروم والروس هدمها

وذا الطعن أساس لها ودعائم

١٥- وقد حاكموها والمنايا حواكم

فما مات مظلوم ولا عاش ظالم

١٦- أتــوك يجــرون الحديـد كـأنهــم

سـروا بجيـاد مـا لهـن قـوائـم

١٧- إذا بـرقـوا لـم تعـرف البيــض

منهـم ثيابهـم من مثلها والعمائـم

١٨- خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفـي أذن الجـوزاء منـه زمـازم

١٩- تـجـمـع فـيـه كـل لسـن وأمـة

فـمـا تفهـم لحداث إلا التراجـم

٢٠- فلله وقـت ذوب الغـش نـاره

فلـم يبـق إلا صارم أو ضبـارم

٢١- تقطـع مـا لا يقطـع الـدرع والقنـا

وفـر مـن الأبطـال من لا يصـادم

٢٢- وقفـت ومـا في المـوت شـك لواقـف

كأنك في جفـن الـردى وهو نائـم

٢٣- تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً

ووجهك وضّاح وثغرك باسم

٢٤- تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى

الى قول قومٍ أنت بالغيب عالم

٢٥- ضممت جناحيهم على القلب ضمة

تموت الخوافي تحتها والقوادم

٢٦- بضرب أتى الهامات والنصر غائب

وصار إلى اللبات والنصر قادم

٢٧- حقرت الردينيات حتى طرحتها

وحتى كأن السيف للرمح شاتم

٢٨- ومن طلب الفتح الجليل فإنما

مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

٢٩- نثرتهم فوق الأحيدب كله

كما نثرت فوق العروس الدراهم

٣٠- تدوس بك الخيل الوكور على الذرى
وقد كثرت حول الوكور المطاعم

٣١- تظن فراخ الفتخ أنك زرتها
بأماتها وهي العتاق الصلادم

٣٢- إذا زلفت مشيتها ببطونها
كما تتمشى في الصعيد الأراقم

٣٣- أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم
قفاه على الإقدام للوجه لائم

٣٤- أينكر ريح الليث حتى يذوقه
وقد عرفت ريح الليوث البهائم

٣٥- وقد فجعته بابنه وابن صهره
وبالصهر حملات الأمير الغواشم

٣٦- مضى يشكر الأصحاب في فوته الظبى
بما شغلتها هامهم والمعاصم

٣٧- ويفهم صوت المشرفية فيهم
على أن أصوات السيوف أعاجم

٣٨- يسر بما أعطاك لا عن جهالة

ولكن مغنوما نجا منك غانم

٣٩- ولست مليكا هازما لنظيره

ولكنك التوحيد للشرك هازم

٤٠- تشرف عدنان به لا ربيعة

وتفتخر الدنيا به لا العواصم

٤١- لك الحمد في الدر الذي لي لفظه

فإنك معطيه وإني ناظم

٤٢- وإني لتعدو بي عطاياك في الوغى

فلا أنا مذموم ولا أنت نادم

٤٣- على كل طيار إليها برجله

إذا وقعت في مسمعيه الغماغم

٤٤- ألا أيها السيف الذي ليس مغمداً

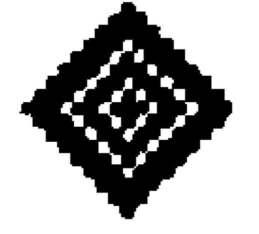
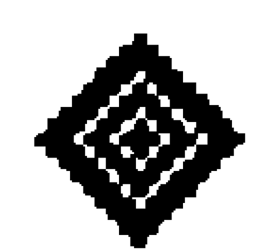
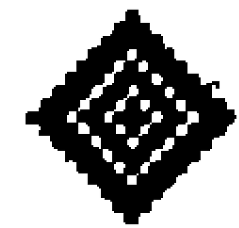
ولا فيه مرتاب ولا منه عاصم

٤٥- هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلى

وراجيك والإسلام أنك سالم

٤٦- ولم لا يقي الرحمن حديك ما وقى

وتقليقبه هام العدى بك دائـــم [١]

[١] - شرح ديوان المتنبى وضعه عبد الرحمن البرقوقى الناشر دار الكتاب العربي بيروت – لبنان ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م المجلد الثانى ج ٣ ص ٩٤ ، ١٠٨

التعريف بالشاعر

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجُعفَى الكندىّ المتنبي ، شاعر العربية ولسان عبقريتها وترجمان بلاغتها ،وخاتم ثلاثة الشعراء ، وآخر من شارف غاية الإرتقاء.

وهو من سلالة عربية من قبيلة جعفى بن سعد العشيرة بن مَذحج : إحدى قبائل اليمانية ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ فى محلة كِندة ونسب إليها فعرف بالكندى ، وظهرت عليه النجابة وهو صغير فكان نادرة فى الحفظ مولعاً باللغة لا يسأل عن شئ إلا استشهد فيه بكلام العرب من شعر ونثر ، وكان أبوه فيما يقال سقاء اسمه عبدان كان يبيع الماء فى الكوفة فخرج به إلى الشام ، وقد عاش فترة فى بادية بنى كلب فأقام بين أهلها مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة حتى أحاط بغريبها وحوشيها ، فعظم شأنه بينهم وكانت الأعراب الضاربون بمشارف الشام شديدي الشغب على ولاتها فلمع فيما بينهم وأثر على أفكارهم وآنس من نفسه قدرة خارقة بعثتها خيالات الشباب وحركتها دفعات الغرور يطمح بها إلى دعوى النبوة وهو

نحو العشرين ، فانتشر أمره وذاع خبر نبوته ، فوشى بعضهم إلى لؤلؤ أمير حمص بأن أبا الطيب ادعى النبوة في بني كلب وتبعه منهم خلق كثير ، ويخشى على ملك الشام منه . فسارع لؤلؤ إلى بني كلب وحاربهم وأخمد الفتنة وقبض على أبو الطيب المتنبي وأودعه السجن ، حيث قضى فترة طويلة ثم استتابه وأطلقه .(١)

فخرج من السجن وقد التصق به اسم المتنبى ، وطغى على اسمه الحقيقى ، ثم تكسب بالشعر لأنه لم يرث عن أبيه مالاً يسد به خلّته ، ويغنيه عن التكسب بشعره . وكثيراً ما كان يشكو الفقر وشظف العيش ، وقلة الأعوان .

وابتدأ يمدح الناس وهو فى الكتاب ، وعضت به الحاجة بعد موت أبيه فراح يتردد فى حواضر الشام ، يمدح الأمراء والسادات ، فعرفته دمشق ، وبعلبك ، وحمص ، وطرابلس ، ومنبج ، وأنطاكية ، واللاذقية ، وطرطوس ، وصور ، وطبرية ، الرملة وغيرها من البلدان ومرت به أوقات فى أول حياته ، كان يجتاز فيها بدينار واحد ،

---

١ - الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه أحمد الإسكندرى ، مصطفى عنانى بك ص ٢٧٢ ، ص ٢٧٣ . وكذا أمراء الشعراء السيد فراج ص ٢٤٨ ، ٢٥٥

ويلبس خشن القطن ولا يملك ناقة يستعين بها على أسفاره فيركب نعليه ويضرب بها فى الحواضر والبوادى ، فاشتهر بجلده على المشى المتواصل .

ثم حظى عند بعض الامراء أمثال آل تنوخ فى اللاذقية ، وبدر بن عمار فى طبرية ، والحسن بن طُغج فى الرملة . واتيح له شئ من الشهرة حتى اصبح ذوو الوجاهة يتعرضون له ليمدحهم فعل ابن كَيْغَلَغ وكان يومئذ على طرابلس فمر به أبو الطيب فسأله أن يمدحه ، فماطله أبو الطيب وكان يرجو الاتصال بسيف الدولة فكيف يمدح عاملاً لعدوه الاخشيد ، ومازال يماطله حتى تسنى له الهرب بعد أربعين يوماً ، فهجاه بقصيدته الشهيرة التى أولها : "لهوى النفوس سريرة لا تُعلم" ومثله طاهر بن الحسين العلوى فى الرملة ، فإنه كان يشتهى أن يمدح بشعر أبى الطيب ، والمتبنى يأبى أن يمدحه حتى ألح عليه الأمير أبو محمد الحسن بن طغج ، وضمن له عند العلوى مئات من الدنانير ، فمدحه أبو الطيب .

على أن حظوته عند هؤلاء الأمراء لم تغنه من فقر ، ولم تحل دون تذمره على الدهر ، وشكواه كساد الشعر وقد أورثته مع ضالتها اعداء وحسادا فكانوا يكايدونه وكان هو يهجوهم ويذود عن نفسه . وما زال كذلك حاله بين خمول وشهرة ، وهبوط وارتفاع وفقر وغنى ، حتى ورد انطاكية وعليها أبو العشائر الحمدانى من قبل نسيبه سيف الدولة ، فاتصل به ومدحه بعدة قصائد فاكرمه أبو العشائر ، وأحسن مثواه ..

وكان سبب اتصال المتبنى بسيف الدولة أن ملك حلب قدم أنطاكية سنة (٣٣٧ هـ - ٩٤٨ م) فاستقبله أبو العشائر ، وقدم إليه المتبنى وعرّفه منزلته فى الشعر والأدب وأثنى عليه . فحمله معه إلى حلب ، واشترط عليه أبو الطيب ألاّ ينشده واقفاً وألاّ يكلّف بتقبيل الارض بين يديه ، فدخل سيف الدولة تحت شرطه ، ومالت نفسه إليه وأحبه ، فسلمه إلى الروّاض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة ، فكان يصحبه فى غزواته ، وحضر معه وقائعه العظيمة مع الروم ووصفها بشعره حتى عدَّ من أبطال القتال طمعاً منه أن يكون

صاحب دولة . وأفاض عليه سيف الدولة وافر النعم ، فكان يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ماعدا غيرها من نوافل الأعطيات والخيل والجوارى والضيع ، وبقى أسيرا عنده مقدماً على جميع حاشيته وبطانته مع صلفه وتيهه . فوشوا به الى سيف الدولة . وكان أشدهم حسداً له ابن خالويه النحوى مؤدب سيف الدولة فجرت مناظرة بينه وبين أبى الطيب فى مجلس سيف الدولة فضربه ابن خالويه بمفتاح حديد فى وجهه فشجه ، فغضب المتنبى من ذلك ، وزاده غيظاً ان سيف الدولة لم ينتصر له لا قولاً ولا فعلاً . فاعتصم بالصمت عالماً أن التعرض لابن خالويه وخيم المغبَّة مادام الأمير راضياً عن عمله ، وخرج من المجلس وقد عوّل على الرحيل ، فقصد أبو الطيب كافوراً الاخشيدى أمير مصر ، رجاء أن ينال عنده ما لم ينل عند سيف الدولة ، ومدحه بقصائد رائعة . ووعده كافور أن يقلده إمارة أو ولاية . ولكنه رأى تغاليه فى شعره وفخره بنفسه عدل عن أن يوليه ، وعاتبه بعضهم فى ذلك "فقال : يا قوم ! من

ادعى النبوة بعد محمد ﷺ اما يدعى المملكة بعد كافور ! فحسبكم"(١)

فعاتبه ابو الطيب عتاباً امضه وآلمه ، وكان كافور يعلم ان ابا الطيب واجد عليه لتخييبه رجاؤه ، فخشى أن يهجوه إذا خرج من مصر وابتعد عن حكمه ، فمنعه من الرحيل ، وألزمه أن يبقى فى بطانته . فتغفله ليلة عيد الأضحى فى أواخر سنة (٣٥٠ هـ ٩٦١م) وخرج من مصر مستخفياً يريد الكوفة ، ومنها قصد عضد الدولة بن بويه بفارس مارّ ببغداد فمدحه ومدح وزيره ابن العميد فأجزل صلته وعاد إلى بغداد ، وخرج الى الكوفة . فخرج عليه اعراب بنى ضبه وفيهم فاتك بن أبى جهل الأسدى ، وكان المتنبى قد هجاه هجاء مقذعاً فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل هو وابنه وغلامه سنة ٣٥٤ هـ .

منزلته فى الشعر :

رُزق المتنبى شهرة لم يرزقها سواه من شعراء العرب ، فقد سار شعره على غوارب السنين والأحقاب ، ترده الحواضر والبوادى وتختصم فيه مجالس الأدب ، وتعقد عليه حلقات الطلب ، وكان من

---

١ ـ الوسيط فى الأدب العربي وتاريخه أحمد الإسكندرى ، مصطفى عنانى بك ص ٢٧٣

عداوة الأدباء له أن ضاعفت سيرورة شعره ، لأن اهتمامهم بنقد أقواله ، واظهار معايبه ، جعل الناس يلتفتون لفتة من كل صوب ، وقام له أنصار ينافحون عنه ، ويردون حجم خصومه ، فصنفت الكتب في ماله وما عليه ، وعنى الشرّاح بتفسير ديوانه لكثرة الراغبين فيه ، فكتب له الخلود وتبوأ أعلى درجاته .

ومن هنا كان أنصاره وخصومه معاً من أسباب شهرته ، قال الثعالبي فيه " يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط " . وقال : " تفرق الأدباء فرقاً في مدحه ، والقدح فيه ، وذلك أول دليل على وفور فضله ، وتفرده عن أهل زمانه " (1)

ولعل أكبر عوامل شهرة وعظمة المتنبى رجاحة عقله ، فقد روى عنه أنه كان ذكياً فصيحاً أخذ من البداوة بيانها ، ومن الحضارة ثقافتها ، وهو ما يزال حدثاً وأبوه سقاء في الكوفة ، ولولا ذكاؤه ونبوغه لظل حيث وضعه أبوه ، والنوابغ الأذكياء لا يرضيهم غير العظمة والعلاء قال :

---

(1) - دراسات في الأدب والفن حنا نمر الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع ص ٢٥٢

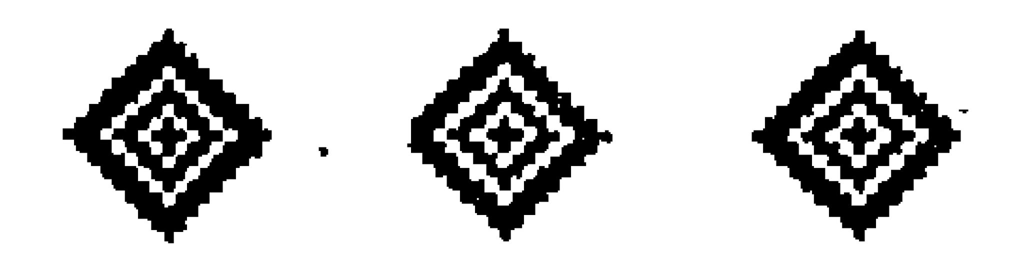
وإذا كانت النفوس كبارا

تعبت في مرادها الأجسام

كما امتازت لغة المتنبى فى قوتها فلاءمت قوة نفسه ومعانيه وأغراضه وتبدو هذه القوة فى ألفاظه الصلبة ، وتراكيبه المتينة ؛ وتشابيهه واستعاراته ، يمدّها خيال بدوى عنيف ، كما كان لحياته المضطربة تأثير فى توجيه عاطفته ، فإن تردده فى البادية . ومغامراته الكثيرة ، واخفاقه المتتابع ، وتشاؤمه بالزمان وأهله جعل عاطفته تنمو مخشوشنة متصلبة ، لا ترتاح إلى سوى العنف والشدة ، وكذلك أثرت فيها ثقافته الفلسفية وتطلبه للمعانى فضعف عملها فى كثير من المواطن بقدر ما قوى عمل التفكير .

والمتنبى يمثل شطراً كبيراً من عصره ، ففيه تتجلى تلك النهضة الفكرية التى سمت بها العلوم والفلسفة والمنطق . وفيه يتمثل اتساع الرزق على الشعراء لتعدد حواضر العلم والأدب ، وتنافس الأمراء في استقدام الشعراء ليمتدحهم ، ويغالوا فى نعوتهم حتى أصبح الشعر تكسباً كله . وفيه يتمثل اضطراب الحالة السياسية ، وتحفز كل ذى طموح إلى التملك ، وكثرة الحروب والخروج والفتن .

وعلى الجملة فشعر **المتنبى** مستندا تاريخي لزمانه . وهو أبرع من وصف جيشاً ، وصوّر ملحمة ، ولو طالت ملاحمه لسد ثلمة فى الشعر العربى . وهو أكثر الشعراء المتقدمين بيتاً مقلداً ، وأنضجهم تفكيراً وحكمة ، وأبصرهم بفلسفة الحياة ، وأخلدهم على مرور الأجيال .



١- على قدر أهل العزم تأتي العزائـم

وتـأتي على قـدر الكـرام المكـارم

٢- وتعظم في عين الصغـير صغـار هـا

وتصغر في عين العظيم العظائـم

٣- يكلف سيف الدولة الجيـش همه

وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

٤- ويطلب عند الناس ما عند نفسه

وذلك ما لا تـدعيه الضراغـم

٥- يفدي أتم الطير عمراً سلاحـه

نسـور الملا أحداثها والقشاعـم

٦- ومـا ضرهـا خلق بغير مخالـب

وقد خلقت أسيافـه والقـوائـم

اللغة

العزم : الجد – عزم على الأمر عزماً : أى أراد فعله .

العزائم : جمع عزيمة وهى ما يعزم عليه من الأمر .

المكارم : جمع مكرمة ، فعل الكرم .

٢ – الضمير فى " **صغارهـا** " للعزائم و المكارم . ٣ – **الهم : الهمة** : و هو ما هممت به من أمر لتفعله أى المطلب و المطمع. **الخضارم** : جمع خضرم و هو الكثير العظيم من كل شئ .

٤ – **الضراغـم** : الأسود . ٥– **الملا** : بمعنى الفلاة ويروى الفلا : جمع فلاة ، و هى الصحراء ، **الأحداث** : الشابة جمع حدث ، **القشاعم** : الطويلات العمر .

٦ – (**مـا**) : نفى أو استفهام إنكار ، **و خلـق** : مصدر خلق يخلق ، و **المخالـب** : جمع مخلب ، و هو لسباع الطير كالظفر للإنسان ، **والقـوائـم** : جمع قائم ، و هو قائم السيف أى مقبضه .

المعنى

يقول المتنبى إن العزائم تكون على قدر أصحاب العزم فعظمة الأفعال من عظمة الذات . فمن كان كبير الهمة قوى العزم كان الأمر الذى يعزم عليه عظيماً ، وكذلك المكارم إنما تكون على قدر أهلها، فمن كان أكرم كان ما يأتيه من المكرمات أعظم .. أى أن الرجال قوالب الأحوال ، فإذا صغروا صغرت وإذا كبروا كبرت . و إن صغار الأمور عظيمة فى عين الصغير القدر إذ تملأ ذارعه . وعظامها صغير فى عين العظيم القدر لأن فى همته فضلة عنها . و المتنبى يشير بذلك إلى شرف سيف الدولة وما فعل فى المعركة من نفاذ عزمه وجلالة قدره ، ويكلف سيف الدولة

جيشه أن يقوم بما تقتضيه همته من الغارات والغزوات ، وهو أمر لا قبل للجيوش الكثيرة به ، لأن ما فى همته ليس فى طاقة البشر تحمله . فسيف الدولة يعتمد على جيشه فى تحقيق أمانيه ومطامحه التى لا تستطيع أضخم الجيوش تحقيقها . فهو يريد أن تكون الناس مثله فى شجاعته وإقدامه وذلك شئ لا تدعيه الأسود ، فكيف تبلغه البشر ؟ وذلك مالا يطيقه أعاظم الرجال ، وإن النسور صغارها وكبارها تقول لأسلحته فديناك بأنفسنا ، لأنها كفتها مؤنة طلب الأقوات لكثرة القتلى فى وقائعه . وليس يضر الأحداث من النسور – أى الفراخ – والقشاعم – أى المسنة التى ضعفت عن طلب القوت – ولعل المتنبى خص هذين النوعين لعجزهما عن طلب الرزق – ليس يضر هذين أن لا يكون لهما مخالب قوية مفترسة بعد أن خلقت أسياف سيف الدولة فإنها تقوم بكفاية قوتها ، والمقصود ما يضرها أن تخلق بغير مخالب تستعملها فيما تأكله وتصرفها فيما تنشبه ، لأن سيوف سيف الدولة تبلغها فى ذلك ما ترغبه وتفعل لها ما تريد وتطلبه .

٧- هل الحدث الحمراء تعرف لونها
وتعلم أي الساقيين الغمائم

٨- سقتها الغمام الغر قبل نزوله
فلما دنا منها سقتها الجماجم

٩ بناهـا فأعلـى والقنا تقرع القنــا

ومـوج المنـايـا حولهـا متلاطـــم

١٠ - وكـان بهـا مثـل الجنـون فأصبحت

ومـن جثث القتلـى عليهـا تمائـم

١١- طريـدة دهـر سـاقهـا فرددتهـا

على الدين بالخطي والدهر راغـم

١٢ تفيـت الليالــي كـل شـيء أخذته

وهـن لما يأخـذن منـك غـــوارم

اللغة

٧ - **الحدث**: قلعة معروفة بناها سيف الدولة فى بلاد الروم ، ووصفها بحمراء لأنها احمرت بدماء الروم . وذلك أن الروم غلبوا عليها وتحصنوا بها . فأتاهم سيف الدولة وقتلهم فيها حتى تلطخت بدمائهم .

٨ - **الغمـام**: جمع غمامة وهى السحب . **والغر**: البيض

٩ **فأعلـى**: أى فأعلاها . **والقنا**: الرماح .

١٠ - **مثـل**: اسم كان وهو خلف من موصوف : أى شئ مثل الجنون ، **التمـائـم**: جمع التميمة وهى تعويذة يتوقون بها مس الجن جعل الفتنة فيها جنونا لها .

١١ **الطريـدة**: المطرودة ، أى ما طردته من صيد أو غيره .

والخطى: الرماح ، **راغم**: ذليل ، وأصل الرغم : أن يلتصق الأنف بالرغام

أى التراب . ١٢ - **تفيت**: من الفوت ، وأفاته الشئ : حمله على فوته ، **وفاعل تفيت**: ضمير المخاطب ، والليالى : مفعول أول ، وسكنه ضرورة ، أو على لغته ، **وكل شئ**: مفعول ثان . وغوارمه جمع غارمه ، وعزم الدين والغضب وغير ذلك.

المعنى

يقول المتنبى : هل تعرف هذه القلعة لونها ؟ لقد تبدل لون الأرض لأصطباغها بدم الأعداء – وهل تعلم أى الساقيين لها من الغمائم : أجماجم الروم التى سقتها بالدم ، أم السحائب التى سقتها بالمطر ؟ يعنى أن الجماجم أجرت عليها من الدماء مثل ما أجرت عليها السحائب من الماء ، فهى لا تدرى أى هذين الفريقين أحق بأن يسمى ، بالغمائم لأنهما استويا فى السقيا وقد بين هذا المعنى فى البيت التالى .

وفى الوقت الذى كان البناؤون يعيدون بناء القلعة والمعركة حاسمة ورماح المسلمين تقارع رماح الروم والجيشان يتقاتلان والموت يجتاح الفرسان كأمواج البحر ، وكان طعان الفرسان وضرابهم شديداً فكأنهم أصيبوا بمس من جنون ، فلما انتهت المعركة كانت جثث القتلى أشبه بالتمائم صانتها من ذلك الجنون ، وهذه القلعة طريدة أمام الدهر تعقبتها حوادثه إذ سلط عليها الروم حتى خربوها ، فأعاد سيف الدولة بناءها وردها . على أهل الدين ، فذل الدهر حين خالفه فيما قصد وأراد وإذا

سلبت الليالى شيئا أفته عليها فلم تقدر على استرداده منه ، وهى إذا أخذت منه شيئاً غرمته ، يقصد أن سيف الدولة أقوى من الدهر ، فإنه لا يقدر على مخالفته والتمرد عليه .

١٣- إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً
مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازم
١٤- وكيف ترجي الروم والروس هدمها
وذا الطعن أساس لها ودعائم
١٥- وقد حاكموها والمنايا حواكم
فما مات مظلوم ولا عاش ظالم
١٦- أتوك يجرون الحديد كأنهم
سروا بجياد ما لهن قوائم
١٧- إذا برقوا لم تعرف البيض
منهم ثيابهم من مثلها والعمائم
١٨- خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي أذن الجوزاء منه زمازم

اللغة

١٣ - **الفعل المضارع**: المراد به المستقبل . وأراد **بالجوازم**: " لم ، ولا ، ولام الأمر "

١٤ - **الأساس**: جمع أس . قال أهل اللغة : الأس - وهو أصل البناء -

يجمع على إساس ، جمع الأساس : أسس ، **الدعائم** : جمع دعامة .

١٥ - **المنايا** : الموت ، **المظلوم** : القلعة ، **الظالم** : الروم .

١٦ – **السرى** : سير الليل ، **والجياد** : الخيل .

١٧ - **البرق** : اللمعان ، **و البيض** : السيوف . **و برقوا** : يعنى الروم .

١٨ - **الخميس** : الجيش العظيم . سمى بذلك لأنه له ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين ، **الزحف** : التقدم ، وأصله المشى مع تثاقل ، **الجوزاء** : نجمان معترضان ، **في جوز السماء** : أى وسطها ، وهما من البروج ، **الزمازم** : الأصوات التى لا تفهم لتداخلها ، وأصل الزمزمة : صوت الرعد ، وأراد الأصوات الشديدة المتداخلة .

المعنى

يقول المتنبى إن سيف الدولة إذا عزم على أمر حققه ، ثم نجده يتحدث عن الروم كيف يؤمولون هدم هذه القلعة وهى موثقة بطعنات سيف الدولة التى أعملها فيهم ، فالطعن لها كالأساس والدعائم حيث وثقت به كما يوثق البناء بالأساس والدعائم ، وقد جعل الشاعر القلعة والروم خصمين ، والمنايا في الحرب حاكمة بينهما فحكمت للمظلوم – وهو القلعة–بالسلامة ، فلم تترك لهم سبيلا إلى هدمها ، وحكمت على الظالم – وهو الروم – بالهلاك فأبادتهم ، وكان جيش الأعداء كثيرا مدججا بالسلاح ، فلا تكاد قوائم الخيل تظهر للعيان ، ولو

سقطت أشعة الشمس على فرسان الأعداء لما ميزت سيوفهم من دروعهم وخوذهم فكل لباسهم من حديد ويكمل المتنبى حديثه عن كثرة جيش الروم ويقول : إن هذا الجيش لكثرته طبق الارض وبلغت أصواته عنان السماء .

١٩ تجمع فيه كل لسن وأمة
فما تفهم الحداث إلا التراجم
٢٠ فلله وقت ذوب الغش ناره
فلم يبق الا صارم أو ضبارم
٢١ تقطع ما لا يقطع الدرع والقنا
وفر من الأبطال من لا يصادم
٢٢ وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
٢٣ تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم
٢٤ تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى
إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

اللغة

١٩ - **اللسن** : اللغة ، **التراجم** : جمع ترجمان – بفتح التاء وبضمها والمعنى على الضم . ٢٠ - **عنى بالغش** : الضعاف من الرجال والأسلحة ، **الصارم** : السيف القاطع .

و **الضبارم** : الشجاع الجرئ ، وأصله الأسد الشديد الغليظ .

٢٢ - **الردى** : الهلاك

٢٣ – **كلمى** : جمع كليم : يمضى جرع هزيمة : أى منهزمة ، **وضاح** : مشرق ، ٢٤ – **النهى** : جمه نهية ، وهى العقل .

المعنى

يقول المتنبى :اجتمع فى هذا الجيش كل جيل من الناس وأهل كل لغة من اللغات ، فإذا كلم جيل منهم من ليس من أهل لغته احتاج إلى مترجم له وكل هذا إشارة إلى عظم الجيش وما قد جمع فيه من عناصر متنوعة ، وحين عنفت المعركة سبكت الناس وأسلحتهم فأفنت ما كان رديئا ولم يبق إلا كل سيف هازم ورجل شجاع وتكسر من السيوف ما لم يكن ماضيا يقطع الدروع والرماح وهرب الجيبناء الذين لا يقدرون على المصادمة ، ثم بين الشاعر أن موقف سيف الدولة غاية فى الصمود والبسالة فى معركة ليس فيها من ناج ، ولكنه مع ذلك يمر به الجرحى من الأبطال منهزمين ، وكلمى مستسلمين ، وذلك لا يثنى عزمه ولا يضعف نفسه ،

ن كان حينئذ وضاحا غير متخوف ، وبساما غير مضجر واثقا من الله
نصره ، متيقنا بما وصله به من جميل صنعه كما أن موقف سيف الدولة
أعظم من أن يتصوره العقل فما اقتحمه من الأهوال لا يثبت أمامه
شجاعه وما أظهره من الصبر وربطة الجأش لا يكفي في مثله العقل
والرصانة . فكأنه قد كوشف بالغيب وعرف أن العاقبة له ، فلبث في تلك
الحال وضاحاً بساما لا يكترث لما يراه حوله من الأهوال .

٢٥- ضممت جناحيهم على القلب ضمة
تموت الخوافي تحتها والقوادم

٢٦ بضرب أتى الهامات والنصر غائب
وصار إلى اللبات والنصر قادم

٢٧ حقرت الردينيات حتى طرحتها
وحتى كأن السيف للرمح شاتم

٢٨ ومن طلب الفتح الجليل فإنما
مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

٢٩- نثرتهم فوق الأحيدب كله
كما نثرت فوق العروس الدراهم

٣٠ تدوس بك الخيل الوكور على الذرى
وقد كثرت حول الوكور المطاعم

اللغة

٢٥ - **جناحيهم**: يريد بالجناحين : ميمنة الجيش وميسرته ، وهما جانبا العسكر . ولما سماها جناحين ، جعل رجالهما خوافي وقوادم ، والجناح يشتمل على القوادم وهي من الريش ما فوق الخوافي ، قيل إنها عشر ريشات في مقدم جناح الطائر ، وعليها معولة في طيرانه ،

والخوافي : ما تحت القوادم . ٢٦ - **الهامات** : الرءوس ، **اللبات** : النحور .

٢٧ - **الردينيات** : الرماح ، نسبه إلى ردينة ، امرأة باليمامة كان هي وزوجها يعملان الرماح .

٢٨ - **البيض**: السيوف ، و **الخفاف**: [illegible] و **الصوارم** : القواطع ،

مفاتيحه : أي مفاتيح الفتح.

٢٩ - **الأحيدب** : جبل الحدث ، **نثرتهم** : فرقتهم.

٣٠ - **وكر الطائر** : موضع مبيته ، والجمع وكور ، و **الذرى** : أعالى الجبال

المعنى

ثم انطلق سيف الدولة في جمع باسل من فرسانه ، فهصر جناحي جيش الروم على قلبه، هصرة أتت على العديد منه ، وشتت شمله ، بضرب يقد الرؤوس ويبلغ الصدور ، في ملحمة بالسيوف ، لم تعد الرماح سلاح سجبة مجدية فيها . فالنصر المؤزر لا يؤتى إلا السيوف البتارة وهكذا انجلت المعركة عن أبهج ما تتوق إليه العيون ، فمنظر قتلى الأعداء

منثورين على الجبل أبهى من منظر الدراهم التى تنثر على العروس ، ثم يصور الشاعر منظر كثرة الجثث حول وكور الطير مع انتزاح مواضعها وامتناع أماكنها إلى ما كان الروم عليه من شدة الهرب . وما كان أصحاب سيف الدولة عليه من قوة الطلب وأنهم قتلوهم فى رؤوس الجبال ، وأدركوهم فى أبعد غايات الأوعار .

٣١ تظن فراخ الفتخ أنك زرتها
بأماتها وهي العتاق الصلادم
٣٢- إذا زلقت مشيتها ببطونها
كما تتمشى في الصعيد الأراقم
٣٣- أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم
قفاه على الإقدام للوجه لائم
٣٤- أينكر ريح الليث حتى يذوقه
وقد عرفت ريح الليوث البهائم
٣٥ وقد فجعته بابنه وابن صهره
وبالصهر حملات الأمير الغواشم
٣٦ مضى يشكر الأصحاب في فوته الظبى
بما شغلتها هامهم والمعاصم

اللغة

٢١ **الفتخ**: جمع فتخاء ، إناث العقبان ، سميت بذلك لطول جـ ـب ولينه فى الطيران، **والفتخ** : لين المفاصل . **والأمات**: جمع أم فيما لا يعقل . وقد جاء فيه أمهات حملاً على من يعقل ، **العتاق**: كرام الخيل ؛ **الصلادم**: جمع صلدم ، وهى الفرس الشديدة الصلبة .

٢٢ **الصعيد**: وجه الأرض ، **الأراقم** : الحيات فيها سواد وبياض .

٢٣- **الدمستق**: صاحب جيش الروم ، **وأقدم**: خلاف أدبر .

٢٤- **الليث**: الأسد ، **يذوقه**: معناه يجربه ويختبره – يقال ذاق ما عند فلان : أى جربه ، والضمير : لليث يشير إلى أن الدمستق أجهل من البهائم لأن البهائم إذا شمت ريح الأسد وقفت ولم تتقدم وهذا على طريق التمثيل .

٢٥ – **فجعه**: رزأه بشئ يكرم عليه . الصهر : أهل بيت المرأة .

الغواشم: التى لا تبالى من أخذت.

٢٦- **الظبى**: جمع ظبة حد السيف . **والهام**: الرءوس .

والمعاصم: جمع معصم أطراف السواعد.

المعنى

يشبه الشاعر خيل سيف الدولة بالعقبان فى شدتها وسرعتها وضمورها وإذا زلقت الخيل فى صعودها الجبال جعلها تمشى على بطونها فى تلك المزالق مشى الحيات على بطونها فى الصعيد ، ثم يبين الشاعر أن إقدام

صاحب جيش الروم شبب هزيمته والضرب فى قفاه وأن حملات سيف الدولة فجعت الدمستق بابنه وأصهاره وهو مع ذلك لا يرتعد بحملاته الغواشم للأقران الغواصب لأنفس الفرسان ، وفى النهاية انهزم الدمستق وهو يشكر أصحابه لأن السيوف اشتغلت بهم عنه فكأنهم وقوة السيوف برؤسهم وأيديهم حتى سبق وفات السيف.

٣٧- ويفهم صوت المشرفية فيهم
على أن أصوات السيوف أعاجم

٣٨- يسر بما أعطاك لا عن جهالة
ولكن مغنوما نجا منك غانم

٣٩- ولست مليكا هازما لنظيره
ولكنك التوحيد للشرك هازم

٤٠- تشرف عدنان به لا ربيعة
وتفتخر الدنيا به لا العواصم

٤١- لك الحمد في الدر الذي لي لفظه
فإنك معطيه وإني ناظم

٤٢- وإني لتعدو بي عطاياك في الوغى
فلا أنا مذموم ولا أنت نادم

اللغة

٣٧- **المشــرفيـة** : السيوف . قال أهل اللغة : المشارف : قرى من أرض اليمن،وقيل من أرض العرب تدنو من الريف،والسيوف المشرفية منسوبة إليها.

٤٠ - **عـدنـان**: أبو العرب ، و **ربـيـعـة** : بطن من عدنان وهى قبيلة سيف الدولة، **العواصم** : بلاد قصبتها أنطاكية.

٤١ - **الدُرّ** : الشعر الذى يشبه الدرر.

٤٢ - **تعدو** : تجرى وتسرع ، **الوغى** : الحرب .

المعنى

يقول المتنبى إذا سمع الدمستق (قائد الروم) صوت وقع السيوف فى أصحابه فهم أنها تعمل فيهم قتلاً وذبحاً فيحارب علماً بأن تلك الأصوات لا تفهم فهى عجماء ، ثم يفتخر الشاعر بسيف الدولة وبأنه قائد مسلم هزم الشرك وقوامه وبين أن جميع العرب يفتخرون به لرجوعه بالنسب إليهم وليس يفتخر به رهطه فقط فهو فخر لجميع الدنيا لا لبلاد مخصوصة – لبلاده – لأنه أشرف أهل الدنيا ، كما إنه ألهم المتنبى الشعر فكأنه أعطاه الدر وهو ناظمه وقد امتطى المتنبى فى الغزو خيله التى أعطاها إياه فهو ليس مذموما فى أخذها ، لأنه شاكر أياديه ناشر ذكره ، وسيف الدولة ليس نادما على ما أعطاه لقيامه بحق ما أولاه.

٤٣- على كل طيار إليها برجله
إذا وقعت في مسمعيه الغماغم

٤٤- ألا أيها السيف الذي ليس مغمداً
ولا فيه مرتاب ولا منه عاصم

٤٥- هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلى
وراجيك والإسلام أنك سالم

٤٦- ولم لا يقي الرحمن حديك ما وقى
وتفليقه هام العدى بك دائم

اللغة

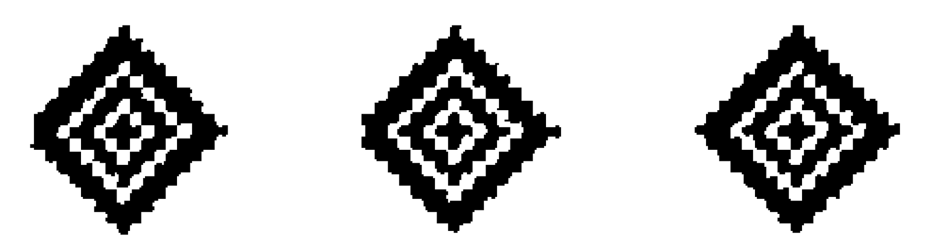
٤٣ - **الغماغم** : أصوات الرجال في ميادين القتال .

٤٥ - **الهام** : الرءوس ، **العلى** : المراتب العالية .

المعنى

إن الشاعر يقصد إلوغى على كل فرس إذا سمع صوت الأبطال في الحرب طار إليها برجله عوض الجناح ، ثم يبين الشاعر إنه لا يستطيع أحد أن يشك أن سيف (سيف الدولة) دائما مجرد على أعدائه ويخاطب سيف الدولة قائلاً له لتهنأ الهام (حشرات حول رأس الميت) بضرب الرؤوس ، وبما حققت من مجد ، وقد سلمت للإسلام الذى يرجى لك

من كل نفع ، فأنت سيفُ الله وقد وقى (حفظ الرحمن) حياتك لأنه جل وعلا بك يحطم رؤوس الأعداء.



تحليل وتعليق

- بدأ الشاعر قصيدته دون مقدمات ، وقد جاء المطلع مصرعاً فيه ذلك الترجيح الصوتى (العزم والعزائم ، والكرام والمكارم) حيث المفرد والجمع فى تكرار يفضى إلى نوع من الإيقاع المجلجل.

- اعتمد الشاعر المقابلة فى البيت الثانى ليوضح التناقض بين النفوس الصغيرة والكبيرة . فكان التقابل المعنوى رديف التماثل الصوتى الموحى.

- الكناية التى تقدم المعنى فى خفاء وتوحى به من خصائص هذه القصيدة حيث يشير الشاعر إلى ما يتصف سيف الدولة من شجاعة وإقدام ، ويكنى عن ذلك بسعادة الطيور التى وفر لها طعامها من الجثث.

- مظاهر التصنيع واضحة فى تلاعبه بالألفاظ وتوظيفه اللون واستخدامه للاستعارة وتكرار عملية السقيا بألفاظ وأشكال متعددة . قد أتى الشاعر بصور شخص فيها الجماد واستطرد إلى الحديث عنها، وذلك عند حديثه عن (الحدث الحمراء) وهى القلعة المهمة ويبدو أنها كانت محور المعركة . وقد استقصى فى الحديث عنها العديد من الجوانب . ومزج بين ما هو حسى وما هو معنوى ببراعة تدل على مهارته وقد بنى صورة كلية فيما

يقرب من خمسة أبيات استغرقها فى الحديث عن القلعة نّوع خلالها الصور البيانية.

- وظف الشاعر معارفه وخصوصاً فى علم النحو للكناية عن عزيمته القوية وإرادته الخارقة وأنه إذا همّ أمضى.

- أتى أيضاً بصورة كلية أخرى لجيش الأعداء ، وتكاثر عَدَدِه وعُدَدِه فإنما يفعل ليثبت عظمة النصر لسيف الدولة بجيش قليل العَدَد والعُدَد . وبالتالى عظمة النفوس التى يتكون منها . وعلى نحو أخص عظمة القائد . الذى بث فى جمعه روحاً لا تعرف الخوف . ولا تبالى بالموت . بل تقبل عليه إقبالاً على أعز ما لديها .

- كما عمد الشاعر إلى بعض المحسنات اللفظية التى تتضح فيها الصنعة(صارم أو ضارم) ومن الصور المبتكرة التى استخدمها تصوير سيف الدولة من خلال التشبيه التمثيلى كأن الردى إنسان وهو يقف فى جفنه ولكنه غافل عنه ونائم كناية عن الإقدام والشجاعة فهو يرسم موقفاً بطولياً نادر المثال . يتناسب مع رغبة الشاعر فى تجسيد المثل الأعلى .وهذه الصور التى تنم عن قدرة متميزة على إثراء الموقف عبر التركيب والتعقيد المتعمد للصورة .

- ولعل من أقوى التعابير وأكثرها توكيداً على المواقف الحاسمة قوله " **فلله وقت ذوب الغش ناره** " فكل كلمة فيه تحدٍ عنيف لكل احتمال . غير القوة الخارقة والصمود الصارخ .

- وفى قوله : " **أنت بالغيب عالم** " مبالغة خرج فيها الشاعر عن حد الاعتدال . وهى لون من ألوان التكلف.

- وفى قوله

ضممت جناحيهم على القلب ضمة
تموت الخوافي تحتها والقوادم

تصوير لبراعة سيف الدولة ولإقدامه ما يشبه التورية حيث الجيش يتكون من الميمنة والميسرة والمقدمة والمؤخرة والقلب . فهذا المعنى البعيد أما المعنى القريب فهى أجزاء الطير . وهى صورة كلية رائعة وذلك تشكيل جمالى وتميز يتجاوز حدود التورية والظواهر البلاغية المألوفة.

- ومن الملاحظ أن الشاعر يكثر من استخدام صيغ الحال . والحال تشخص وتمثل اللحظة الراهنة . وتبين هيئة حدوث الفعل . فهى تساعد على بث الحركة والحياة .

- يمضى الشاعر فى تصويره لنتائج المعركة بعد أن صور مقدماتها واحتدامها فى صورة كلية فتنتظم فيها الصور البيانية الجزئية . فهم منثورون كالدراهم وجثثهم منتشرة

حول الوكور وسيف الدولة بجيوشه المنتصره يدوس هذه الوكور ، وصور الفلول المنهزمه التى تسبح على بطونها كالأفاعى.

يستخدم الشاعر الاستفهام الإنكارى كما فى قوله :

أفى كل يوم ذا الدمستق ...... " وقوله " أينكر ريح الليث " وهذا الاستفهام يأتى مؤزراً للتقرير مقوياً لتأثيره مثيراً لنفس المتلقى .

- من الملاحظ أن الشاعر يتعامل مع الأشياء وكأنها أحياء فالرماح قصيرة والسيف يشتم الرمح . وكأننا نستمع إلى حوار هذه الأشياء فيما بينها . وهذا استمرار لمناهجه فى التشخيص . وهو منهاج متميز ينم عن تفاعل حى بين الأشياء والأحياء .

- من الملاحظ أن الشاعر قد لجأ إلى توكيد عباراته بمختلف أنواع التوكيد كما نراه يرتكز على الصفات وتتابعها فقد وصف السيوف بأوصاف متعددة فى قوله:

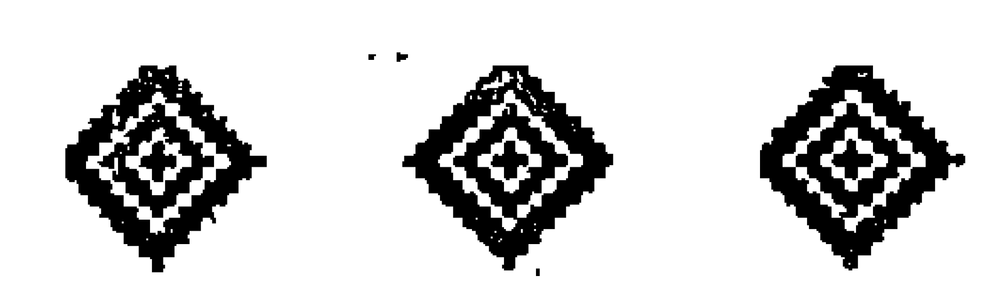
٢٨- ومن طلب الفتح الجليل فإنما
مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

كما أن كثرة استخدام الحال - كما أسلفنا - لون من ألوان التوكيد . وهذا كله ينم عن وضوح الرؤية وصفائها . وثقة الشاعر المفرطة بنفسه .

جاءت القصيدة على بحر الطويل الذى يتسع للنفس الملحمى ويستوعب التفاصيل والمشاهد . فهو من البحور الشائعة فى

شعر العرب ، وقد بدت القافية الميمية الحادة مُذكية بإيقاع مناسبة للموقف .

– ومن الملاحظ أن الشاعر ضمن قصيدته روحاً إسلامية فخورة . ومن هنا جاء الإيقاع متساوقاً مع الحالة النفسية المستقرة المطمئنة المعتزة بإيمانها فجاء شعره خالياً من التوتر متجهاً إلى قرارة الهدوء والسكون ، بعد طول توتر وصخب . فمال إلي التقرير ، وقرن الشاعر نفسه بسيف الدولة فلم يتعد أن يصور نفسه بصورة محاذية تتبدّى فيها مهارته وشجاعته . وهذا يكشف عن اعتداد الشاعر بذاته.



شكوى أسير

لأبي فراس الحمداني

١ ـ أراك عصي الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهي عليك و لا أمر؟

٢ ـ بلى أنا مشتاق وعندي لوعة
ولكن مثلي لا يذاع له سر!

٣ ـ إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر

٤ ـ تكاد تضيء النار بين جوانحي
إذا هي أذكتها الصبابة والفكر

٥ ـ معللتي بالوصل، والموت دونه
إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر!

٦ ـ وفيت، وفي بعض الوفاء مذلة،
لإنسانة في الحي شيمتها الغدر

٧ ـ وقور، وريعان الصبا يستفزها،
فتأرن أحيانا كما أرن المهر

٨ - تسائلني من أنت؟ وهي عليمة

وهل بفتىً مثلي على حاله نكر؟

٩ - فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى

قتيلك! قالت : أيهم؟ فهم كثر

١٠ - فقلت لها : لو شئت لم تتعنتي،

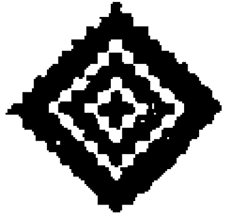
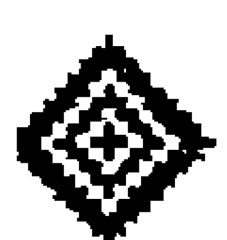
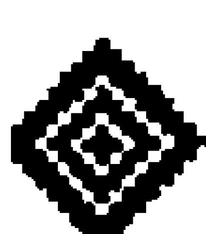
ولم تسألي عني وعندك بي خبر!

١١ - فقالت :لقد أزرى بك الدهر بعدنا

فقلت: معاذ الله بل أنت لا الدهر

١٢ - وما كان للأحزان، لولاك، مسلك

إلى القلب. لكنّ الهوى للبلى جسر[١]

[١] - شرح ديوان أبي فراس الحمداني دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان ص ٩ ، ١٠ .

التعريف بالشاعر

اسمه الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني وكنيته أبو فراس ، ولد على الأرجح في الموصل حيث كان أبوه وأسرته وقتل أبوه وعمره ثلاث سنوات ، قتله ابن أخيه ناصر الدولة فنشأ أبو فراس يتيماً تحتضنه أمه ، ويعطف عليه ابن عمه سيف الدولة أخو ناصر الدولة .

ويعود نسبه إلى بني تغلب القبيلة العربية المشهورة . ولد سنة ٩٣٢ وتوفي سنة ٩٦٧ في الوقت الذي كانت المدينة العربية العباسية في طريق الانحلال ، حيث سيطر العنصر الشعوبي من فرس وأتراك على مقدرات الدولة وأزمة سلطتها . عاش أبو فراس في بلاط ابن عمه سيف الدولة ، الملك الحمداني في مدينة حلب ، فشب في كنفه شمله بحنانه ورعايته ، فرسخت محبته في قلبه صبياً ، وميزه سيف الدولة بالإكرام عن سائر قومه لما رأى من نجابته ومحاسن أخلاقه ، وبوادر شجاعته .

ولقي أبو فراس في الحضرة جمهرة من كبار العلماء والأدباء ، فتخرج عليهم في اللغة والشعر والرواية حتى برع ، ولما بلغ أشدّه أخذ سيف الدولة يصطحبه في غزواته ، ويمرسه بمواقف الأهوال ، فخرج فارسا مقداما وشاعراً مبدعاً يهوى الحرب والمغامرة في سبيل المجد ، كما

يهوى الشعر ويبدع فيه ويخلص لابن عمه فيحمى له مملكته ويؤدب القبائل التى تثور على سلطانه .

وكنا كالسهام إذا أصابت مراميها فراميها أصابا

قطعن إلى الجبار بنا معانا ونكبن الصبيرة والقبابا

إذا ما أنهض الأمراء جيشا إلى الأعداء أنفذنا كتابا[1]

كان فارساً مغواراً فى الحرب ، لا تلين له قناة ولا يعرف للهزيمة طريقاً . وقد أبلى بلاءً بطولياً فى محاربة البيزنطيين كما كان شاعراً وناقداً موهوباً فى ندوات الأدب . وقد تعرض لكبير شعراء عصره ونابغة الشعر العربي " المتنبي " فنقده وناظره مراراً ، حتى أن هذا أخذ يتحاشى جانبه ويتجنب الاجتماع معه فى مجلس واحد ، خاصة وأنه ابن عم الملك ومن المقربين إليه.

ولكن أيام الحروب فى زمنه زادت بعددها على أيام السلم ، فبرز وجه الحرب فى شعر أبى فراس أكثر من وجه السلم . وقد أسر وعانى كثيرا فى أسره حتى تيسر فداؤه وكتب وهو فى السجن إلى سيف الدولة قصائد كثيرة يعتب فيها عليه تقصيره فى فكاكه وإطلاق سراحه من أسره ، وتسمى هذه القصائد " الروميات " وهى من أروع شعر أبى فراس

---

[1] - شرح ديوان أبى فراس الحمدانى ص ٥١ ، ٥٣

وتشتمل على أجمل المزايا التى تحلى بها ، ففيها عزة نفسه وإباؤه ، وجرأته وشجاعته . وفيها حبه لوالدته ، وحنينه إلى صبيته ووطنه . وفيها صبره وجلده وثقته المكينة بعناية الله وفيها شكايته لسيف الدولة وعتبه عليه . فكأنها مذكرات ضمنها ما كان يمر بها وهو مأسور.

ومن الملاحظ أن نظائر " الروميات " من الشعر الحديث قصائد البارودى التى نظمها وهو منفى فى سرنديب.

وجملة القول أن أبا فراس تعذب فى الأسر كثيراً ، ولقى أشد العنف والأرهاق ، ولكنه لم يخفض رأسه ، ولا أذل نفسه ، بل ظل شديد العزيمة ، صليب العود ، بادى الشمم ، جرئ القلب ، يجابه العدو فى عقر داره ، متدرعاً بالصبر متوكلاً على رحمة الله .

ولابد من القول أن لأسره يداً على خلوده ، وعلى الأدب معاً . فلولا رومياته لما كان له فى سائر شعره ما يتميز فيه من الشعراء العاديين . ولولا أسره وشقاؤه لما جرى طبعه بهذه القصائد الرائعة ، فجاء بها ذوب العاطفة المتألمة ، وعصارة النفس الكليم ، فكتبت اسمه فى سفر الخلود ، ومهرت الأدب نوعاً طريفاً من الشعر الوجدانى . وقتل أبو فراس فى ثورة أهلية فى حلب عام ٩٦٧م.

١ - أراكَ عصيَّ الدمعِ شيمتُكَ الصبرُ
أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ؟

٢ - بلى، أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ
ولكنَّ مثلي لا يُذاعُ لهُ سرُّ!

٣ - إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوى
وأذللتُ دمعاً من خلائقِهِ الكِبْرُ

٤ - تكادُ تضيءُ النارُ بينَ جوانحي
إذا هي أذكتها الصبابةُ والفِكْرُ

اللغة

١ - عصيّ : ممتنع . شيمتك : خلقك وطبيعتك . أما : أليس

٢ - اللوعة : شدة الشوق وألمه الموجع . يذاع : ينتشر ويعرف

٣ - ضواني : خيم على . بسطت : مددت . أذللت : أخضعت

خلائقه : طبيعته وصفاته . الكبر : العزة والكبرياء .

٤ - جوانحي : ضلوعي . أذكتها : زادتها اشتعالاً .

الصبابة : شدة الحب . الفكر : الأفكار .

المعنى

يعتمد أبو فراس فى أول القصيدة على طريقة الحوار والتعبير عن تجربته . فهو يعقد حوار بينه وبين حبيبته فهى تتعجب من صبره وتجلده

وعدم تأثره بالهوى فلا يبكى مثل المحبين ولا يتألم مثلهم وكأن الحب ليس له أى سلطان عليه ، فيجيبها الشاعر بأنه فى غاية الشوق واللوعة ، لكنه من ذلك النوع الذى يستطيع أن يسيطر على مشاعره فلا يجعلها تظهر أمام الناس ولكنه عندما يخلو إلى نفسه فى الليل تتناوب عليه الأفكار والذكريات ويتذكر حبيبته وتسيل دموعه عساها تخفف من هذه النار المشتعلة فى قلبه ، والتى تكاد تضئ الليل حوله .

٥ - مُعَلِّلَتي بالوَصْلِ، والمَوتُ دونَهُ
إذا مِتُّ ظَمآنًا فلا نَزَلَ القَطْرُ!
٦ - وفَيْتُ، وفي بعضِ الوفاءِ مَذَلَّةٌ،
لإنسانةٍ في الحَيِّ شيمَتُها الغَدْرُ
٧ - وَقورٌ ورَيْعانُ الصِّبا يَسْتَفِزُّها،
فتَأْرَنُ، أحيانًا كما، أرِنَ المُهْرُ

اللغة

٥ - مُعَلِّلَتي : ممنيتى ، **الوصل** : الوصال واللقاء ، **دونه** : قبله .
ظمآنا : محروم من الحب ، **القطر** : المطر

٦ - **شيمتها** : خلقها وصفاتها وطباعها ، **الحيّ**: القبيلة ، **الغدر** : عدم الوفاء

٧ - **وقور** : رزينة عاقلة ، **ريعان الصبا** : نضارة الشباب ،
يستفزها : يثيرها ، **فتأرن** : تتنشط ، **المهر** : ولد الفرس

المعنى

يناجي الشاعر محبوبته قائلاً لها : كم منيت قلبى باللقاء ووعدته به وتخلفين وعدك لى ويشعر أنه سيموت قبل أن يتحقق ذلك فيدعو على كل المحبين بعدم السعادة فى الحب إذا مات قبل أن يسعد مع محبوبته ثم يشكو هذه الفتاة مؤكداً أنه أخلص لها وذاق مرارة الهوان على يدها لأنه كان وفياً لفاتنة أظهر صفاتها الغدر لمحبيها ، ولكنه لا يستطيع غير ان يوفى وأن يخلص رغم غدرها ، ويصفها بالهدوء والرزانة إلا أنها أحياناً يثيرها شبابها وجمالها فتصبح مثل مهر صغير السن غير مروض لديه حيوية ونشاط .

٨ـ تسائلني من أنت؟ وهي عليمة
وهل بفتىً مثلي على حاله نُكُرْ؟
٩ـ فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى
قتيلك! قالت :أيهم؟ فهم كُثُر
١٠ـ فقلت لها : لو شئتِ لم تتعنتي،
ولم تسألي عني وعندكِ بي خُبرْ!
١١ـ فقالت :لقد أزرى بك الدهر بعدنا
فقلت: معاذ الله بل أنت لا الدهر

١٢ـ وما كان للأحزان، لولاك، مسلك
إلى القلب، لكنّ الهوى للبلى جسر

اللغة

٨ - نكر: جهل
٩ - كثر: كثيرون
١٠ - تتعنتى: تتشددى ، خبر: علم ودراية
١١ - أزرى بك الدهر: استهان بك وغير شكلك .
معاذ الله: أعوذ بالله
١٢ - مسلك: طريق ، للبلى: الفناء والعجز والمصائب ، جسر: طريق

المعنى

ثم يوضح الشاعر مدى معاناته مع حبيبته فهى تسأله فى استنكار من أنت ؟ وهى أعلم به من سواها وتعرف مقدار حبه لها وما كان لعاشق قتله حبه أن يكون مجهولاً لديها ، إلا أنها تتظاهر بالتجاهل وتدعى أن عشاقها كثيرون فأى عاشقيها هو ؟ لتثير غيرته فيقول لها الشاعر يجب عليك ألا تتشددى فى هذا الأمر وأنت أعلم الناس بى فقالت له لقد غيرتك الأيام ولم استطيع التعرف عليك ، فيؤكد الشاعر أن الدهر والأيام أبرياء من هذا وإنما السبب فى عذابه هى حبيبته ولولا الحب والهوى ما عرف الحزن طريق إليه لأن الحب هو سبب البلاء والهلاك.

تحليل وتعليق

هذه القصيدة من أشهر قصائد الشعر العربى عامة وشعر أبى فراس خاصة . وقد بدأها الشاعر بمطلع رائع ينبئ عن نفسه : " أراك عصى الدمع شيمتك الصبر " ويتعجب الشاعر نفسه من ذلك ومن صبره على الأحداث . ومن إبائه وأنفته وعدم خضوعه لشئ . وكأنه يسأل نفسه : وهل أنت كذلك حتى أمام الحب .

" أما للهوى نهى عليك ولا أمر "

ويجيب الشاعر عن ذلك بقوله " بلى أنا مشتاق وعندى لوعة " ولكن من الملاحظ أن الشاعر لا يظهر خضوعه للحب والجمال . ولا يظهر أسرار حبه . " ولكن مثلى لا يذاع له سر " ولكن الأحداث التى كان يعيش فيها أبو فراس كانت أقوى من جلده وكبريائه وعزة نفسه . وكانت أضخم من احتماله .

إن هذه القصيدة تمتاز بموسيقى بديعة وعاطفة قوية وتجربة شعرية صادقة بتصويرها المؤثر للحدث الذى أهاج الشاعر وأشعل نيران شاعريته .

وتمتاز لغة الشاعر فى حسن اختيار الألفاظ . وجمال التعبير . ففيها الجزالة وشدة الأسر فى موضع الشدة وفيها الرقة والسهولة فى موضوع الحنو .

وجدير بنا أن ننصف أبا فراس فنقول : إنه جيد الشعر فى حماسياته مبدع فى رومياته . شاعر العاطفة فى كلتيهما وهو الشاعر الملك . والملك الفارس . والفارس الأسير .

ومن الملاحظ أنه إلى جانب اللغة العاطفية المشحونة بالانفعال التى تشيع فى القصيدة جواً من صدق المعاناة وحرارتها نجد الكثير من الصور البلاغية التى تهدف إلى غايات جمالية من هذه الصور الاستعارة المكنية فى قوله فى البيت الأول " عصى الدمع " و " للهوى نهى " .

وفى البيت الثالث فى قوله :

٣ - إذا الليلُ أضواني بَسطتُ يـدَ الهـوى

وأذللتُ دمعاً من خلائقهِ الكِبْرُ

فقد شبه الهوى بإنسان وحذف الشبه به وأتى بصفة من صفاته وهى " بسط اليد " مجسداً قدرة الهوى على الشاعر حينما يخلو بنفسه ليلاً فيأخذ من فكره كل ما أخذ ويملك عليه شعوره وأحاسيسه .

وقوله " أذللت دمعا " تصور الدمع إنساناً يذل " ومن خلائقه الكبر " امتداد للخيال يقويه . فقد جعل الدمع إنساناً ولديه كبرياء .

وفى البيت الرابع " أذكتها الصبابة والفكر

وفى البيت السابع " ريعان الصبا يستفزها "

وفى البيت التاسع " شاء لها الهوى "

وفى البيت الحادى عشر " أزرى بك الدهر بعدنا "

وفى البيت الثانى عشر " وما كان للأحزان لولاك مسلك "

ومنها كذلك الكناية فى قوله فى البيت الرابع " تكاد تضئ النار بين جوانحى " يريد بها الشاعر المبالغة فى وصف معاناته فى حبه فكنى عن هذه المعاناة بالنار إشارة إلى عذابه من معاملة حبيبته له .

وفى البيت الخامس " الموت دونه " كناية عن دوام الهجر واستمراره.

ومنها التشبيه فى البيت السابع فى قوله: " كما أرن المهر " فشبة حبيبته بالفرس الصغير الذى لم يروض بعد . فى حركاتها النشيطة وسرعة هذه الحركة التى لا يتحكم فيها أحد وفى التشبيه إيحاء بعنف الحبيبة فى معاملتها للشاعر .

وفى هذا البيت يصف الشاعر محبوبته بصفتين متناقضتين وهما أنها " وقور " و " ويستفزها شبابها" وفى هذا إظهار لطبيعة الأنثى المتغيرة .

ومنها أيضاً الطباق فى البيت الأول بين قوله " نهى ، أمر " وفى البيت الثالث بين قوله " أذللت ، الكبر " وفى البيت الخامس بين قوله "ظمآن ، القطر" .

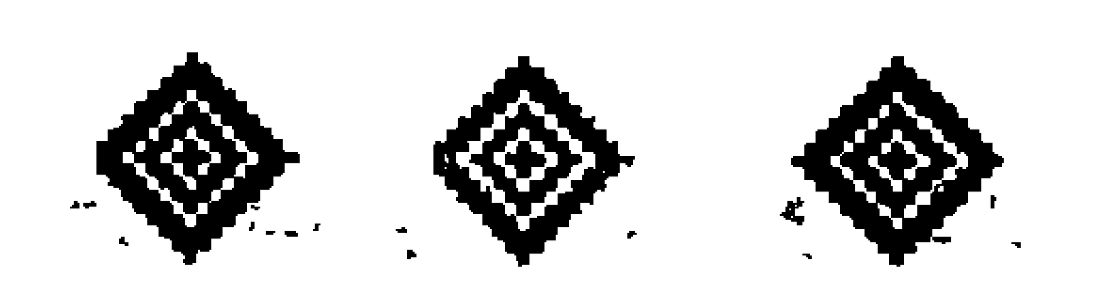
ويعاب على الشاعر هذا الأسلوب لأن فيه أنانية كبيرة بدعائه على جميع المحبين بعدم السعادة فى الحب لو لم يحصل على هذه السعادة .

وفى البيت السادس بين قوله " الوفاء ، الغدر"

وفى البيت السابع بين قوله "وقور ، يستفزها "

وفى البيت الثامن بين قوله "عليمة ، نكر"

والنص فى جملته يعكس معاناة الشاعر وأحاسيسه بالألم وصراعه مع الأيام من خلال هذا الحوار مع الحبيبة . وهو فى كلامه يكاد يصرح بضعف قدرة الإنسان أمام عوادى الزمن . وقد اتخذ من الحبيبة التى يحاورها رمز للذات فكأنه يحدث نفسه بسره والإفصاح عن همومه وأحزانه دون أن يحس بالخزى والمذلة . لأن الضعف أمام المحبوبة والتهالك فى حبها سمة من سمات الفروسية فى عصر الشاعر.



اختيار الصديق

لابن المقفع

"إجعل غاية تشبثك فى مؤاخاة من تؤاخى ومواصلة من تواصل توطين نفسك على أنه لاسبيل لك إلى قطيعة أخيك ، وإن ظهر لك منه ماتكره ، فإنه ليس كالمملوك تعتقه متى شئت أو كالمرأة التى تطلقها إذا شئت . ولكنه عرضك ومروءتك .

فإنما مروءة الرجل إخوانه وأخدانه . فإن عثر الناس على أنك قطعت رجلا من إخوانك ، وإن كنت معذرا ، نزل ذلك عند أكثرهم بمنزلة الخيانة للإخاء والملال فيه .

وإن أنت مع ذلك تصبرت على مقارته على غير الرضى عاد ذلك إلى العيب والنقيصة فالاتئاد الإتئاد والتثبت التثبت.

واذا نظرت فى حال من ترتئيه لإخائك فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيها غير مراء ولا حريص . وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرا ليس بجاهل ولا كذاب ولا مشنوع.

فإن الجاهل أهل أن يهرب منه أبواه . وإن الكذاب لايكون أخا صادقا. لأن الكذب الذى يجرى على لسانه إنما هو من فضول كذب قلبه . وإنما سمى الصديق من الصدق وقد يتهم صدق القلب وإن صدق اللسان.

فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان؟ وإن الشرير يكسبك العدو ولاحاجة لك في صداقة تجلب العداوة . وإن المشنوع شانع صاحبه.

واعلم أن انقباضك عن الناس يكسبك العداوة وأن انبساطك إليهم يكسبك صديق السوء. وسوء الأصدقاء أضر من بغض الأعداء . فإنك إن واصلت صديق السوء أعيتك جرائره ، وإن قطعته شانك اسم القطيعة ، وألزمك ذلك من يرفع عيبك ولاينشر عذرك فإن المعايب تنمى والمعاذير لا تنمى (١)

- الادب الكبير لابن المقفع دار الجبل ـ بيروت ص ٧٤ ، ٧٦

ترجمة للكاتب:

هو في مجوسيته روزبة بن دازويه المقفع ، وكنيته أبـو عمـرو . وفـي إسلامه عبد الله ، وكنيته أبو محمد . ولقب والده بالمقفع لأنه كان يتـولى خراج فارس ، فاختلس من مال الدولة ، فضربه أمير العراقيين على يده حتى تقفعت يده . (٢)

والمقفع فارسى الأصل نشأ نشأة عربية في الاهواز ، ولكنه لم يسلم بـل مات على مجوسيته . وكان له ولاء في آل الاهتم ، وهم أهـل فصـاحة وبيان . ولد ابنه روزبة حوالى سنة ١٠٦ هـ ونشأ في البصرة مجوسياً مستعرباً مثله. والبصرة يومئذ حلبة العرب ومجمـع الفقهـاء والـرواة المحدثين وأصحاب اللغة ، وفيها المربد ، منتـدى البلغـاء والخطبـاء والشعراء وهو الذى خلف عكاظ في الجاهلية ، فلما مات المقفع أخذ الولد يتكسب بصناعة والده، فاشتغل في دواوين العراق آخر زمن بني أميـة . إذ كتب لعمر بن هبيرة والى العراق لهشام بن عبد الملك ، وكتب لابنـه يزيد في ولايته العراق لمروان بن محمد . ولابنه الثاني داود في ولايتـه على كرمان بإيران وأفاد منهما أموالا كثيرة . ثم كتب في عصـر بنـي العباس لعيسى بن على عم الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي وعلـى يديه أعلن إسلامه ، ثم ألزمه أخوه اسماعيل بن على بعض بنيه ليؤدبـه

---

[٢] - تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول شوقي ضيف ص ٥٠٧

ثم كان آخر أمره فى خدمة أخيهما سليمان بن على أيام ولايته على البصرة ويظهر أنه اتصل فى أثناء ذلك بأبى جعفر المنصور اتصال معرفة لااتصال خدمة ، فترجم له كثيراً من الكتب الفارسية واليونانية المنقولة قديماً إلى الفارسية. وبقى فى خدمة أعمام الخليفة بقية عمره حتى قتل بالبصرة سنة ١٤٢ قتله سفيان بن معاوية والى البصرة بعد عزل سليمان لضغينته عليه ولاتهامه بالزندقة والكيد للإسلام بترجمة كتب الزنادقة إلى العربية . وكانت هذه التهمة مما جعل الخليفة يهمل تحقيق مقتله عندما شكا عماه عيسى وسليمان الوالى القاتل إليه، لا كما يقال من أن الخليفة أمر سفيان بن معاوية المهلبى واليه على البصرة بقتله انتقاماً منه لكتابته صورة أمان يؤخذ على الخليفة لأحد أعمامه الخارجين وتصادف أن كان سفيان يضغن عليه ، فانتهز فرصة قدومه إليه ذات مرة ، وأمر بتنور فملىء وقوداً حتى إذا حميت ناره أخذ يقطعه جزءاً جزءاً ويرمى بكل جزء فى التنور حتى أتى عليه . وقيل أنه ألقى فى بئر وردمت عليه الحجارة . وقيل : أدخل حماماً وأغلق عليه بابه فاختنق . وكيف كان الأمر فإن ابن المقفع دخل دار سفيان ولم يخرج منها .

أهم المؤثرات في حياته وأدبه:

أولاً : تربيته اللغوية الفصيحة وولاؤه فى ال الأهتم وهم من العرب الأقحاح أهل اللسن والبلاغة والفصاحة .

ثانياً : إتصاله بعبد الحميد الكاتب حيث تأثر بأسلوبه المترسل (الخالى من السجع)

ثالثاً: معاصرته لانهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية حيث عرف عوامل الفساد والقوة ، وخبر الناس

رابعاً : إلمامه بثقافات الأمم واطلاعه عليها ، فقد جمع ابن المقفع بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وقد نقل إلى العربية عن لغته خير ماعرف من هذه الثقافات ، وكان للثقافة الفارسية الحظ الأكبر ، فقد نقل عنها كتاباً فى تعاليم مزدك وكتاب "خداى نامه" وكذلك نقل كتاب "التاج" فى سيرة أنوشروان.

خامساً: يعتبر ابن المقفع لصيقا بالطبقة الحاكمة ولذلك كانت كتابته تعد من الأدب السياسى.

سادساً : صلته الشديدة بالفرس الذين كانوا وراء الحركة المناوئة ، وكان ذلك سببا فى مقتله ، كما كانت وراء كتاباته السياسية الحافلة بالانتقاد للمنصور .

مؤلفاته:

١. **الدرة اليتيمة** : ويشتمل على مبادىء فى السياسة وواجبات الحاكم كما احتوى قواعد تربوية وأخلاقية واجتماعية .

٢. **الأدب الصغير** : كتيب يحتوى عى كلام مأثور ، ويقال أنه وضعه بقصد الطعن على حضارة العرب وفكرهم ، وهذا الكلام يتناول طائفة من الوصايا الخلقية والاجتماعية والسياسية والمرأة وله موقف معاد من المرأة فهو يسىء الظن بها ، ويتهمها بضعف العقل ، وينصح بالتضييق عليها .

٣. **الأدب الكبير** : حاول فيه أن يؤلف ويبوب ، ويقسم الكتاب إلى قسمين : قسم يدور حول الأدب والحذر من صاحب السلطة والمشورة ، وتعود النفس الصبر ، وكيف يستقيم الأمر لذى السلطة ، ويرى كثير من الباحثين أن الهدف منه تمكين الفرس من السيطرة على الطرفين معا . أما القسم الثانى : فيدور حول الصديق وصفاته والصداقة وقواعدها .

٤. **رسالة الصحابة** : وهى أشبه ببيان سياسى يطالب الخليفة فيها بتطبيق آراء الكاتب وتبدأ بمقدمة عن أخلاق الخليفة وصفاته ، والهدف هو إثارة كوامن الغرور عنده ثم العمل على توجيهه ، وأول مايثير الريبة فى هذه الرسالة دعوته إلى الاهتمام بالجنود الفرس الذين يثنى عليهم الكاتب ثناءً عطراً ، ويثير شكوكه فى القادة العرب وعليهم، ويبدو فيها

الكاتب منذراً لا ناصحاً ويهاجم ابن المقفع أهل الشام ويتهمهم بالغدر واللؤم ويلوم حاشية الخليفة وكلهم من العرب حيث يتهمهم بسوء الخلق والضعف والفجور.

وهذه الرسالة تميط اللثام عن توجيهات ابن المقفع الساسية.

٥. **كليلة ودمنة** : مجموعة قصص وضعت على ألسنة الحيوانات وكليلة ودمنة إحدى القصص التى أبطالها من الحيوانات والكاتب يشرح الغرض من هذا الكتاب الذى يقع فى خمسة عشر باباً ، وقد وضع الفيلسوف الهندى (بيدبا) هذا الكتاب ، ولاتخرج الأفكار الرئيسة فى الكتاب عن أفكار بن المقفع فى كتبه الأخرى ، حدد الغرض من الكتاب استمالة قلوب الهازلين من الشباب ، وليؤنس قلوب الملوك ثم الفلاسفة الذين يبغون التعمق فى أفكاره .

خصائص أسلوب بن المقفع :

١. كان أمةً فى البلاغة ورصانة القول وشرف المعانى إلى بيان غرض وسهولة لفظ ورشاقة أسلوب، ولاتوصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة حيث يقول : " البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها (٣)".

(٣) - أدباء العرب فى الأعصر العباسية بطرس البستانى ج ٢ ص ١٥٦

٢.كان يرى أن التتبع لغريب الكلام طمعاً فى نيل البلاغة هو العى الأكبر ، وينصح للكتاب باتباع ما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة . وقد ذاعت طريقة ابن المقفع وعبد الحميد فى توخى السهولة وسلامة التعبير مع العناية بإجادة المعنى ، بين الكتّاب من أهل زمانهما ومن بعدهما ، وإنما صعبت عبارة ابن المقفع فى الأدبين الصغير والكبير ونحوهما لأنه ساقهما مساق الفلسفة .

٣.لايحفل بتسجيع الألفاظ وتزويقها ولايقصد إليه البتة إلا ما جاء عفواً ، وقضت به الفصاحة فى أثناء الكلام. ولم يؤثر أصله الفارسى فى صحة طبعه، مع أن الفرس أهل حضارة قديمة تميل بهم إلى الزخرف والتزين . وسبب ذلك أنه نشأ زمن بنى أمية نشأة عربية خالصة ، بعيدة عن التصنع والتكلف ، نازعة إلى البداوة والفطرة . ثم أن الفرس لم يكن لهم فى أيامه الأثر البليغ الذى صار لهم فيما بعد. فانطبع إنشاؤه على بلاغة العرب وفطرتهم ، وخلص من تمويه الحضارة الجديدة وتزويقها ، فجاء متنوع العبارة يجرى مع الطبع.

٤.يتتبع المعانى ويستقصيها ، فهو يفصل ويشرح ويتتبع الفكرة حتى يحيط بأطرافها.

٥.يميل ابن المقفع إلى الإيجاز والاقتصاد الشديد فالألفاظ بقدر المعانى لاتنقص ولاتزيد.

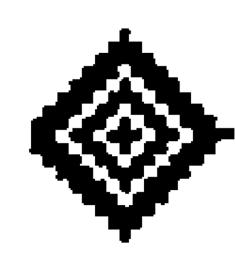
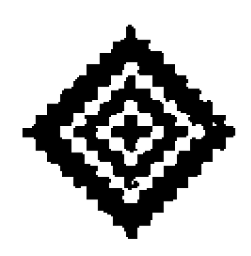
٦.يكثر فى أسلوب ابن المقفع التقسيم.

٧.على الرغم من زندقته كان يبهره جمال القــرآن الكــريم وصـــياغاته فاستعار من ألفاظه وأساليبه كثيرا فى جوانـــب كتاباتـــه حتـــى فـــى القصص الحيوانى قصص "كليلة ودمنة".

٨. يهتم بالقياس المنطقى (قياس الأشباه على النظائر) والإســتنتاج كمـــا يهتم بالجدل والحوار فى (كليلة ودمنة) يقوم على أساس جدلى .

٩.تبدو فى بعض كتاباته مسحة من الغموض والاضطراب.

١٠. كان أول كاتب عربى جعل الكلام على ألسنة الحيوان، وجعل تأديب الملوك بالحكايات والاشارات والأمثال.



"إجعل غاية تشبثك فى مؤاخاة من تؤاخى ومواصلة من تواصل توطين نفسك على أنه لاسبيل لك إلى قطيعة أخيك ، وإن ظهر لك منه ماتكره ، فإنه ليس كالمملوك تعتقه متى شئت أو كالمرأة التى تطلقها إذا شئت ، ولكنه عرضك ومروءتك .فإنما مروءة الرجل إخوانه وأخدانه"

اللغة

غاية : منتهى ، **تشبثك** : تمسكك **مؤاخاة** : صداقة ، **تؤاخى** : تتخذه صديقاً وأخاً ، **توطين** : حمل وجعل وتعويد ، **سبيل** : طريق ، **قطيعة** : ترك وهجران ، **المملوك** : العبد ، **تعتقه** : تحرره ، **عرضك** : شرفك ، **مروءتك** : إنسانيتك ومحاسن أخلاقك . **أخدانه** : الواحد خدن :الصاحب والصديق.

المعنى

فى هذه الفقرة يوصى ابن المقفع المرء بصديقه ويوضح أهمية الصداقة وحقوق الصديق حتى وإن أساء إلى صديقه ، مؤكداً أن من استحق لقب "صديق" فقد صار له واجب المؤاخاة والمواصلة ، لذلك ينبغى على الإنسان أن يعتبر علاقته بصديقه أبدية ليس من السهل التخلص منها لأن الصديق ليس عبدا تستطيع التخلص منه بأن تعتقه وليس كالزوجة التى

يطلقها الزوج بكلمة ولكن الصديق جزء من شرف الإنسان و إنسانيته ولذلك تتجلى مروءة الرجل فى معاملته لأصدقائه و أصحابه.

"فإن عثر الناس على أنك قطعت رجلا من إخوانك ، وإن كنت معذرا ، نزل ذلك عند أكثرهم بمنزلة الخيانة للإخاء والملال فيه .

وإن أنت مع ذلك تصبرت على مقارته على غير الرضى عاد ذلك إلى العيب والنقيصة فالاتئاد الإتئاد والتثبت التثبت"

اللغة

عثر الناس: عرفوا واطلعوا ، معذرا : أعذر الرجل : بلغ أقصى الغاية من العذر ، نزل ذلك: اعتبروه وعدوه، بمنزلة: مكانة ودرجة . الملال: الملل والسأم، تصبرت: حملت نفسك على الصبر ، مقارنه: البقاء معه والاطمئنان إليه ، النقيصة: العيب.. الاتئاد: التأنى والتمهل والتريث، التثبت: التأنى فى الأمر والفحص عنه والمشاورة فيه

المعنى

يستمر الكاتب فى توضيح أهمية الصداقة فيقول : إذا عرف الناس أن صديقا قطع صديقه اعتبروه عيبا فى خلقه وفى مروءته حتى ولو كان

صاحب عذر فى قطيعته له، فالناس تعتبر القطيعة بين الأصدقاء بمثابة الخيانة لعهود المودة والإخاء لامبرر لها ولاعذر لفعلها ، وإن تحمل الإنسان صديقه على كره دل ذلك على أنه لم يحسن اختياره من البداية . لذلك لابد للإنسان أن يتوخى الحذر قبل اختيار الأصدقاء ، ولهذا فعلى الإنسان أن يتأنى ويتمهل ، ويتحمل تبعات الصداقات مهما تعظم.

"وإذا نظرت فى حال من ترتئيه لإخائك ، فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيها غير مراء ولا حريص ، وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرا ليس بجاهل ولا كذاب ولا مشنوع"

اللغة

ترتئيه: تراه وتختاره ، **مراء** : اسم الفاعل من راءى منافق ، **فقيها** : عالماً ، **حريص**: بخيل ، **حرا** : كريم الصفات ، **جاهل** : أحمق ، **المشنوع**: المشهور بالقبح.

المعنى

ينتقل ابن المقفع من هذه الحقوق الكبيرة للصديق إلى اختياره ، فمادام له كل هذه الحقوق فمن الواجب أن يكون أهلاً لها وعارفا بها ، فإذا أراد الإنسان أن يختار من إخوان الدين صديقاً فليكن عالما بأموره فقيها

بمسائله وليكن غير منافق ، يظهر بخلاف مايبطن وغير حريص يميل إلى البخل بعلمه على صديقه ، وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حراً غير جاهل أو كذاب ، أو مشتهراً بين الناس بالقبح والفساد (فالمرء على دين خليله فلينظر المرء من يخالل) فإن كل هذه معايب لاتصلح معها صداقة.

"فإن الجاهل أهل أن يهرب منه أبواه ، وإن الكذاب لايكون أخا صادقا . لأن الكذب الذى يجرى على لسانه إنما هو من فضول كذب قلبه ، وإنما سمى الصديق من الصدق . وقد يتهم صدق القلب وإن صدق اللسان. فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان؟ وإن الشرير يكسبك العدو ولاحاجة لك فى صداقة تجلب العداوة . وإن المشنوع شانع صاحبه."

اللغة

أهل : جدير ومستحق، **فضول** : زيادة ، **يتهم** : يشك فيه ، **يكسبك** : يجلب لك ، **شانع** : فاضح .

المعنى

ثم يوضح الكاتب الصفات التى استبعدها فى الأصدقاء المخلصين وهى الجهل لأن الجاهل يهرب منه أقرب الناس إليه (والديه) لأنه عيب كبير .

والكذب آفة الصديق والصداقة ، وذلك لأن الكذب الذى يظهر من خلال اللسان إنما هو زيادة من كذب قلبه .

ونحن نتهم رجلاً بأنه غير صادق القلب حتى وإن كان صادق اللسان فما الحل إذا كان كاذب اللسان ، إنه بالطبع سيكون كاذب القلب، والشرير يجلب لك العداوة، فلاحاجة لصداقة الشرير التى تجعلنا نعادى الناس.

المشهور بالفساد سيفضح صاحبه لأن الناس ستعتقد أنه على شاكلة صاحبه.

"واعلم أن انقباضك عن الناس يكسبك العداوة وأن انبساطك إليهم يكسبك صديق السوء. وسوء الأصدقاء أضر من بغض الأعداء . فإنك إن واصلت صديق السوء أعيتك جرائره ، وإن قطعته شانك اسم القطيعة . وألزمك ذلك من يرفع عيبك ولاينشر عذرك فإن المعايب تنمى والمعاذير لا تنمى"

اللغة

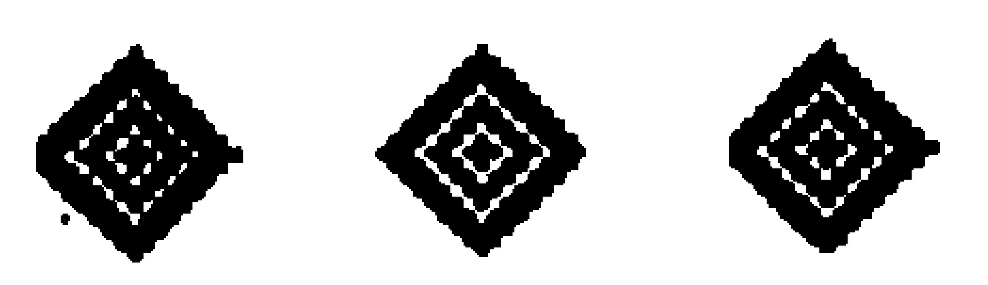
إنقباضك : عزلتك وانطوائك ، **انبساطك** : انتشارك واختلاطك. **أعيتك** : أتعبتك وأعجزتك ، **جرائره** :مصائبه وجناياته الواحدة جريرة ، **شانك** : عابك ، **ألزمك** : أوجب عليك .

يرفع عيبك : ينشره ، المعايب : العيوب ، تنمى : تذيع وتنتشر ، المعاذير : الأعذار

المعنى

ثم يقدم الكاتب أفضل طريقة للتعامل مع الآخرين فيؤكد أن الإنسان يجب أن يكون معتدلاً فى علاقته بالآخرين فلايكون انطوائياً فيظن الناس ذلك تكبراً عليهم ولايكون مختلطاً بهم بلاضابط، فقد يصادق بعض أصدقاء السوء وبالتالى سيجلبون له الأعداء والمصائب التى تعجزه عن احتمالها وإن قاطع المرء هذا الصديق السيء اتهمه الناس بالخيانة للصداقة وعدم الوفاء.

وبذلك يعتبروه مخطئاً ويعيبون عليه ذلك حتى وإن كان على حق لأن العيوب تنتشر أما الأعذار فلايعرفها أحد .



تحليل وتعليق

هذا النص من الأدب الاجتماعى الذى يناقش قضية إجتماعية وهى اختيار الصديق . وكما نرى أن أدب ابن المقفع يعكس أخلاقه وصفاته فقد كان كريماً حسن الأخلاق . يحب الناس ويقدر الأصدقاء . فاهتم بالإصلاح وحل المشكلات ودعا إلى الوفاء من خلال أسلوب سهل وأفكار مرتبة

خصائص أسلوب ابن المقفع من خلال هذا النص

١ - أسلوبه خطابى تعليمى كله أمر ونهى . وهو يتخذ سنة النصح والإرشاد فى غير تمثيل ولا تطويل . وهو أسلوب المعلم الخبير الحكيم ، وأسلوب فلاسفة الأخلاق المجربين الذين يعالجون مشكلات الشر فى خبرة وبصيرة .

٢ - لا يحفل كثيراً بالسجع إلا ما جاء عفو الخاطر وقضت به الفصاحة فى أثناء الكلام .

٣ - كان يتحاشى الأغراب فى اللفظ والتورية وتمتاز ألفاظه بحسن الاختيار والحلاوة والرصانة وهو يحرص على اختيار اللفظ اختياراً دقيقاً لكى يؤدى المعنى الذى يريده بدقة ووضوح بعيداً عن التشويش والإبهام كما كان بعيداً عن التعمل والتصنع والتكلف .

٤ - يستخدم القياس والمنطق والذى يدعو إلى ذلك اهتمامه بالمعنى فيستخدم الأسلوب المنطقى ويقسم موضوعه إلى فقرات تنقسم

إلى جمل ذات فواصل يمكن الوقوف عندها ويظهر هذا واضحاً فى اتساق افكاره وترابط جمله وغوصه على المعانى الدقيقة .

٥ - يجمع أفكاره جمعاً كأنما هى خطرات تنقل من غير عناية زائدة ولا ترتيب نهائى . وكأنما هى أفكار لكلام كان يجول فى خاطره .

٦ - لا يعتمد الصناعة اللفظية والمحسنات البديعية . والوجوه البيانية . ولا يأخذ منها إلا عندما تدعو الضرورة إلى ذلك .

٧ - يحمله اهتمامه بالمعنى فى بعض الأحيان على إطالة الجملة بهدوء فهى تمتد من غير تقلب ولا تلون وقد تدفعه هذه الإطالة أحياناً إلى تداخل الجمل بعضها ببعض إلى حد يستحيل معها تقسيمها إلى عبارات قصيرة .

٨ - يعتمد ابن المقفع على التشبيهات التوضيحية التى تهدف إلى توضيح الفكرة لا إثارة الانفعال مثل قوله " فإنه ليس كالمملوك تعتقه متى شئت أو كالمرأة تطلقها إذا شئت " . فمثل هذه التشبيهات تأتى كالمصابيح الكاشفة تضئ الفكرة .

أثر ابن المقفع في النثر العربي

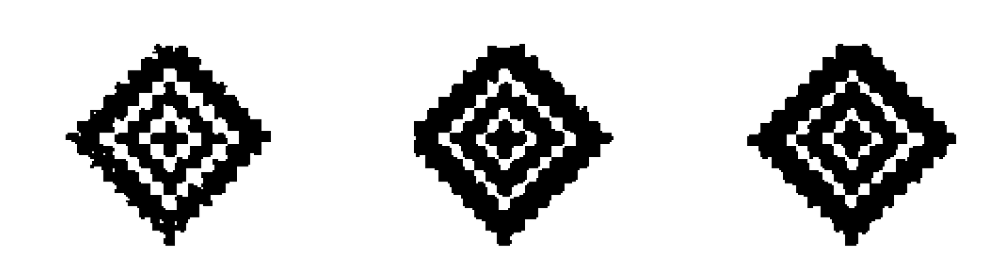
١ - كان لكتابات ابن المقفع أثر واسع فى تفكير الأدباء والشعراء . وفى توجيه التأليف عند العرب . وقد عنى الشعراء والكتاب عناية بالغة بكتب ابن القفع كما فعل أبان بن عبد الحميد اللاحقى إذ نظم كتاب كليلة ودمنة فى أربعة عشر ألف بيتاً من الشعر .

واغترفوا من حكمها وآرائها كما نرى فى شعر المتنبى وأبى علاء المعرى وغيرهم .

٢ - عرف الكتاب من ابن المقفع طريقة الترجمة ودخل النثر على يديه إلى هذا العقل بعد دخوله ديوان الرسائل وهكذا لانت قناة النثر لشتى الموضوعات وصار مركباً من مراكب التأليف والتصنيف .. كما عرفوا منه ضرورة الأخذ بثقافات مختلفة وتوسيع نطاق المعارف والوقوف على ما للأمم الأخرى من علوم وآداب .

٣ - استناروا بابن المقفع فى طريقة التحليل والجدل والكتابة الفنية الراقية وراحوا يقتنون آثاره فى الجمع لأقوال الحكماء والعلماء وغيرهم .

٤ - فتح ابن المقفع باب القصص على ألسنة الحيوانات وفصله تفصيلاً لم يكن معهوداً لدى العرب . فأخذ الكتاب يحذون حذوه فى تأليف ما يماثل كليلة ودمنة فوضع سهل بن هارون " نغلة وعفرة " وابن الهبارية " الصادح والباغم " وابن عرب شاه " فاكهة القدماء ومناظرة الظرفاء " .



نموذج من رسالة الجاحظ

فى الحاسد والمحسود

"الحسد – ابقاك الله – داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود . علاجه عسر، وصاحبه ضجر، وهو باب غامض، وأمر متعذر، وما ظهر منه فلايداوى ومابطن منه فمداويه فى عناء، ولذلك قال النبى – ﷺ – "دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء" . وقال بعض الناس لجلسائه : " أى الناس أقل غفلة" : فقال بعضهم "صاحب ليل ، إنما همه أن يصبح" فقال " إنه لكذا ، وليس كذلك" فقالوا : فأخبرنا بأقل الناس غفلة ". فقال : "الحاسد ، إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التى أعطاكها ، فلايغفل أبدا".

ويروى عن الحسن أنه قال : "الحسد أسرع فى الدين من النار فى الحطب اليابس . ومأأتى المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمته عليه" قال عز وجل :"أم يحسدون الناس على ماأتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما" والحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل، وضد الحق . وحرب البيان . فقد ذم الله أهل الكتاب به . فقال :"ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم".

فمنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم من الأقرباء ، ومحدث التفرق

بين القرناء ، وملقح الشر بين الحلفاء ، يكمن فى الصدر كمون النار فى الحجر.

ولو لم يدخل على الحاسد - بعد تراكم الغموم على قلبه ، واستكمان الحزن فى جوفه، وكثر مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنغص عمره ، وكدر نفسه ونكد عيشه - إلا استصغاره نعمة الله عنده، وسخطه على سيده بما أفاد غيره ، وتمنيه عليه أن يرجع فى هبته إياه، وألا يرزق أحدا سواه - لكان عند ذوى العقول مرحوما ، وكان لديهم فى القياس مظلوما . وقد قال بعض الأعراب : "مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد : نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم . والحاسد مخذول وموزور ، والمحسود محبوب ومقصور . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور.

والحسد - رحمك الله - أول خطيئة ظهرت فى السموات وأول معصية حدثت فى الأرض . خص به أفضل الملائكة فعصى ربه ، وقايسه فى خلقه ، واستكبر عليه فقال : " خلقتنى من نار وخلقته من طين".

فلعنه وجعله إبليسا ، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيسا ، وشوه خلقه تشويها ، وموه على قلبه تمويها ، نسى به عزم ربه فواقع الخطيئة ، فارتدع المحسود ، فتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد فى حسده فشقى وغوى.

وأما فى الأرض فابنا آدم حسد أحدهما أخاه فعصى ربه وأثكل أباه . وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فاصبح من الخاسرين . فقد حمله الحسد إلى غاية القسوة ، وبلغ به أقصى حدود العقوق . إذ ألقى الحجر عليه شادخا فأصبح عليه نادما صارخا.

ومن شأن الحاسد - إذا كان المحسود غنيا - أن يونجه على المال ، فيقول : " جمعه حراما ، ومنعه أيتاما ، وألب عليه محاويج أقاربه ، فتركهم له خصماء ، وأعانهم فى الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر ، فقال : "لقد كفروا معروفك ، وأظهروا فى الناس ذمك ، ليس أمثالهم يوصلون ، فإنهم لايشكرون ، وإن وجد له خصما أعانه عليه ظلما . وإن كان ممن يعاشره فاستثاره غشه . أو تفضل عليه بمعروف كفره ، أو دعاه إلى نصره خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، وإن سئل عنه همزه . وإن كان عنده شهادة كتمها . وإن كانت منه إليه زلة عظمها . وقال إنه يحب أن يعاد ولايعود ، ويرى عليه القعود .

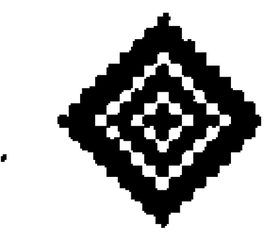
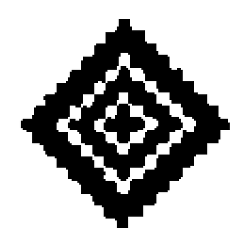
وان كان المحسود عالما قال : "مبتدع لرأيه متبع ، حاطب ليل ، ومبتغى نيل ، لايدرى ماحمل ، قد ترك العمل فأقبل على الحيل .

وإن كان المحسود ذا دين قال : متصنع يغزو ليوصى إليه ، ويحج ليثنى عليه . ويصوم لتقبل شهادته . ويظهر النسك ليودع المال بيته . ويقرا فى المسجد ليزوجه جاره ابنته . ويحضر الجنائز لتعرف شهرته . ومالقيت حاسدا قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتحويض عينه . وإخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك . والإعراض عنك ، والإستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك .

وكان عبد الله بن أبى قبل نفاقه نسيج وحده . لجودة رأيه . وبعد همته ونبل شيمته ، وانقياد العشيرة له بالسيادة ، وإذعانهم له بالرياسة .

وماستجوب ذلك إلا بعد ماستجمع له لبه ، وتبين لهم عقله ، وفقد بينهم جهله ، ورأوه لذلك أهلا لما أطلق له حملا.

فما بعث الله نبيه – ﷺ – وقدم المدينة ، ورأى "عبد الله" عز رسول الله ، شمخ بأنفه ، فهدم إسلامه لحسده ، وأظهر نفاقه . وماصار منافقا حتى صار حسودا ، ولاصار حسودا حتى صار حقودا ، فحمق بعد اللب ، وجهل بعد العقل ، وتبوأ النار بعد الجنة . ولقد خطب النبي ﷺ بالمدينة فشكاه إلى الأنصار ، فقالوا : "يارسول الله لاتلمه ، فإنا كنا قد عقدنا له الخرز قبل قدومك لنتوجه ".


ترجمة للكاتب :

هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه ، وربما قيل له الحدقى لكبر حدقتيه .

ولد بالبصرة سنة ١٥٩ هـ ، ونشأ بها فلما ترعرع طلب العلم في الكتب وخالط المسجديين من أهل العلم والأدب ، فأخذ عنهم وكان يكتري حوانيت الوراقين ويبيت فيها للمطالعة الأمر الذى أدى إلى أن تكون ثقافته موسوعية فانعكس ذلك فى كتاباته وكتبه حيث كانت أشبه بدوائر المعارف ، وكان يختلف إلى المربد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة وبعض ماينشدونه من الأشعار ، وكان المربد سوقاً تجارية وأدبية كبيرة منذ العصر الأموى ، وفى أخباره أنه نشأ نشأة متواضعة إذ تروى كتب الأدب أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان أحد نهيرات البصرة ، ولعله أخذ من هذه التجارة ماأغناه بعض الشيء . ويروى أن أمه ضاقت بتشاغله فى الدرس والقراءة فطلب منها يوما طعاما ، فجاءته بطبق عليه كراريس أودعها البيت ، وقالت له ليس عندى من طعام سوى هذه الكراريس ، تريد أن تنبهه إلى التكسب فمضى إلى الجامع مغتما ، فلقيه أحد زملائه الأثرياء موسى بن عمران فعرف مابه واصطحبه إلى

البيت وأعطاه خمسين ديناراً فأخذه فرحاً ، واشترى لأمه الدقيق وسألته أمه من أين لك هذا ؟ فقال لها من الكراريس التى قدمتها إلى [1] .

ولم تقف ساحات تثقفه عند المسجد والمربد وماكان يأخذه عن جلة العلماء فى عصره ، وهو من أغنى العصور بالأعلام فى مختلف ميادين العلم ، وذلك كالأصمعى وأبى زيد الأخفشى وأبى عبيدة أصحاب اللغة ، والأخبار ولا عند أبى الهذيل العلاف وبشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس والنظام من المعتزلة ، ولاعند كبار الفقهاء والمحدثين فى عصره ، بل امتدت إلى كل فروع الثقافة عن طريق المكتبات ، وكان الكتاب بمجرد أن يؤلف أو يترجم فى البصرة أو فى بغداد تتكاثر نسخه فى أيدى الوراقين أصحاب المكتبات ودكاكين الكتب . ومعروف أن البصرة كانت دار الترجمة قبل نشؤ بغداد .

وكان من أهم ماشغف به الجاحظ الاعتزال ، وقد مضى يلزم أساتذته فى عصره كأبى الهذيل العلاف والنظام وبشر بن المعتمر وغيرهم ، وكان المعتزلة يعرفون بالجدل والحوار وسعة الثقافة واتصالهم بجميع ألوان المعرفة ، وبالفصاحة والبلاغة ، وكانوا يعنون بحفظ الشعر عناية خاصة ،

---

[1] - العصر العباسى الثانى شوقى ضيف ص ٥٨٧ وكذا أدباء العرب فى الأعصر العباسية حياتهم – آثارهم – نقد آثارهم بطرس البستانى ص ٢٦٠

ولهذا كان الجاحظ وريثاً شرعياً لثمرات عقولهم في البلاغة والثقافة بعامة . وكثر استشهاده بالشعر .

وبدأت نباهة الجاحظ في خلافة المأمون ، ووصلت كتبه إلى الخليفة فأعجب بها واستقدمه إليه ، وصدره ديوان الرسائل ، فاستعفى بعد ثلاثة أيام ، فأعفى عاد بعدها إلى صناعته من التأليف والكتابة الأدبية ، وربما كان قبحه الذي عرف به هو السبب الحقيقي في أنه وجد وظيفة ديوان الرسائل لاتلائمه فقد كان مشوه الوجه جهماً ، ناتيء العينين، قصير القامة لاتتفتح العين على أبشع منه منظراً .

ثم رحل إلى بغداد وطاب له المقام فيها وأخذ يتعرف على بيئاتها الأدبية والعلمية في النوادي والمساجد وحلقات الدرس والمناظرة . وتتحول الخلافة إلى سامراء في عهد المعتصم ، ويتحول معها الجاحظ . ويتخذ بسامراء دار مقام له وتتوثق الصلة بينه وبين وزير المعتصم بن الزيات الكاتب الشاعر المشهور وأقام معه يكتب له ويمدحه . وكان بين ابن الزيات والقاضي أحمد بن أبي دؤاد من الشنآن ماجعل الجاحظ ينحرف إلى صديقه الوزير . ويتنكر لابن أبي دؤاد . فلما استخلف المتوكل ، وفتك بابن الزيات ، خاف الجاحظ على نفسه لأن المتوكل كان يكره

أصحاب الإعتزال وأبو عثمان منهم ، فهرب واختفى عن الناس . فجد القاضى فى طلبه حتى قبض عليه . وجىء به مغلول العنق بسلسلة ، مقيد الرجلين ، فلما وقع نظر القاضى عليه قال : "والله ماعلمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدناً للمساوىء . وماقصرت باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لاتصلح منك لفساد طويتك ، ورداءة دخلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك."

فقال له الجاحظ : "خفض عليك ، أيدك الله ! فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك . ولأن أسىء وتحسن أحسن فى الأحدوثة عنك من أن أحسن فتسىء . ولأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجمل بك من الإنتقام منى ." فقال له ابن أبى دؤاد : " قبحك الله ! ماعلمتك إلا كثير تزويق الكلام ".

وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ." ثم قال : "جيئوا بحداد." فقال : "أعز الله القاضى ! ليفك عنى أو ليزيدنى ؟" فقال : " بل ليفك عنك" فجىء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلاً ، ففعل . فلطمه الجاحظ وقال : " اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة . فإن

الضرر على ساقى وليس بجذعٍ ولاساجة[1]" فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه . وقال القاضى : "أنا أثق بظرفه ولاأثق بدينه" ثم قال : "ياغلام صر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى ، وأحمل إليه تخت ثياب [2] وطويلة [3] وخفاً" فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر فى مجلسه . ثم أقبل عليه القاضى وقال : "هات الآن حديثك ياأبا عثمان[4] " .

وانقطع الجاحظ إلى ابن أبى دؤاد سنة كاملة . ومن الملاحظ أن الجاحظ حين يهدى الوزراء والقواد وكبار الكتاب بعض كتبه يهدونه بعض أموالهم ، فقد أهداه ابن الزيات خمسة آلاف دينار على كتابه الحيوان حين قدمه إليه ، وبالمثل صنع ابن أبى دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين وابراهيم بن العباس الصولى حين أهدى إليه كتاب الزرع والنخيل . وكان قليل من المال يسد حاجته ، إذ لم يتزوج ولم يرزق الأولاد إنما هو وجاريتان ، وهذا كل ماهناك .

كما اتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وقدم له كتبه ، منها كتاب فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، وكانت بينهما مودة

---

1 - الساجة : شجرة هندية عظيمة ، وتطلق على قطعة الخشب

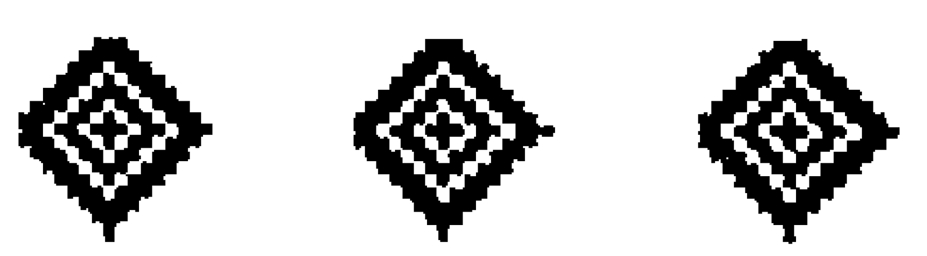
2 - تخت : وعاء تصان فيه الثياب

3 - طويلة : أى قلنسوة طويلة ، والقلانس الطوال كانت من زى العصر العباسي

4 - معجم الأدباء ياقوت الحموى ج ١٦ ص ٧٩

ومراسلات ولطالما أثنى الفتح على الجاحظ عند المتوكل وأخذ له الجوائز والمشاهرات ولكن دمامة أبى عثمان حالت بينه وبين الخليفة ، فلم يقرب مكانه . حدث الجاحظ عن نفسه قال : "ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآنى استبشع منظرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى " .

ولعل من الواضح أن مرض الفالج " الشلل " ألم بالجاحظ مبكرا ولكنه لم يقعده عن الحركة ولا عن الكتابة ، فقد ألف كتاب الحيوان الذى قدمه لابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ للهجرة وهو مفلوج ، وبالمثل البيان والتبيين والزرع والنخيل وكثير من رسائله الأدبية . وأصابه النقرس وطال به العمر ، وحين اشتد به المرض عاد إلى البصرة وأمضى بها بقية حياته . ويقول المبرد :"دخلت علي الجاحظ فى آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ماشعر به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه [١] " وتوفى سنة ٢٥٥ هـ .



---

[١] - معجم الأدباء لياقوت الحموى ج ١٦ ص ١١٣

مؤلفاته :

خلف الجاحظ مؤلفات كثيرة جعلها بعضهم ثلاثمائة وستين كتاباً وهى دون ذلك عند بعضهم لأنه إضيف إلى الجاحظ كتب ليست له . وذكرت كتب تكراراً بأسماء مختلفة . على أنه مهما يكن من شىء فإن مؤلفات الجاحظ فى غاية الخصب . ونظرة إلى ماأثبت منها فى مقدمة الحيوان ، ومعجم الأدباء ، تطلعنا على طائفة جليلة ، تربى على المائة بين مؤلف كبير ورسالة صغيرة . وفيها عالج مختلف الأغراض والموضوعات فكتب فى الأدب والشعر والديانات والعقائد والإمامة والنبوة والمذاهب الفلسفية . وبحث السياسة والإقتصاد وتحصين الأموال ، وغش الصناعات ، والأخلاق ، وطبائع الأشياء ، وحيل اللصوص وحيل المكدين وذوى العاهات كالحول والعور والعرجان والبرصان وتكلم على العصبية وتأثير البيئة فكتب فى القحطانية والعدنانية والصرحاء والهجناء ، والسودان والحمران ، والرجال والنساء وفى أى موضع يغلبن ويفضلن ، وفى أى موضع يكن المغلوبات والمفضولات :

ونظر فى العلوم التاريخية والجغرافية والطبيعة والرياضية فكتب فى المدن والأمصار والمعادن وجواهر الأرض ، والكمياء والحيوان والنبات والطب والفلك والموسيقى والغناء ، والقيان والمغنين .

وكتب فى الجوارى والغلمان والعشق والنساء والنرد والشطرنج وغير ذلك مما يتناول الحياة الاجتماعية والأدبية والعلمية فى عصره وقبل عصره .

وكان فى أول أمره ينحل كتبه البلغاء المشهورين كعبد الله ابن المقفع والخليل والعتابى وسلم صاحب بيت الحكمة وسهل بن هارون ، فيقبل عليها الناس ويتسارعون إلى نسخها لا لشىء إلا لأنها منسوبة إلى كتاب معروفين . وربما كتب أفضل منه ونسبها إلى نفسه فلم يجد عليه إقبالاً . ومازال هذا دأبه حتى بعد صيته فأصبح لايضع رسالة إلا تلقفتها الأيدى وتناسختها ، وطارت فى الأمصار فحفظوها واستظهروها وربما أرسلوا المنادين إلى مكة فى مواسم الحج يسألون الحجيج عن كتاب له طلبوه ولم يجدوه .

ولما مات راح بعض الكتاب المغمورين يضيفون إليه كتبهم لتشتهر ، كما فعل هو فى أول عهده بالكتابة ، فنحلوه كتباً كثيرة ليس له يد فيها ، ولاهى من نفسه وأسلوبه .

وروى للجاحظ شعر فى المدح والهجاء وغير ذلك ، ولكن شعره لايعتد به لأن أبا عثمان خلق كاتباً لا شاعراً . ومنزلته قائمة على طرائف مصنفاته، وبلاغة انشائه .

ولعل أهم مابقى من مؤلفات الجاحظ وتناقلته الأجيال " البيان والتبيين" و "الحيوان" و "البخلاء" و "مجموعة رسائل" تتناول موضوعات مختلفة وألوان شتى فى السياسة والاجتماع .

١- وهو فى "البيان والتبيين " يعرض موضوعات متعددة يتنقل بينها دون سابق إنذار ، فمن الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة إلى المختارات من الكتب الدينية والملح والطرف وأبيات الشعر والقصص الطريفة ، وما إلى ذلك مما ينشط ذهن القارىء . ويبدأ الكتاب بالتعوذ من الحصر والعى ، ويورد شعرا ونثرا وحكما فى ذمهما ، ثم ينتهى إلى البلاغة ورأى العرب والأعاجم فيها ، ويذكر الأسس التى تقوم عليها ، ويرد على خصومه ويبطل حججهم ، وينصح من يزعم لنفسه الشعر أو

الأدب فيقول إن كليهما فطرة وموهبة ، وهو من القائلين بتهذيب الشعر وتنقيحه ، وعدم الإطالة والتكرار وخصوصاً فى الهجاء ، ثم ينتهى إلى ذكر المعلمين ، وكيف يصاب معلمو الأطفال بالحمق ، ينتصر للمعلم المهضوم الحق فى المجتمع ، ثم يعود ثانية إلى اللفظ ووضوحه ، وضرورة الإبتعاد عن غريبه ، وينصح بالصمت لأنه طريق السلامة ، ويذكر رأى العلماء فيه ، ولكنه يؤكد عدم جواز السكوت حين يجب الكلام ، ويرد على الشعوبية فى باب خاص ، ويعرض للمتكسبين من الشعراء وينتقل إلى الخطب والحكم والأمثال .

ويذكر مآثر العرب وأخلاقهم ويدافع عنهم ، ثم يذكر أخبار الحمقى ، والمجانين والملتائين والكتاب بمثل المنهج الذى كان سائداً فى المحاضرة والتأليف

٢- أما كتاب "الحيوان " محوره الحيوان بكافة جوانبه ، ، ولايخلو من القصص والنثر والشعر ، وهو فى سبعة أجزاء . فالجزء الأول صدره بمقدمة ممتعة يرد فيها على شخص انتقد كتبه ، وعاب عليه مباحثه ويذكر فى هذه المقدمة طائفة جليلة من مصنفاته التى تصدى لها المنتقد . ثم ينتقل إلى مدح الكتب ، وذكر فوائدها والترغيب فى اصطناعها ، ثم

يتكلم على الخصاء وأحواله ومنافعه ومساوئه ، ثم على الكلب والديك وماقيل فيهما من ذم ومدح .

والجزء الثانى يتضمن تتمة الكلام على الكلب واحتجاج صاحبه له.

والجزء الثالث يتحدث فيه عن الحمام وماوصف به من كرم الطبائع ثم لؤمها ، ويتخلل ذلك استطرادات إلى صدق الظن والفراسة والجنون ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الذبان والغربان والجعلان ، والخنافس والهدهد ، والرخم والخفاش .

والجزء الرابع يتحدث فيه على الذرة والنمل والقرد والحيات والظليم (ذكر النعام) والخنزير ، ثم يستطرد إلى ذكر النيران وأجناسها ومواضعها ، ومايضاف منها إلى العجم ، ومايضاف منها إلى العرب . ونيران الديانات وغير الديانات ومن عظمها ، ومن استحقرها واستهان بها . ومن بالغ فى تعظيمها حتى عبدها .

والجزء الخامس يستطرد فى الكلام على النار ثم يشرع فى تفسير بعض الآيات .

ثم يرجع إلى ذكر النار فيتكلم على جمرات العرب . ثم يفرد باباً يذكر فيه ماقيل من مديح فى النصارى واليهود والمجوس والأنذال وصغار الناس .

وهو فى جميع ذلك لايبحث الحيوان حتى نراه ينتقل إلى الحديث عن أجناس الطير التى تألف دور الناس ، والقول فى الفأر والجرذان والسنانير ، والعقرب والبق ومأشبه ، ثم فى العنكبوت والنمل والقراد والحبارى والضأن والماعز والضفدع ، ثم يميز بين الإنسان والبهيمة ، وبين الإنسان والسبع ، ثم القطا ، ثم يختم الكتاب بنوادر وظرف وأشعار وأحاديث .

والجزء السادس يبدأ فيه بذكر الأبواب التى تحدث عنها ، ثم يمهد للأبواب التى يريد الكلام فيها . ويستهل الحديث بالكلام فى الضب ، ثم يفسر قصيدة البهرانى فى الحيوان ، ثم يبحث فى الغيلان والجان ، ثم يورد قصيدتين فى الحيوان لبشر بن المعتمر ويفسر الأولى منهما ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الهدهد والظبى والتمساح والأرنب والظربان . ثم يورد أشعاراً مختلفة من السباع والوحش والحشرات . ثم يفسر قصيدة

بشر بن المعتمر الثانية ، ثم يستطرد إلى ذكر الثأر عند العرب ، وذكر الجبان ووهله .

ثم يتحدث على الورل وتسلطه على الحية ، ثم على القنافذ والفهد ويختم الحديث بنوادر وطرف وأشعار وأحاديث .

والجزء السابع ، أصغر الأجزاء ، يبحث فيه عما عرفت به الحيوانات من الحكمة العجيبة ، والأحساس الدقيق ، والصفة اللطيفة ، وماألهمها الله من المعرفة ، وكساها من الجبن والجرأة ، وماوهبها من الفطنة بما تحاذر به عدوها ، ويستدل بذلك كله على حسن صنع الله وجلال أحكامه وتدابيره ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الفيل ، ثم عن الزرافة وغيرها من الحيوانات وبذلك ينتهى الكتاب .

ولعل من الواضح أن الجاحظ لم يقصر مباحث كتابه على الحيوان بل أحاط بالنواحى الأدبية والدينية والاجتماعية والخلقية ، ففى هذا الكتاب شعر كثير ، وأخبار ونوادر ، وفحش ومجون ، وفيه آيات وأحاديث وحكم وأمثال ، وفيه أقوال فى الديانات والعبادات . وفيه أساطير وخرافات وتقاليد وعادات وهو فى كل ذلك يحاور ويناقش ويفند ويستدل بأدلة مختلفة .

والجاحظ كما علمت يعتمد على العقل فى مباحثه شأنه شأن أصحاب المعتزلة .

وقد اتخذ عقله دليلاً فى كتاب الحيوان ، فإذا هو يدقق ويمحص ، ويختبر الأشياء بنفسه ، أو يسأل عنها أهل المعرفة وأصحاب الاختصاص .

والجاحظ فى هذا الكتاب يريد ان يظهر قدرة الله وحكمته فى خلقه ، وإنه خلق كل شيء نافعاً وإن يكن فيه الأذاة والضرر . واظهار قدرة الله وحكمته هو الغاية التى يتطلبها الجاحظ فى جميع مباحث هذا الكتاب .

فإنه لايورد مثلاً ، ولايقص خبراً ، ولايبدى درساً إلا استخلص منه عبرة يردها على قدرة الله وحسن صنعه فى خلقه .

فكتاب الحيوان كما رأينا فيه أدب كثير ، وفيه علم غير يسير ، وإذا غلبت عليه الصبغة الأدبية فمن الغبن أن نبخسه حقه من العلم ، فإن فيه من الإستقراءات والاختبارات مالاتجده إلا فى مصنفات العلماء والمفكرين .

أما كتابه "البخلاء" فقد جعله الجاحظ فى جزء واحد ، ويتضمن العديد من القصص عن بخلاء مرو وخراسان وطرقهم فى الحرص والاقتصاد ، ويبدؤها عادة بقوله : زعموا ، أو قال الفتح بن خاقان ، أو حدثنا فلان ،

ثم يعرض صورة متكاملة لمسرح القصة ، ويتحدث عن مشكلتها ويحدد معالمها ويطور الحدث حتى يتأزم ثم ينفرج . وقد صدر هذا الكتاب بمقدمة خاطب فيها شخصاً طلب إليه أن يذكر له البخل ونوادر أصحابه ، فأجاب طلبه ، ووضع له هذا الكتاب . وأوله رسالة من سهل بن هارون إلى بنى عمه ، وقد ذموا مذهبه فى البخل ، فدافع عنه واحتج له ، وذكر منافعه ومافيل فى تحسين الحرص وذم السرف . حتى إذا انتهت الرسالة أخذ الجاحظ فى سرد قصص البخلاء ، وأكثرهم من أهل البصرة وخصوصا أهل مسجدها ويتخلل هذه الأقاصيص حيل البخلاء فى الحرص وجمع المال ، ومناظرات كثيرة بين السخى والشحيح . ولايتحرج الجاحظ من فضح أصدقائه المبخلين وذكر نوادرهم ، وفيهم طبقة من الأدباء والعلماء ويختم هذه الأقاصيص بإيراد رسالة من أبى العجس بن عبد الوهاب إلى الثقفى يذم فيها البخل ويمدح الكرم . ويتعرض لرجل يعرف بابن التوأم فيعده فى البخلاء . فلما بلغت الرسالة ابن التوأم كره أن يجيب أبا العاص لما فى ذلك من المنافسة . وخاف أن يترقى الأمر أكثر من ذلك . وكأنه خشى أن يؤثر كلام أبى العاص فى

نفس الثقفى فيصرفه عن البخل ، فبادر إليه برسالة فند فيها أقوال أبى العاص ، ومدح البخل ، وزين جمع المال .

ثم يعود الجاحظ إلى أخبار البخلاء فيروى نوادر عن بخل الأصمعى ثم ينتقل إلى أسماء المآدب عند العرب والمآكل وأسماءها وأوقاتها وأنواعها وأوانيها لدى العرب ، ويتحدث عن شبعهم وجوعهم ، رفاههم وشظفهم ، كرمهم وحسن وفادتهم . ويذكر الكلاب التى تنبح لاستقدام الضيوف ، والتى تنبح لاستبعادهم ، ثم النيران التى كان العرب يوقدونها على الأماكن المرتفعة والهضاب ليهتدى بها الضيوف .

ولايغفل ماقيل فى ذلك من شعر ونثر ، منوعاً الحديث ، مضيفاً عليه من خفة روحه ونكتته اللاذعة .

فالكتاب كما يتبين لايقتصر على أخبار البخلاء ، وإنما هو كسائر كتب الجاحظ حافل بمختلف الأغراض مصطبغ بالأدب من جميع جهاته .

ولكن فوائده جمة فى تدبير المنزل وعلم الاقتصاد ، وإن تكن أقاصيصه مصروفة إلى ناحية الشح والجشع .

وفى الكتاب من الفوائد التاريخية مالايقل شأناً عن الفوائد الاقتصادية ، فإنه يطلعنا على أنواع الملابس والأطعمة عند العرب ، وأحوالهم فى

الشدة والرخاء وعلى كثير من عاداتهم فى الضيافة وإيقاد النار لها وعلى خرافاتهم واعتقاداتهم الباطلة ، ومنها ماكان فى عصره كاعتقادهم العين المالحة ، وهى التى تعرف بالعين الشريرة .

كما يطلعنا أيضاً على منزلة الأعاجم فى عصره ولاسيما الأطباء ، فإن الناس كانوا لايرون خيراً فى الطب إلا فى ماجاءهم عن نصرانى عجمى . ومن ذلك خبره عن أسد بن جانى الطبيب العربى المسلم .

ومن الملاحظ أن الجاحظ يصور أحوال عصره فى كل كتاب يصنفه ويطالعنا بكل حديث طريف،ونادرة ظريفة فيفيدنا ويلهينا فى وقت واحد .

ولعل ميزة كتاب البخلاء فى أن أشخاصه على شحهم وخساستهم لايطبعون فى النفس صوراً كدرة تنفر منها لأن الجاحظ ألقى عليهم من خفة روحه ظلاً لطيفاً فحسنهم فى العين ، وحببهم إلى القلب .

فهم من طيات البخلاء كما ينعت بعضهم . والكتاب كله يجرى على هذه الشاكلة من تصوير للأخلاق والعادات ، وأخبار في الحرص والاقتصاد ، وادب كثير ونوادر واشعار .

ومما يذكر أن الجاحظ عاشر البخلاء ، وراقبهم عن كثب ، ودرس طبائعهم ، قبل أن يكتب كتابه [1] .

منزلتـه :

يعد الجاحظ أكبر كاتب ظهر فى العصر العباسي ، وهو فى الحق الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الخصبة التى نهض بها المعتزلة ، سواء من حيث وضوح المنطق ، أو من حيث قوة الاستدلال أو من حيث القدرة على التوليد للمعانى ، وكأنه يستمد من مخازن عقلية لاتنفذ ، وقد لاحظ ذلك ابن المعتز وغيره من القدماء عنده ، فقالوا إنه يستخدم المذهب الكلامي فى كتاباته [2] ، ويريدون به قوة الحجة المنطقية والقدرة على التسبيب والتعليل وكأنما يأخذ من نهر لاينضب . نهر لايزال يجلب منه الحجة ونقيضها ، تسعفه فى ذلك قدرة على الجدل والحوار لاتتوقف عند حد ، ومن أجل ذلك قال ابن العميد عنه : " إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً " وهذا قول حق لاجمجمة فيه لأن الجاحظ فى مباحثه العلمية ، واعتماده على العقل فى تعليلاته واختباراته ، كان من قادة

[1] - الرائد فى الأدب العربى إنعام الجندى دار الرائد العربى بيروت – لبنان ١٩٧٩ الجزء الثانى ص ٧٠

[2] - كتاب البديع لابن المعتز طبعة كراتشة وفسكى ص ٥٣

التفكير الحر فى الإسلام . ومآراؤه فى الاعتزال ، وأقواله فى الحيوان والنبات والأمصار والبلدان وغير ذلك إلا نتاج عقل صحيح ، فلابدع أن تكون غذاء لسواه من العقول .

والجاحظ أكبر أديب عرفته لغة العرب ، وتقدم عصره فكانت كتبه هداية للأدباء ، وقدوة للمنشئين ، يرتضعون لبانها ، ويضربون على غرارها . وقد شاقهم فيها ذلك الأدب الخليط ومافيه من جد وعبث . ففتنوا به واتبعوه ، فكثر طلابه ومقلدوه . فجاءت كتبهم حافلة بمختلف الموضوعات فيها اختلاط واستطراد وسوء ترتيب .

ومنهم من كان يكره الجاحظ كابن قتيبة فإنه مع تشنيعه عليه لما بينهما من اختلاف فى المذهب ، لم يسعه إلا السير على خطته فى تأليفه . فرتسد مجونه وطرفه فى كتابه عيون الأخبار مع أنه كان ينكر عليه ذلك ، كما قلده فى تناول الأغراض المختلفة .

ومن تلاميذ الجاحظ أبو العباس المبرد ، وأحمد بن عبد ربه . وأبو القاسم الآمدى . وكان ابن العميد يسمى الجاحظ الثانى لأنه يسلك طريقته فى تقصير الجملة وتقطيعها ، والاكثار من الشواهد . وتلمذ له القاضى

الفاضل وكان يقول : "وأما الجاحظ فما منا معشر الكتاب إلا من دخل داره ، أو شن على كلامه الغارة" .

وكان من تأثير كتبه أن خلقت له الأعداء والخصوم ، كما خلقت له الأصدقاء والأنصار ،فتضاربت فيه الأقوال ، فمن مادح يغالى فى مدحه ، ومن ذام يسرف فى ذمه ، ولم يختلف الناس يوماً إلا على رجل عظيم .

ولاغرو أن يؤثر الجاحظ هذا التأثير فيكثر خصومه ، ويكثر مريدوه ، فإنه أوتى من الفطنة والذكاء والعلم قسطاً عظيماً . ورأى أن الكتب فى عصره ، منها مايعتمد على النقل ، ومنها مايعتمد على الرواية حتى كاد لايكون فيها استنباط فاختاره واضطلع بعبئه فكان راوية ومخترعاً فى آن واحد .

ثم رأى أن الكتاب لايعنون إلا بعلم دخيل ، أو بأدب قديم ، وقل من نظر منهم إلى عصره ، فروى عنه شيئاً . فقام يسد هذه الثلمة ، وخص عصره بجانب من كتبه ، فصور أحوال الناس ووجوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم ، فشغف الناس بكتبه وأقبلوا عليها يطالعونها بشغف . والإنسان يروقه لأن يرى مايصور له البيئة التى

يعيش فيها ويحس إحساسها ، ويشعر بشعورها . فكتب الجاحظ لم تكن كلها غريبة على معاصريه .

وحسب الجاحظ منزلة أنه أول من جمع علوم عصره ، وصور حياة أهله وانتقد أخلاقهم وعاداتهم ، وأول من وضع الكتب الطويلة الجامعة ، وخلط فيها الجد بالهزل ، والمجون بالرصانة ، والفحش بالتعفف ، وكل شيء بضده . فهو أبرع كاتب جمع بين النقيضين ، واحتج للنقيضين ، وذم ومدح النقيضين وامتاز بالفضول العلمي وحب الاستقراء . بالإضافة إلى أنه شيخ من شيوخ المعتزلة ، وإمام من أئمة المتكلمين ، وصاحب الفرقة الجاحظية ، وزعيم الأدباء غير مدافع .

خصائص أسلوب الجاحظ :

أولاً : للجاحظ في الإنشاء أسلوب خاص يعرف به ، فهو كثير الاستطراد إذا تناول موضوعاً بحثه ونقب فيه حتى إذا خاف ملل القارىء استطرد إلى الأمثال والأشعار والنكات والنوادر ، ثم عاد إلى الموضوع فلم يترك منه شيئاً كبيرا أو حقيرا حتى يتناوله بالنقد والبحث إلى أن تفهمه العامة ويرسخ في أذهان الجماهير ، ويحتج لذلك فيقول في كتابه الحيوان : "قد عزمت – والله الموفق – أن أوشح هذا الكتاب ، وأفصل أبوابه بنوادر

من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها " [1] .

ثانياً : الأطناب والإسهاب والتكرار والمرادفة لأنها أكثر إبلاغاً للمعنى واشد تأثيراً فى النفوس ، ومايزال هذا الأسلوب أسلوب التعليم إلى اليوم .

ثالثاً : وجمل الجاحظ قصيرة مقطعة إلى فقرات كأنها سجع دون قافية ، وقد تأتيه السجعة عفواً فلايتركها ، وقد تطول جملته ولكن طولها لايشينها لأنها تتألف من فقرات قصيرة مترادفة .

رابعاً : عنايته بالمضمون ، واتساع حقول الموضوعات التى يعرض لها فى كتاباته ، فقد ألف رسائل عديدة فى موضوعات شتى : اجتماعية وكونية وحيوانية ونباتية وفكرية ودينية وفى المذاهب والملل وفى البلاغة والإعجاز ، وفى البخل واللصوصية وماإلى ذلك . فانعطف بالنثر إلى منحنى جديد فارق فيه الصنعة اللفظية المحضة إذ كان يكره العناية باللفظ على حساب المعنى فهو يقول :

---

(1) - الحيوان للجاحظ طبعة الحلبى القاهرة ج ٣ ص ٧

"شر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيء المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفا بذلك الإسم حتى صار يجر إليه المعنى جراً ويلزقه به إلزاقاً ، كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره " .

وقد دفعه ذلك إلى أن يعنى بالمعنى وهذا أثر من آثار الإعتزال حيث الاحتفال بالأدلة والبراهين ، ومع ذلك فهو يعنى بالألفاظ والأساليب عناية فائقة ، فيختار العبارات الموقعة المتوازنة .

خامساً : تصويره كتابات عصره تصويراً دقيقاً فهو لايتحرج فى وصف الأشياء والنوازع والأخلاق والطوائف دون مواربة وكما هى وصفاً واقعياً ، ولكنه تطرف بعض الشيء فكان يروى كلام المجانين والحمقى والمغفلين ، ويروى عن مختلف طوائف الناس سواء كانوا من علية القوم أم من أراذلهم ، ويتجلى فى كتابه (البخلاء) هذا المظهر بوضوح ، وقد كان واقعياً حتى فى لغته فهو يحكى كلام المولدين والعامة بما فيه من لحن وخطأ ، وماذلك إلا تطبيقاً لمبدئه البلاغى (موافقة الكلام لمقتضى الحال) ، ولم يعمد إلى تزيين أسلوبه بالصور والمحسنات البديعية إلا ماجاء منها عفوا دون تعمد ، ومع هذا كان التصوير عنده يبلغ الذروة فى

الدقة ، وكان مولعاً بنقل المشاهد بما تموج به من حركة وذلك فى كتابه (البخلاء) و (الحيوان) ، فتصويره من النوع الوصفى التمثيلى فى الغالب .

سادساً : عنايته بالإيقاعات الصوتية عناية ملحوظة وذلك كالتكرار والترداد مما سمى بالتلوين الصوتى ، كمعادلة الألفاظ دون أن يسجع ، والازدواج ، والتلوين الصوتى يرتكز على ظاهرتين أسلوبيتين هما : التقطيع الصوتى والتكرار ، حيث يتمثل التقطيع فى التعادل الموسيقى حيث تقسم بالتساوى ، أما التكرار فيتمثل فى تأدية الفكرة بعبارات مختلفة خاضعة للأداء الموسيقى ، ولعل للتكرار سبب آخر يتمثل فى أنه كان يملى ولايكتب . فكان لديه وراق (كاتب) يسمى زكريا بن يحيى ، لذا كثر الترادف والتكرار فى كتاباته .

سابعاً : الجدل والحوار والأدلة والبراهين والأقيسة والمقدمات المنطقية التى هى جميعا – أثر من آثار الإعتزال ويطلق عليها شوقى ضيف (التلوين العقلى) وهو الاعتماد على هذه الأساليب وهى منطقية عقلية فى تثبيت الفكرة ، وقد كانت مظهرا من مظاهر توليد المعانى والأفكار . فالعقل هو الأساس فى كتابات الجاحظ وفقا لمذهبه المعتزلى .

ثامناً : ولغة الجاحظ رقيقة مطبوعة تفهمها العامة ولاتنبو عنها أذواق الخاصة ، وهى لغة البلاغة وأسلوب المستقبل الحى ، قال : "وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه ، وهو يحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ، ويحطه عن غريب الإعراب ووحشى الكلام" .

تعليق على الرسالة

رسالة الجاحظ "الحاسد والمحسود" الهدف منها أن ينصح فيها القارىء باتخاذ الحيطة والتوقى من سهام الحسد والحاسدين . وهى من أهم رسائله . وأبلغ ماكتب من نثر فنى .

ولعل فى هذا الفصل من رسالته يبين ضرر الحسد . وينفر الناس منه . ويظهر خفاياه . ويكشف نفسية صاحبه كشفا . ويبدو من أسلوب الجاحظ فى هذه الرسالة أنه أشبه بالعالم النفسى الذى يفصح عن طوايا النفوس ومشاعرها وأحاسيسها إفصاحاً شديدا . فقد برع فى استكناه طبائع الناس . وتحسس دخائلهم . وتعرف مايختلج بنفوسهم . وعبر عن ذلك تعبيرا فيه دقة العالم وافتنان الأديب .

ومما لاشك فيه أنه كسب هذا من دقة ملاحظته وفراسته وصدق حسه . ومن خلاطه لطوائف مختلفة من علية ودهماء . ومن علماء وجهلاء . ومن رجال وصبيان ونساء . ومن عقلاء و مجانين .

ولعل هذا يظهر بوضوح فى الرسالة التى بين أيدينا التى تناول فيها عدة أمور :

منها التفرقة بين الحسد والعداوة من وجوه كثيرة . ووصفه حالة الحاسد وشدة مضضه ونكد عيشه . والجاؤه على المحسود باللوم بلاجرم . وسعيه إلى تأليب الناس عليه . وغشه إذا استشاره . ووصفه حالة الحاسد إذا رأى محسوده . ومايبدو عليه من تغيير لونه . وتضييق عينيه . وإخفاء سلامه . والإقبال على غير محسوده وإعراضه عنه . واستثقال حديثه ومخالفته لرأيه . وماذلك كله إلا لأن الحسد كامن فى صدر الحاسد كمون النار فى الحجر .

ولاشك أن الجاحظ قد سبق بهذا التحليل النفسى فى أسلوبه الكتاب والبلغاء والأدباء . وأثرى بذلك الأدب ولغة العرب إثراء شديدا .

وأسلوبه فى هذه الرسالة اسلوب الجاحظ الذى تظهر فيه شخصيته ظهورا تاما . حتى لترى فبه رقة الألفاظ مع العناية بالمعنى وجمال الأسلوب والزهد فى الصور البيانية لأنه عاب على من يكثر التصنيفية والتزويق فى ألفاظه . لأن التعمق الشديد مظنة الزلل . وهو يتردد بين السجع والازدواج مع ميل إلى الإطناب والترادف الذى يفصح به عن المعنى ويقويه ويؤكده . هذا إلى متانة الصياغة وجمال التركيب والملاءمة بين اللفظ والمعنى وإيثار البلاغة الرائعة والسلاسة الممتعة . وخفة الروح .

وبراعة الاستشهاد والاقتباس . والبعد عن الخيال المعقد والمبالغة المغرقة والتكلف الكريه .

والجاحظ صاحب باع طويل فى صناعة الكلام وأسلوب الكتابة كاد أن ينفد به إلى القلوب . ويخترق الأفئدة . ويناجى العواطف ويمتلك المشاعر . ويصل بقلمه المصقول . وبيانه القوى إلى خلجات النفوس . وخفايا الضمائر . وله من ذهنه المتوقد . وعقله الكبير . ماجعل لمنطقه من التأثير . ومالحجته من الرهبة . ماساعده على الوصول إلى هدفه حين يرمى . ولغايته حين يقصد لايستعصى عليه شئ . ولايتأبى عليه صعب .

ولعل من الملاحظ فى هذه الرسالة أنها تمثل النثر الفنى فى عصر الجاحظ أصدق تمثيل . فى بلاغته وجماله ومسايرته وتمشيه مع الحضارة العقلية والفكرية والأدبية التى سادت الأدب والثقافة فى العصر العباسى .

وبهذا كله كان الجاحظ قمة فى الأدب العربى لايبلى أدبه على مر الزمان .

بديع الزمان الهمذانى رائد فن المقامات

مولده ونسبه ونشأته:

بديع الزمان هو أبو الفضل أحْمَدَ بْنَ الْحُسَيْن بن يَحْيَى بْن سَعِيدِ بْن بِشْر الهَمَذَانى[1]، الكاتب المترسل، والشاعر المبدع، حافظ عصره، وذكى دهره، وقدوة الحريرى فى إنشاء المقامات، وقريع الخوارزمى فى المبادهات والمكاتبات"[2].

ولد فى همذان، وهى مدينة جبلية فى إيران سنة ٣٥٨ للهجرة. وإليها ينسب ويقال عنها "إن أهلها أعذب الناس كلاماً وأحسنهم خلقاً وألطفهم طبعاً ومن خاصيتها ألا يكون الإنسان حزيناً ولو كان ذا مصيبة، وهى أول عراق العجم"[3].

وفى رسائله المطبوعة دلالات مختلفة على أنه من أسرة عربية كريمة استوطنت هناك، وينتمى نسبه إلى قبيلة (تغلب) العربية، فهو عربى الأصل، ومن أسرة ذات علم وفضل ومكانة مرموقة، سكن أهله ديار العجم، شأنهم فى ذلك شأن كثير من العرب الذين استوطنوا الأرض الإسلامية، وهو يتعصب للعرب على غيرهم ويتفخر بنسبه فى رسالته

---

(١) معجم الادباء لياقوت الحموى ج٢ ص ١٦١ دار إحياء التراث العربى: بيروت - لبنان وكذا وفيات الاعيان ابن خلكان تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ج١ ص ١٠٩ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م وكذا فنون الأدب العربى الفن القصصى المقامة شوقى ضيف ص ١٣ الطبعة الخامسة دار المعارف. وكذا الفن ومذاهبه فى النثر العربى شوقى ضيف ص ٢٣٨ الطبعة التاسعة دار المعارف. وكذا مقامات بديع الزمان الهمذانى قدم لها وشرح غوامضها محمد عبده ص٣ دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

(٢) الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٠٩ مكتبة الكليات الازهرية القاهرة. وكذا دراسات فى الادب والفن حنا نمر ص ٣٤ الطبعة الاولى ١٤٠٢ - ١٩٨٢م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

(٣) فريدة العصر فى جداول يتيمة الدهر لابى موسى احمد الحق ص ٦١١، ٦١٠ طبعة كلكتا.

إلى الشيخ أبى العباس الفضل بن أحمد الإسفرائينى، فقال: "إنى عبد الشيخ، واسمى أحمد، وهمذان المولد، وتَغْلب المورد، ومُضَر المَحْتِد"(١).

ولقد تشكك بعض الباحثين المحدثين في أصله العربي، مدعين أن أصله فارسي، وسرى شكهم - أيضا - إلى إسمه وإسم أبيه، ظانين أنه من إختراعه، ليوافق اسمه اسم شاعر العربية الكبير، أبي الطيب المتنبي(١)، وأكد الدكتور مصطفى الشكعة وآخرون أن البديع "عربي متعصب، يلبس ثوب العروبة من هامة رأسه إلى أخمص قدميه.. (٢)".

رحلاته وتنقلاته :

قضى بديع الزمان في همذان طفولته وصباه وفتوته في أسرة عربية ذات علم وفضل ومكانة مرموقة فأخوه الحسين بن يحيى كان مفتي البلدة(٣)، وكانت مدينة همذان من البلاد التي للعلم فيها نصيب وللأدب فيها إزدهار، وقد تلقى بديع الزمان الهمذاني علومه على يد اساتذتها ، فتتلمذ لأحمد بن فارس صاحب كتاب المُجمل في اللغة ، ونهل الهمذاني من

---

(١) رسائل أبى الفضل بديع الزمان الهمذانى ص ٤ الطبعة الرابعة ١٣٤٦ - ١٩٢٨ - مطبعة أمين هندية.

(٢) بديع الزمان الهمذاني مارون عبود ص ١٦ من سلسلة نوابغ الفكر (٩) الطبعة الرابعة دار المعارف بالقاهرة .

(٣) بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية مصطفى الشكعة ص ١٦٦ الطبعة الثالثة ١٩٧٥ مكتبة الأنجلو المصرية.

(٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي ج٢ ص ١٦٢.

فيض علمه، ولازم حلقته، كما تتلمذ لأبن لال، وابن تركان، وعبد الرحمن الإمام، وأبي بكر محمد بن الحسين القراء، ولم يكتف البديع بالتوفر على علوم اللغة والأدب، بل أقبل على دراسة الحديث والرواية حتى أصبح ثقة في هذا الفن.[١]

إلا إن بديع الزمان رحل عنها شأنه في ذلك شأن كثير من أعلام الفضل والأدب في القرن الرابع الهجري، فمن الملاحظ أن كل هؤلاء العلماء كانوا يغادرونها في مستهل أعمارهم، ويفرون منها مطوفين بالأمصار المجاورة تارة، والأقطار النائية تارة أخرى[٢] .فقد غادر البديع همذان إلى اصبهان سنة ٣٨٠ هـ، وهو في الثانية والعشرين من عمره، حيث أتصل بالصاحب إسماعيل بن عباد وزير بني بويه؛ ونزل البديع بساحته ومدحه ببعض شعره، وأعجب به الصاحب لفصاحته. فقد كان الصاحب يميل إلى الأسجاع والإغراب والأحاجي وبديع الزمان بطل في ذلك الميدان، ورأى فيه مخايل ذكاء شديد. إذ كان يترجم مايقترح عليه من الأبيات الفارسية بالأبيات العربية، فيجمع بين الإبداع والإسراع، فقربه

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي ج٢ ص ١٦٢

(٢) بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية مصطفى الشكعة ص ١٧٠.

منه وجعل له مكانة في مجلسه، وكان الصاحب في ذلك الوقت زعيم أدباء عصره، إذ كان كاتباً شاعراً، وله من التأليف الشيء الكثير، فتزود البديع من ثماره وحسن آثاره.(١)

ولم تطل إقامة بدبع الزمان بحضرة الصاحب، فقد كان البديع لايزال في الثانية والعشرين، به رعونة الشباب التي لاتمكنه من حسن معاشرة الكبار، وربما ترك البديع حضرة الصاحب لأنه كان سنياً فلم يتأت له الإندماج في هذه الحضرة الشيعية الغالبة.

فقد غادر بديع الزمان أصبهان متجها شمالا إلى جرجان وهى بلدة لها من العلم والفضل نصيب وافر، فأقام في كنف أمرائها من أمثال أبي سعيد محمد بن منصور وعاش علي مداخلة الإسماعيلية وإستفاد من علمهم وإقتبس من أنوارهم(٢).

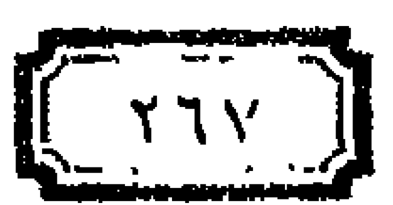
ولانلبث أن نجد بديع الزمان يهجر جرجان لخلاف بينه وبين أبي سعيد الإسماعيلي(٣). ويظهر أن بعض الناس هناك أوغروا صدره عليه، فيمّم

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج٤ ص ٢٥٦ مطبعة حجازي القاهرة.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مجلد ٤ ص ٤٧٢ الطبعة العربية .

(٣) يتيمة الدهر للثعالبي ج٤ ص ٢٤١.



خراسان، وإتجه إلى نيسابور. ونزل بديع الزمان نيسابور سنة ٣٨٢ هـ[١]. وهى مدينة أستهوى بريقها أنظاره، فهى من أحسن مدن خراسان وأعظمها وأجمعها للخيرات، وكانت مجمع العلماء وملتقى الفضلاء وهى على أبواب الإقليم، كما كان لهذه المدينة عجائب تسمى الاثنا عشرية، ومن هذه العجائب أنه كان بها إثنا عشر معدناً للفيروز والنحاس والمرمر وغير ذلك واثنا عشر نهراً تنحدر من الجبال، واثنتا عشرة مائة قرية، واثنا عشر ألف قناة تجرى من اثنى عشر ألف ينبوع[٢].

وقد يكون فى ذلك شئ من المبالغة إلا أن هذه الصور تعطينا فكرة طيبة عن تلك المدينة التى أرجتها الطبيعة بألوان من الجمال الطبيعى والمناظر الخلابة، وعطرتها المعرفة بنخبة فريدة من رجال العلم والأدب، وهذا ما جعل بديع الزمان يقبل عليها وكله آمال، خاصة وأنه كان يعيش فيها فى ذلك الوقت شيخ عصره فى علوم اللغة والبلاغة وأيام العرب وأمثالها أبو بكر الخوارزمى الأديب الذائع الصيت الذى طرقت آدابه أسماع الزمن وأعجب الناس برسائله وشعره، ولذلك كان البديع شديد الرغبة

---

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٤١.

(٢) مجلة الرسالة المجلد الأول من السنة الثالثة العدد ٨٠ ص ٦٤ سلسلة مقالات بديع الزمان للمرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام.

فى الاتصال بشيخ عصره، أبى بكر الخوارزمى، معلقاً على لقائه الأمانى الكبار، راغباً فى علمه طامعاً فى كرمه.

ولقد التقى بديع الزمان بالخوارزمى فلم يحسن الخوارزمى لقاءه، ولم يعجبه منه تكبره وبخله، وكان البديع على جانب كبير من إباء النفس وعلو الهمة فصارح الخوارزمى برأيه فيه وحصلت بينهما جفوة ومقاطعة وبغضاء، وأخذت أسباب العداوة بينهما تنمو وفتنة القطيعة تزداد، فاستغلها بعض الناس، وهيئوا لها مناظرة، فتصدى البديع له، وجرت بينهما مناظرات وانهزم فيها الخوارزمى، ولمع اسم البديع بعدها، وطار صيته فى الآفاق واتصل بكثير من أعيان المدينة أمثال بنى ميكال وأبى نصر بن المرزبان، ومما لا شك فيه أنه قد فتن به قوم كثيرون، والتف حوله تلامذة عديدون[1].

وعلى الرغم من شهرة بديع الزمان فى نيسابور، وعلو ذكره فيها، تركها متجهاً إلى سجستان، ولا نعرف على وجه التحديد السبب الذى من أجله ترك بديع الزمان نيسابور، وإن كنا نجد بين رسائله رسالة عتاب يعتب

---

(1) بديع الزمان الهمذانى رائد القصة العربية والمقالة الصحفية مصطفى الشكعة ص ١٨٣، ١٨٤.

فيها على الشيخ أبى جعفر الميكالى رئيس نيسابور لخلاف حدث بينهما وربما يكون ذلك الخلاف هو السبب فى مغادرته[١].

ترك بديع الزمان نيسابور رغم اشتهار أمره بها لخلافه مع بنى ميكال فضلاً عن حبه للتنقل ورغبته فى الارتحال، متجهاً إلى سجستان حتى نزل عند أمير سجستان خلف بن أحمد وهو – كما يبدو من وصف بديع الزمان له فى رسائله – شخصية ممتازة، إذ كان أديباً، وكان مثقفاً. فلقى منه بديع الزمان كل تكريم وإجلال، وقد ألف فيه ست مقامات أضافها إلى مقاماته[٢] مدحه فيها ونوَّه بفضله وكرمه،

ومدحه بقصيدة مطلعها:

سماء الدجى ما هذه الحدقُ   أصدرُ الدجى حالٍ وجيدُ الضحى

وأغلب الظن أن إقامة بديع الزمان قد طالت بعض الوقت فى سجستان لما عرف عن أميرها من حب للأدباء والشعراء، لكن بديع الزمان كان شديد الحساسية معتز بكرامته لم يلبث أن غضب من الأمير ونفر منه،

---

(١) رسالة البديع الى الشيخ ابى جعفر الميكالى ص ٣٦ ديوان الرسائل.

(٢) هى المقامات: التاجية، الخلفية، النيسابورية، الملوكية، السارية، التميمية

ربما لأنه شعر عنده بشئ من التهاون لا يرضاه، فاستأذنه في الذهاب إلى هَرَاة بأفغانستان.

وهكذا يغادر بديع الزمان سجستان إلى بلاد أخرى يجوب حواشيها ويطوف في ربوعها إلى أن يصل إلى غزنه وهي إذ ذاك عاصمة السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي، والسلطان محمود كان يهوى لقاء الأدباء والعلماء ويشجعهم على الإقامة عنده، ولعل البديع كان يريد أن يتصل بالسلطان محمود الغزنوي صاحب الفتوح الكبيرة في الهند وإيران، وأن يصبح من حاشيته أو من كُتَّابه. فقدم عليه ومدحه بشعر.

ثم غادر البديع غزنة متجهاً إلى هرات، ولا نعرف على وجه التحديد السبب الذي من أجله ترك غزنه، ويبدو أن طبيعة هرات وجمالها وخيراتها قد استهوته فأقام فيها وتزوج من ابنة أبي علي الحسين بن حمد الخُشْنامي أحد سادة المدينة وأعيانها فحسنت حاله وأنجب أولادا واقتنى مالا وضياعا. ونجد بين رسائله رسائل مختلفة كتب بها إلى والده

يذكر له فيها أن له بهراة عقاراً ومزارع، ويطلب منه أن يرحل إليه هو وإخوته وعمه(١).

وكل ذلك يدل على أنه عاش فى أواخر حياته عيشة ثرية، بل عيشة كريمة، وتغير حاله إلى غنى بعد فقر، وثروة بعد فاقه(٢).

وفاة بديع الزمان الهمذانى:

اتفق المؤرخون على أن بديع الزمان توفي بمدينة هراة سنة ٣٩٨هـ(٣).

ولكن الخلاف كان فى سبب موته، فذكر ابن خلكان رأيين فى وفاته، الرأى الأول أنه مات من السكته، إذ أصيب بغيبوبة، فظن أنه مات وعجل بدفنه، فأفاق فى قبره، وسمع صوته فى الليل، فنبش عنه فوجد ميتاً من هول القبر، وقد أمسك لحيته بيده(٤). وهذا الرأى شاركه فيه كثيرون من مؤرخى الأدب.

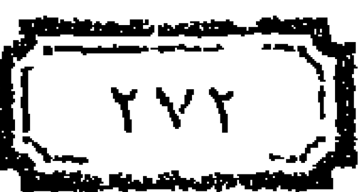
---

(١) فنون الادب العربى الفن القصصى [١] المقامة شوقى ضيف ص ١٥، ١٦. وكذا الأدب العربى فى الادب العربى القديم عصوره واتجاهاته وتطوره ونماذج مدروسة منه محمد صالح الشنطى المجلد الثانى ص ١٥٨ دار الاندلس للنشر والتوزيع حائل.

(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى زكى مبارك ج٢ ص ٣٢٥ طبعة دار الكتب المصرية.

(٣) وهذا خلاف لما أورده ابن حجة الحموى فى خزانته فقد ذكر أن البديع توفى فى سنة ٣٩٣هـ. انظر خزانة الادب لابن حجة الحموى ص ٤ الطبعة الأولى ١٣٠٤ المطبعة الخيرية بمصر.

(٤) وفيات الاعيان لابن خلكان ج١ ص ١١١ وكذا شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ج٣ ص ١٥٠ طبعة القاهرة.



وأما الرأى الثانى إنه مات مسموما، ورجح هذا الرأى أحد الكاتبين المعاصرين، معللاً ذلك بكثرة أعدائه وحساده، إذ لم يسلم من لسانه أحد[1].

ولكننى أرى أنه لا مانع من اجتماع السببين، بأن دس له السم أولاً فأحدث له غيبوبة فقبر بسببها، وأياً كان السبب، فقد "ودع الحياة أديب شاب خلد ذكره بآثاره الرائعة بعد أن أسدى إلى لغته وقومه تراثاً مجيداً من درر الشعر وجواهر النثر بين قصة طريفة أو مقالة بليغة"[2].

صـــفاته وأخـــلاقـــه ومواهـــبه:

لم ينل كاتب فى القرن الرابع الهجرى ما ناله بديع الزمان من التمجيد والثناء، فكان من أبرز كتاب العرب الذين أنتجتهم فارس. وحتى اسمه لم يعرفه الناس، وإنما يعرفونه بلقبه الذى أطلقه عليه معاصروه. وإنه ليفصح عن مدى إعجابهم به، فقد عرف بذكائه وعبقريته، يقول عنه الثعالبى: "هو معجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر، وغرة العصر، ومن يُلقَ نظيره فى ذكاء القريحة وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء الذهن، وقوة النفس، ومن لم يُدْرك قرينه فى

---

(1) بديع الزمان الهمذانى مارون عبود ص ٢٥.

(2) بديع الزمان الهمذانى رائد القصة العربية والمقالة الصحفية مصطفى الشكعة ص ١٠١

طُرف النثر ومُلَحة وغرره، ... ولم يُرَ ولم يُرْوَ أن أحداً بلغ مبلغه من لبِّ الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره"(1).

ويقول عنه الحصرى وقد ذكر اسمه (البديع): "هذا اسم وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، كلامه غضّ المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفاً، والهوى يعشقه ظرفاً"(2).

وكان الحصرى يتعصب لبديع الزمان على الخوارزمى، وبلغ من تعصبه أنه لم يرو للخوارزمى شيئاً فى كتابه بينما أكثر من روايته عن البديع، إذ كان يعجب به، وبمقدرته على التجويد والتحبير إعجاباً شديداً. ووصفه الدكتور مصطفى الشكعة بالعبقرية والذكاء فقال عنه: "هذه العبقرية الخارقة والذكاء والوقاد الذى ظهرت مخايله عليه منذ نعومة أظفاره، لا يمكن إلا أن تكون نتيجة لمزيج واختلاط وتزاوج بين آبائه وأجداده العرب وبين عائلات الفرس فى تلك المنطقة العجمية، لأن التزاوج بين جنس وجنس ينتج نسلاً ذكياً صحيح العقل لبيب الفؤاد"(3).

وكان البديع مع ذكائه الواسع وعبقريته الفذة كان أيضاً على خلق

---

(1) يتيمة الدهر الثعالبى ج4 ص 256 وكذا الفن ومذاهبه فى النثر العربى شوقى ضيف ص 240.

(2) زهر الآداب وثمر الألباب الحصرى القيروانى شرح الدكتور زكى مبارك ج1 ص 307 الطبعة الأولى المطبعة الرحمانية بمصر.

(3) بديع الزمان الهمذانى رائد القصة العربية والمقالة الصحفية مصطفى الشكعة ص 166، 161.

فاضل ونفس عالية وصفه الثعالبى بقوله: "مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق، شريف النفس، كريم العهد، خالص الود، حلو الصداقة، مر العداوة"[1].

وقد كان البديع كثير السفر والترحال على نحو ما بينا، فقد فارق بلده فى مقتبل حياته ولم يبق من بلاد خُراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها، وجنى من ثمرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير إلا استعان به وانتفع منه، وسرى فى ضوئه، فحصلت له نعمة حسنة، وثروة جميلة، حتى ألقى عصاه بهراه فاتخذها دار قراره.

وقد بين لنا البديع من خلال مقاماته رحلاته الكثيرة، فقد ذكر فى مقاماته البلدان الكثيرة التى رحل إليها، ونسب إليها كثير من المقامات[2]، وقد علل على كثرة أسفاره ورحلاته، بسبب خوفه على نفسه، وضنا بحياته، لكثرة حاسديه الذين يدبرون له المكائد، لعلو مكانته وفضله، وشهرة أمره فى الأدب والفصاحة والبيان، والشكوى من الخدم، فيضطره ذلك للفرار والرحلة والتنقل، وبين ذلك بوضوح وأثبته فى مقامته (الخلفية).

---

(1) يتيمة الدهر الثعالبى ج4 ص 256 وكذا تاريخ الادب العربى أحمد حسن الزيات ص 175 الطبعة الحديثة 1420هـ - 2000م دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.

(2) المقامات: البلخية، السجستانية، الكوفية، الجرجانية - الاصفهانية ... الخ.

كما تعرض البديع لوشاة الواشين عند كثير من الأمراء، وذوى الشأن، مما أدى إلى تجاهله من قبل كثير منهم، كما شعر بتصغيرهم لشأنه، وتغيرهم عما عهد فيهم، ولذلك نراه يقول فى صحبة الملوك: "وإنهم ليعثـــــرون على العثرة من خدمهم، فيبنون لها مناراً، ثم يوقدونها ناراً، ويعتقدونها ثاراً"(١).

أما عن أخلاقه، فقد اتهمه بعض الباحثين بالبخل الشديد واكتناز المال وبنوا حكمهم هذا على أساس ما كتبه فى مقاماته ورسائله، فقد جاء فى مقامته (الوصية)، على لسان أبى الفتح الاسكندرى يوصى ولده بالحرص على المال ويحذره من التبذير، وكان قد جهزه للتجارة قائلاً: "فلا آمن عليك لصين، أحدهما الكرمُ، واسم الآخر القرم(٢). فإياك وإياهما إن الكرم أسرع فى المال من السوس. وإن القرم أشأم من البسوس. ودعنى من قولهم: إن الله كريم إنها خدعة الصبى عن اللبن. بلى إن الله لكريم ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه وينفعنا ولا يضره ... إنه المالُ عافاك الله فلا تنفقن إلا من الربح. وعليك بالخبز والملح ..... الخ"(٣).

---

(١) يتيمة الدهر الثعالبى ج: ص ٢٦٠.

(٢) القرم: اشتداد الشهوة الى اللحم، وقد جعل القرم والكرم لصين سارقين لأن كلا منهما يذهب بالمال من حيث لا يشعر صاحبه كما ان السارق كذلك.

(٣) مقامات بديع الزمان الهمذانى شرح الشيخ محمد عبده ص ٢٣٢ وما بعدها.

وجاء أيضاً فى رسالته التى بعث بها إلى أستاذه أحمد بن فارس قوله: "... قلَّما يجتمعان، الخراسانيةُ والإنسانيةُ، وإنى وإن لم أكن خراسانىَّ الطينة، فإنى خراسانى المدينة، والمرء من حيث يوجد، لا من حيث يولد، والإنسان من حيث يثبتُ، لا من حيث ينبت، فإذا انضاف إلى تربة خراسان ولادة همذان، ارتفع القلم، وسقط التكليف، والجرحُ جبار....." (1).

ومن هنا اتخذ بعض الباحثين من ظاهر ما ذكره فى المقامة والرسالة منطلقاً لإتهامه بالبخل الشديد واكتناز المال، فوصفه أحدهم بأنه: "لا يجود على محتاج، ولا يبسط يده بالعطاء لأحد"(2).

كما علق آخر على الرسالة التى أرسلها إلى معلمه بقوله: "وكتابه لأستاذه ابن فارس، أليس شهادة صارخة على الخرسانية(3)، مؤكدا ومؤيداً رأيه بقول ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد: "أجمع الناس على بخل أهل مرو، ثم أهل خراسان"(4).

---

(1) معجم الادباء لياقوت الحموى ج2 ص 202.

(2) المقامات الهمذانية دراسة ونقدا فرج السيد راغب سندور ص 478. مقال بمجلة كلية اللغة العربية الزقازيق العدد العاشر 1990م.

(3) بديع الزمان الهمذانى مارون عبود ص 27.

(4) العقد الفريد لابن عبد ربه تحقيق محمد سعيد العريان ج7 ص 166 المكتبة التجارية 1372 - 1953.

ولكننى أرى أن المقامة يجب ألا تؤخذ على ظاهرها، فبديع الزمان لا يوصى بالبخل كما يظن بعض الذين اتهموه، ولكنه أراد أن يستثمر طاقة إمكانياته اللغوية فى تفجير الشحنة الانفعالية والنفسية التى كانت تمور فى وجدانه، فرسم لنا من خلالها صورة نقدية ساخرة لتلك الفئة الاجتماعية التى يسيطر فيها القوى على الضعيف، فالمقامة هنا قناع ينقد الواقع وما فيه من متناقضات تكشف عن سبب نقد البديع للسلوك الاجتماعى لهذه الشريحة من المجتمع الذين يسعون للثراء بأى صورة وبأية طريقة سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة.

ومما يؤكد أيضاً أن البديع برئ من تهمة البخل أننا نجده فى مواضع أخرى من مقاماته، ينصح بالكرم، ويحث على بذل المال، لنسمعه يقول فى لخط من شأن المال والغنى فى مقامته المطلبية: "وهل المال إلا عارية مرتجعة، ووديعة منتزعة، ينقل من قوم إلى آخرين، وتخزنه الأوائل للآخرين. هل ترون المال إلا عند البخلاء، دون الكرماء، والجهال دون العلماء؟ إياكم والانخداع فليس الفخر إلا فى إحدى الجهتين. ولا التقدم إلا بإحدى القسمتين: إما نسب شريف، أو علم مُنيف ...." (١).

---

(١) مقامات بديع الزمان الهمذانى شرح الشيخ محمد عبده ص ٢١٧.

فلو كان من البخلاء الاشحاء ما قال ذلك فى هذه المقامة. كما أننى أرى أن رسالته لمعلمه أحمد بن فارس لا تخرج عن فكاهاته التى تميز بها، وما قصد من ورائها إلا الملاطفة والمداعبة، والدليل على ذلك أنه لم يكن من الأغنياء فى ذلك الوقت، وخاصة إذا ما علمنا أنه وهو فى طريقه إلى خراسان خرج عليه لصوص، فسلبوه كل ما معه، وصوَّر نهبهم له فى بعض رسائله، إذ يقول من رسالة: "كُتابى وأنا أحمد اللّه إلى الشيخ وأذم الدهر فما ترك لىَ فِضّة إلا فضّها، ولا ذهباً إلا ذهب به، ولا عِلـقـاً، ولا عقاراً إلا عقره، ولا ضيعة إلا أضاعها، ولا مالاً إلا مال إليه، ولا حال إلا حال عليه، ولا فرساً إلا افترسه، ولا سبداً إلا استبد به ولا لبداً إلا لبد[1] فيه ولا بزّة إلا بزّها، ولا عارية إلا ارتجعها، ولا وديعةً إلا انتزعها، ولا خلعةً إلا خلعَها، وأنا داخلُ نيســابور، ولا حلية إلا الجلدة، ولا بردة إلا القشرة"[2].

كما اتهمه بعض الباحثين بالكبر الذى بلغ حد الغرور والتعجرف، فقـــد

---

(1) سبد ، اللبد من قولهم: ماله سبد ولا لبد. اى لا قليل ولا كثير.

(2) رسائل أبى الفضل بديع الزمان الهمذانى ص ١٠٤، ١٠٨ وكذا زهر الآداب الحصرى ج٢ ص ١٤ ... الفن ومذاهبه فى النثر العربى شوقى ضيف ص ٢٤٢ وكذا المقامة شوقى ضيف ص ٤١

كان يرى نفسه فوق كل الأدباء سواء كانوا فى عصره أو قبل عصره، كما اتهمه بالأنانية المفرطة، التى جرت عليه كثيراً من المتاعب، فلم يكد يستقر فى مكان إلا ويتركه ويرحل إلى آخر[1].

ولكننى أرى أن بديع الزمان برئ من هذه التهم، وما موقفه من الأمير خلف بن أحمد وهجره دياره، إلا اعتداد بالنفس، وصون للكرامة، وحفظ لماء الوجه، فحين أحس بجفاء الأمير وبإساءة خدامه، تركه وعرض به فى مقامته (الخلفية)[2] معللاً هجرانه "إن الوحشة تقدحُ فى الصدر اقتداح النار فى الزند فإن أطفئت نارت وتلاشت وإن عاشت طارت وطاشت. والقطْرُ إذا تتابع على الإناء امتلأ وفاض. والعتب إذا ترك فرَّخ وباض. والحر لا يعلقه شرك كالعطاء، ولا يطردُهُ سوط كالجفاء. وعلى كل حالٍ، تنظر من عالٍ على الكريم نظر إدلالٍ، وعلى اللئيم نظر إذلال. فمن لقَينا بأنفٍ طويلٍ. لقيناهُ بخرطوم فيلٍ. ومن لحظنا بنظر شزرٍ بعناه بثمن نزرٍ. وأنت لم تغرسنى ليقلعنى غلامك. ولا اشتريتنى لتبيعنى خُدَّامك. والمرء من غلمانه، كالكتاب من عنوانه. فإن كان جفاؤهم شيئا أمرت به فما الذى أوجب. وإن لم تكن علمت به كان أعجب"[3].

---

(1) المقامات الهمذانية دراسة ونقدا فرج السيد راغب مندور ص ١٧٩: مقال بمجلة كلية اللغة العربية الزقازيق. وكذا بديع الزمان الهمذانى مارون عبود ص ٢٨.

(2) نسبة الى خلف بن أحمد.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذانى شرح الشيخ محمد عبده ص ٢٢٥، ٢٢٦.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن بديع الزمان رجل معتز بكرامته، معتد بنفسه، لا المتهم بتكبره، الشديد الحساسية، لا المفرط فى الأنانية.

مجتمع بديع الزمان الهمذاني:

عاش بديع الزمان فى القرن الرابع الهجرى، ورغم أنه لم تدم حياته سوى أربعة عقود، إلا أنه عاصر عدة دول، قامت فى الشرق، بحركات انفصالية عن الدولة العباسية، كالدولة السامانية، التى قامت على أنقاض إمارة الصفاريين وأزالت حكمهم قامت هذه الدولة من سنة ٢٦١ – ٣٨٩هـ. وكانت رفعتها فيما وراء النهر (نهر جيحون) وامتد سلطانها على خراسان أيضاً، وفى أيام هذه الدولة أحيا الفرس آدابهم وفنونهم، وترجموا من العربية إلى الفارسية كل ما وقعت عليهم أيديهم. وكانوا قبل ذلك يستعملون العربية فى كل شئ حتى فى لغة الحديث.

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر دولاً ثلاثاً كان لبديع الزمان بها صلة وثيقة، الأولى الدولة الزيارية وقد قامت فى إقليم طبرستان وهو الإقليم الذى يقع جنوبى بحر قزوين، ولقد استمر سلطانها من سنة ٣١٦ – ٤٧٠هـ. ولتلك الدولة صلة وثيقة بالأدبين العربى والفارسى. وليس أدل على ذلك من أن الكاتب البارع قابوس بن وشمكير صاحب الرسائل الشيقة كان أحد ملوكها.

أما الدولة الثانية فهى الدولة البويهية وهى أعظم الدول الصغيرة خطرا فى تاريخ الدولة العباسية والتى كان لها أعظم الأثر فى تاريخ الأدب العربى، فلقد ولى الوزراء فيها أدباء من أشهر كتاب القرن الرابع الهجرى مثل أبى الفضل بن العميد وولده أبى الفتح بن العميد والصاحب اسماعيل بن عباد وابن سعدان والمهلبى. كما أن أبا إسحاق الصابى كان واحداً من نجوم الكتابة فى دواوينها، والخوارزمى، وأبو حيان التوحيدى، وعاش فى رحابها فترة من الزمن بديع الزمان الهمذانى[1].

ومهما يكن من أمر فإن الدولة البويهية قامت فى أرض المشرق فى القرن الرابع الهجرى وكان لها من الإمكانيات الأدبية والمادية والعسكرية ما جعلها تحتل مكانة مرموقة فى التاريخ فلقد قامت سنة ٣٢٠هـ. وامتد سلطانها على الأقاليم القريبة من إيران تجاه العراق ولم يكد يمضى أربع عشرة عام على قيامها حتى استطاعت أن تستولى على بغداد عاصمة الخلافة وكان ذلك عام ٣٣٤هـ. وبقيت هذه الدولة قوية حتى أزالها السلاجقة حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى.

ومما يثير العجب أن هذه الدولة الفارسية التى قامت فى أراض فارسية لم يكن لها أثر يذكر فى الأدب الفارسى، وإن كان لها الأثر الأكبر على نحو ما ذكرنا فى الأدب العربى.

---

(١) الأدب العربية فى العصر العباسى الثانى محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٠٦ مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن ملوكها كانوا على جانب كبير من الثقافة فى ميدان الأدب العربى وعلوم اللغة ونخص بالذكر منهم عضد الدولة الذى مدحه المتنبى ساعياً إليه من الشام ومصر والعراق، كما أن أبا على الفارسى كان من مجالسيه ومؤدبيه.

وأما الدولة الثالثة فهى الدولة الغزنوية وقد ظلت تحكم غزنة زهاء قرن ونصف من الزمان تابعة اسمياً للدولة السامانية التى كانت تابعة للخلافة العباسية اسماً أيضاً. وفى سنة ٣٦٦هـ بويع سبكتكين الذى لم يكد يستتب له الأمر فتوجه إلى الهند فاتحاً أكثر من مرة وكان يصحبه فى غزواته ابنه محمود، وفى سنة ٣٨٤هـ تولى محمود حكم خراسان من قبل السامانيين، إلا أن أباه قد مات بعد ذلك بعامين تاركاً الإمارة لابنه اسماعيل، فدبت الغيرة فى نفس محمود الذى حارب أخاه اسماعيل وانتصر عليه، فدانت له غزنه وخراسان، ثم أرسل إلى الخليفة فى العاصمة بغداد بعض الهدايا ملتمسا الاعتراف به أميرا على غزنه غير تابع للسامانيين فكان له ما أراد.

وهناك دولة صغيرة ولكنها كانت عظيمة قامت فى حلب، هى دولة أوإمارة بنى حمدان التى أسسها سيف الدولة على بن أبى الهيجاء الحمدانى، وقد قامت هذه الإمارة فى الثلث الأول من القرن الرابع وانتهت فى نهايته (٣٣٣ – ٣٩٤هـ).

وما أريد أن أطيل الحديث عن هذا التفكك الذى أصاب الدولة الإسلامية، ولا أقصد أن أعدد الإمارات والدويلات التى تناثرت على رقعتها، فذلك شأن المؤرخ السياسى، ولكن وددت أن أوضح أن ما أصاب الدولة الإسلامية من تمزق فى رقعتها كان أمارة ضعفها السياسى، هذا بالإضافة إلى أن بديع الزمان الهمذانى كانت له صلات وثيقة بكثير من هذه الإمارات.

ومما لا شك فيه أن الحياة الاجتماعية كانت مرتبطة إلى حد كبير بالحياة السياسية والأدبية، بل إن الحياة الاجتماعية تنعكس دائماً على أدب العصر وتتفاعل معه فيخرج لنا نتاج مترف أو خليع أو وقور أو ساخر أوقلق، كل ذلك نتيجة للحياة التى يحياها الشعب والاحساسات التى تحسها الأمة والتأثيرات التى يتأثر بها الناس.

ولقد اتشحت الحياة الاجتماعية بوشاح الحياة السياسية الخلق، ذلك لأن القرن الرابع هو القرن الذى انقسمت فيه الدولة الإسلامية كما ذكرنا إلى دويلات صغيرة شبه مستقلة لكل منها أميرها ووزراؤها، وكان أغلب الأمراء من غير العرب فكانت تهم المجالس ذات التقاليد الخاصة المترفة، وراحوا يتنافسون فى ابتداع ألوان من الترف، ويفتنون فى ابتكار ضروب من الترف.

كما سار الخلفاء فى بغداد على دربهم فأدخلوا على بلاطهم ألوانا من الترف والنعيم لم يعهدها المسلمون من قبل، فتفننوا فى إنشاء القصور والحدائق، وأنفقوا الكثير من الأموال على تزيينها وزخرفتها، وكثرت فى قصورهم البرك والنافورات، واستنبتوا البساتين التى حاكت الجنان روعة وجمالاً، وملأوا قصورهم بالجوارى والغلمان، وافتنوا فى اتخاذ الرياش والأثاث، وتباهوا بما يصنعونه من ثياب موشاة بالحرير والذهب[1].

ويحكى أن رسولاً من ملك الروم زار الخليفة المقتدر فوجد عنده أحد عشر ألف عبد خصى، ورأى شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم عليها طيور مصنوعة من الفضة تصفر من تلقاء نفسها بطريقة خاصة، ورأى ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج المذهبة، ثم أدخل الرسول دار الخيل فشاهد فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهباً وفضة بغير أغشية، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الديباج بالبراقع الطوال وكل فرس فى يد المستخدم بالبزة الجميلة، وهكذا يمضى الرسول متنقلا بين ثلاثة وعشرين قصرا يرى فيها من ألوان الترف والنعيم ما يذهب العقل، وفى نهاية المطاف يصل إلى حضرة المقتدر فيجده مرتديا ثياباً مطرزة بالذهب على سرير من الأبنوس قد فرش بالديبقى المطرز بالذهب، وعلى يمينه تسعة عقود مثل

(1) النموذج الإنسانى فى أدب المقامة على عبد المنعم عبد الحميد ص ٣٠ الطبعة الأولى ١٩٩٤م الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان).

السبح، وعلى يساره تسعة أخرى من أفخم الجواهر يكاد يغلب ضوؤها على ضوء النهار(١).

وحتى ليقول أبو حيان التوحيدى: "وقد أحصينا - ونحن جماعة فى الكرخ - أربعمائة وستين جارية فى الجانبين، ومائة وعشرين حرة، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة، هذا سوى من كنا لا نظفر به، أو لا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط فى وقت أو ثمل فى حال، وخلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه"(٢).

وكذلك نجد وزراء بنى بويه يعيشون نفس المعيشة، ويغرقون أنفسهم فى الكماليات التى تدل على بذخ مفرط وإسراف معيب، فيحكى أن ابن طاهر وزير عز الدولة كان له راتب من الثلج يقدر بألف رطل كل يوم، وأن الوزير المهلبى قد ابتاع وردا بألف دينار فى ثلاثة أيام، كان يفرشه فى مجالسه ويطرحه فى بركة كبيرة فى داره لها فوارات تقذف به على رؤوس الجالسين فى حضرته(٣).

---

(١) ظهر الاسلام أحمد امين ج١ ص ١٠٠ - ١٠٢ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(٢) كتاب الامتاع والمؤانسة ابو حيان التوحيدى تصحيح وضبط وشرح احمد امين، واحمد الزين ج١ ص ١٨٣ مكتبة الحياة. بيروت

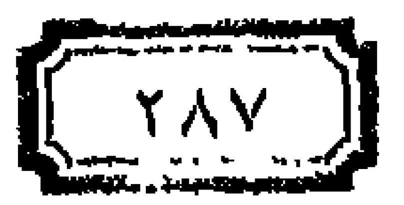
(٣) ظهر الاسلام احمد امين ج ١ ص ١٠٤.

كما كثرت مجالس المجون والشراب، وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه الحياة الباخذة المترفة إلى الانحلال، وأن تشيع ضروباً من الخلاعة، وفنوناً من المجون.

ومما لا شك فيه أن هذا البذخ إنما كان يتمتع به الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسى ومن الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من الفنانين شعراء ومغنين ومن العلماء والمثقفين، وقد سجل الثعالبى فى يتيمته جانباً من هذه الحياة، فحكى أن الوزير المهلبى، كان له ندماء يجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على إطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضى التنوخى وآخرون، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، وكذلك كان الوزير المهلبى، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذا السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار - على حد تعبير الثعالبى - وتقلبوا فى أعطاف العيش بين الخفة والطيش، ووضع فى يد كل واحد منهم كأس من ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوءاً شراباً قطر بليـاً أو عكبريًا فيغمس لحيته فيها بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ويرش بها بعضهم بعضا ويرقصون أجمعهم(١).

---

(١) يتيمة الدهر الثعالبى ج٢ ص ١٠٦.



وطبيعى أيضاً أن تكون هذه الحياة المليئة بالبذخ والترف تحتاج إلى أموال كثيرة تجبى من الشعب الذى كان يعيش عيشة الكفاف، وكأنما كتب على الشعب أن يكدح ليملأ حياة هؤلاء جميعاً بأسباب النعيم، أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق. ويرجع ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد، وقد مضوا هم وحاشيتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله وموارده الضخمة، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد، وطبقات قُتِّر عليها في الرزق، فهى تشقى إلى غير حد، فأدى ذلك إلى كثرة المجاعات واختل الأمن، وانتشرت السرقات، ونشط اللصوص، وكان الخلفاء والأمراء يتبعون نظام الالتزام فى جمع الضرائب فكان الأمير أو الحاكم يمارس فى مدينته التى يحكمها سلطة الرئيس الإقطاعى، وكان سيد الأرض يدفع للسلطان جزية سنوية على شرط أن ينضوى هو وعدد من جنوده تحت لوائه عندما يخوض السلطان غمار الحرب، ولقد كان فى العراق وحده أربعون سيداً إقطاعياً[1].

وطبيعى أيضاً أن تتفشى ألوان من الفجور والفسوق، وشيوع الكدية والاستجداء، وأصبح جمهور الناس يعيش فى الضنك والضيق لا الرقيق

---

(1) مختصر تاريخ العرب والحضارة الإسلامية لسيد أمير على ص ٣١٤ ترجمة [illegible].

منه فحسب الذى كان يعمل فى القصور والضياع، بل أيضاً جمهور الناس من الأحرار، وكأنما كانوا جميعا أرقاء فى هذا النظام الذى كفُلت فيه أسباب النعيم ووسائل الترف لأقلية محدودة استأثرت لنفسها بطيبات الأرض والرزق وزينة الحياة[1]، مما أوجد ضروباً من التمزق النفسى وصنوفاً من الصراع الباطنى بين ما يعيشه هؤلاء من حياة مليئة بالذل والهوان وما تراه أعينهم، وتسمعه آذانهم عن تلك الحياة الفاجرة اللاهية التى يحياها الخلفاء وحاشيتهم.

وأعجب الأمر أن العلماء كغيرهم من سائر الطبقات إذا لم يعيشوا فى كنف خليفة، وفى بلاط حاكم، مسهم الضر، وقاسوا شظف العيش ومرارة الحرمان، والأمثلة على ذلك كثيرة، (فعبد الوهاب البغدادى المالكى) الأديب الشاعر، صاحب المؤلفات الرائعة والذى لم يكن فى زمانه أفقه منه لا يجد قوت يومه فى بغداد، فيهجرها طلباً للرزق، ويقول حين ودعه عارفو قدره: "لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت عن بلدكم" ثم ينشــد:

سلام على بغداد فى كـل   وحـق لهـا منى سلام مضاعف

فوالله ما فارقتها عن قلى لى   وإنـى بشطى جانبيهـا لعارف

---

(1) تاريخ الأدب العربى العصر العباسى الأول شوقى ضيف ص ٥١ الطبعة الثامنة دار المعارف.

ولكنها ضاقت على بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكانت كخل كنت أهوى دنوه ... وأخلاقه تنأى به وتخالف

و(أبو حيان التوحيدى) صاحب العلم الغزير والفضل الوفير والفلسفة العميقة، والتأليف القيمة يحدث عن نفسه إنه اضطر فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضرة فى الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة وإلى بيع الدين والمروءة وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ويطرح فى قلب صاحبه الألم(١).

و(أبو على القالى) صاحب الأمالى اضطر لضيق ذات يده وفقره الشديد إلى الرحيل من المشرق صوب الأندلس واضطر إلى بيع كتبه وهى أعز شئ عنده.

أما العلماء الذين يتصلون بالخلفاء أو يوسد إليهم شئ من مناصب الدولة. وهم كثيرون فإنهم فى يسر، ولا يشكون حاجة ومن ثم رأينا كثيراً من المؤلفات فى هذا العصر ألف بأمر أمير أو وزير، وصدر منهم ضوء بتشجيعها وفضلها على العلم وأهله.

وقد صحب هذا الغبن الاجتماعى، وذلك الاضطراب المالى واستئثار طائفة بالحياة الرحبة شيوع الحقد والتحاسد، والكذب والخديعة، والدس والرشوة.

---

(١) كتاب الامتاع والمؤانسة ابو حيان التوحيدى ج١ ص ٣١.

هذه صورة سريعة لبعض جوانب الحياة الاجتماعية ومظاهرها فى هذه الفترة التى احتوت بديع الزمان لأن اثاره الأدبية متأثرة بها مصورة لها. ففى رسائله يهتم بديع الزمان بالمسائل الاجتماعية.ويخاطب الحكام طالباً إنصاف المظلوم أو الثأر لقتيل أو عزل حاكم ظالم، ومصوراً الفساد العام والقسوة فى معاملة الناس وجباية الضرائب الفادحة إلى غير ذلك من هذه الموضوعات المتشعبة الكثيرة التى تمت إلى الحياة الاجتماعية بصلات وثيقة. وفى مقاماته وهذا ما يهمنا نراه يبرز الكدية التى كانت شائعة في ذلك العصر نتيجة لما كان يقاسيه الناس من الفاقة والفقر والعوز، وهو يعدد أنواع اللصوص وطرقهم، ومجالس الخمر التى كانت شائعة، والانحلال الخلقى والنفاق الاجتماعى، ويذهب فى بعض مقاماته مذاهب المتحللين من الكتاب فيذكر من القصص المكشوفة ما لا يجمل ذكره مثل المقامة الشامية والشيرازية والرصافية الأمر الذى دعانا إلى الإشارة إلى هذا النوع من الحياة إشارة سريعة حتى نربط بين شخصية بديع الزمان وآثاره الأدبية وبين مجتمعه الذى عاش فيه.

ورغم هذا التردى السياسى والانحلال الاجتماعى، فإن الحياة الثقافية كانت تسير بخطى حثيثة فى اتجاه عكسى، فبقدر ما كانت الهوة التى هوى فيها الوضع السياسى وانحدر إليها الوضع الاجتماعى عميقة سحيقة، بقدر ما كانت القمة التى ارتفع إليها الوضع الثقافى والإنتاج

العقلى والأدبى عالية .سامقة. وكان للنثر النصيب الأوفى من هذا الازدهار الثقافى، فوثب وثبة واسعة موفقة فى شكله ومضمونه، ذلك لأنه لغة العقل، والعقل تفكير نظرى، لا يعوقه قيود الأعراف والتقاليد، فهو ماض إلى الأمام، سريع الاستجابة لصور العصر[1].

القيمة الفنية لمقامات بديع الزمان الهمذانى

مقامات بديع الزمان:

لعل أشهر فن عرف به بديع الزمان كان فن المقامات، لأنه أول من ابتكر فكرتها وأطلق عليها هذا الاسم حتى اشتهر بها، فجاء فى المقامة الوعظية: "قال عيسى بن هشام" فقلت لبعض الحاضرين: من هذا؟ قال غريب، قد طرأ لا أعرف شخصه، فاصبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينبئ بعلامته فصبرت"[2].

وإذا كان الهمذانى هو أول من أطلق عليها هذا الاسم، فإنه أيضا هو "أول من فتح باب عمل المقامات"[3]، فهو أبو عذرة هذا الفن فى الأدب

---

(1) النموذج الإنسانى فى أدب المقامة على عبد المنعم عبد الحميد ص ٣٦، ٣٠.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذانى شرح الشيخ محمد عبده ص ١٥٦

(3) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا أبو العباس أحمد بن على القلقشندى ج١٤ ص ١١٠ نسخة - مصورة عن الطبعة الأميرية، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر.

العربى، وصاحب الفضل فى إنشائه[1]، وقد اعترف الحريرى بأن الهمذانى بمقاماته كان "سباق غايات، وصاحب آيات"، وأن المنتديات فى عصره كان يتردد على ألسنتها دائماً "ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان، وعلامة همذان، رحمه الله تعالى"[2].

---

(1) الإسلام والحضارة الإنسانية محمد عبد المنعم خفاجي ص ٣٥١ بيروت ١٣٩٣ - ١٩٧٣.

(2) شرح مقامات الحريرى أبو العباس احمد بن عبد المؤمن العبسى الشريشى ج١ ص [illegible] ١٣١٢ - ١٩٥٢م مطبعة عبد الحميد حنفى.

ظهور المقامة ونشأتها:

شغل أدباء العرب وكتابها مدة طويلة من الزمن بفكرة المقامات، ونشأتها وهل هذا الفن عربى خالص، أم أنه صدى للأدب الفارسى الذى يرتبط مع الأدب العربى بصلات وثيقة؟ إلى غير ذلك من مختلف أساليب الحدس والتخمين.

فنجد أن أول من تعرض لهذه المسألة "الحصرى" حينما ترجم لبديع الزمان فى كتابه "زهر الآداب" قائلاً: "ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى أغرب أربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنتجها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، فى معارض عجمية، وألفاظ حوشية، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع ولا ترفع له حجبها الأسماع، وتوسع فيها، إذ حرف ألفاظها ومعانيها فى وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية، تذوب ظرفاً، وتقطر حسناً، ولا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى، وعطف مساجلتها، ووقف مناقلتها، بين رجلين سمى أحدهما عيسى ابن هشام، والآخر أبا الفتح الإسكندرى، وجعلهما يتهاديان الدرّ ويتنافثان السحر"[1].

---

(1) زهر الاداب للحصرى ج1 ص ٣٠١ وكذا مقامات بديع الزمان الهمذانى قدم له وشرحه [illegible] عليه على بو ملحم ص ٧ الطبعة الاولى ١٩٩٣م دار مكتبة الهلال.

ولقد أوحى هذا النص لعدد من الباحثين بالقول بأن بديع الزمان ليس بالمبتدع للمقامة بشكلها المعروفة به، وإنما هو استلهمها واستوحاها من أحاديث ابن دريد.

ويميل إلى هذا الرأى المرحوم الدكتور زكى مبارك ويعلق على نص الحصرى بقوله: "مؤدى هذا الكلام أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات، وأنه حاكى ابن دريد فى أحاديثه، وقد استغللت هذا النص فى كتابى الذى وضعته بالفرنسية عن النثر فى القرن الرابع، وقد دهش (المسيومارسيه) لهذه الفكرة، وعجب كيف اتفق الناس إلى اليوم، على أن البديع هو منشئ فن المقامات، ولكن من جانب آخر أذكر أنى لم أر مثل هذا الكلام فى غير زهر الآداب"(١).

ويميل هذا الرأى أيضاً الأستاذ أحمد حسن الزيات، فذكر أن بديع الزمان قد "حاكى بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد المتوفى سنة ٣١٠. وقد كتب أربعمائة مقامة فى الكدية وغيرها، نحلها أبا الفتح الإسكندرى على لسان عيسى بن هشام...." (٢).

وإلى مثل ذلك ذهب الأستاذ محمود مصطفى فقال: "وقد ذكروا أن أول من عرفت له مقامات هو أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى.

---

(١) زهر الآداب للحصرى ج١ هامش ص ٣٠٨، ٣٠٩.

(٢) تاريخ الأدب العربى احمد حسن الزيات ص ١٧٦

المتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة من الهجرة، وقد ذكر فى مقدمتها أنه صاغها أربعين مقامة استنبطها من ينابيع صدره واستخرجها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر"[١].

ويميل أيضاً إلى هذا الرأى الدكتور شوقى ضيف فنجده يقول: "على كل حال أنشأ بديع الزمان مقاماته معارضة لأحاديث ابن دريد، وإن من يقرأ الأمالى ويتعقب بديع الزمان فى عمله يرى الصلة واضحة تمام الوضوح بين الصنيعين. وإن المقامة الأسدية عنده لتعد صيغة نهائية لصفة الأسد فى ذيل الأمالى، وكذلك الشأن فى المقامة الحمدانية وما جاء بها من صفة الفرس فإنها تكميل وتتميم لما جاء فى الأمالى من وصف الفرس"[٢].

صلة مقامات بديع الزمان الهمذانى بأحاديث ابن دريد:

مما لاشك فيه أنه يجب علينا أن نتقبل هذه الآراء بتحفظ شديد، فقد يكون من الظلم لبديع الزمان والتجنى عليه أن نلصق به هذه الفكرة على علاتها، إذ أن الدافع والهدف عند كل من ابن دريد وبديع الزمان مختلف إلى حد كبير، ذلك أن أحاديث ابن دريد كانت تعليمية أى أن هدفه كان

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر العباسى محمد مصطفى ص ٩٨ الطبعة الثانية ١٣٥٦ - ١٩٣٦

(٢) ... الأدب العربى [١] المقامة شوقى ضيف ص ١١

لغويا بحتاً، وكان المقصود بها تعليم الناشئة أصول اللغة وغريبها عن طريق هذه الأحاديث الحوشية والجمل المليئة بالغريب والعجيب، ولكن هدف الهمذانى من مقاماته كان اصلاح المجتمع عن طريق عرض مشكلات مختلف الطبقات وبأسلوب وان كان مزيناً بالسجع والمحسنات البديعية إلا أنه كان مسلياً للغاية، ولم يظهر فيه أن اللغة كانت هى الهدف الأول والأخير له كما كان يفعل ابن دريد، هذا بالاضافة إلى أن المقامات كانت بجانب غرض الإنشاء الجميل، والأطراف المضحك، تتخذ موضوعات بعينها من مدح واكتداء ووعظ فى صيغة قصة هى في كثير من الأحيان مسبوكة النسج والهيكل، مربوطة العقد مبسوطة العرض، الأمر الذى اعترف به الدكتور زكى مبارك عندما تحدث عن بعض مقامات بديع الزمان كالمقامة المضيرية، والمقامة البغدادية فذكر أنها نماذج من القصة القصيرة ففيها العقدة وتحليل الشخصيات. ولاكذلك أحاديث ابن دريد التى تقصر أحيانا فلا تكاد تتجاوز سطورا أربعة، وتطول أحيانا أخرى فتستغرق صفحة كاملة، وأحيانا أخرى لا تحوى إلا شعرا[١].

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع، د. زكي مبارك جـ١ ص ٢٠٧

وهناك اختلاف آخر بين أحاديث ابن دريد ومقامات الهمذانى؛ هذا الاختلاف يتجلى فى أن أحاديث ابن دريد وإن كانت مروية الا أنه ليس لها بطل. ومقامات بديع الزمان لها راوية وبطل[1].

ومن هنا نستطيع أن نسأل سؤالاً: كيف يتأتى تأثر بديع الزمن الهمذانى بابن دريد في وصف الأسد والفرس. كما ذهب إلى ذلك الدكتور شوقى ضيف. وشكل التناول مختلف، وطريقة المعالجة مختلفة، والهدف كذلك يختلف كثيراً[2].... والذى يطلع على العملين يجد الفرق الشاسع بينهما فى منهج الوصف، والمضمون الفكرى، والنسق التعبيرى، فكل ما وصف به الهمذانى فى الأسد فى مقامته الأسدية لا يزيد على قوله: "قد طلع من غابه. منتفخاً فى إهابة. كاشراً عن أنيابه. بطرف قد ملئ صلفاً. وأنف قد حُشى أنف. وصدر لا يبرحه القلب. ولا يسكنه الرعب. وقلنا: خطب مُلـمّ وحادث مُهِمّ"[3].

---

(1) أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة محمد رشدى حسن ص ١١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٠.

(2) وردت بعض أحاديث ابن دريد مفرقة فى كتاب الأمالى أبو على إسماعيل بن القاسم القالى ج١ ص ١٦، ١٥٢، ١٩٤، ٢١٤، ٢٩١ دار الكتب العلمية ب.ت.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذانى شرح الشيخ محمد عبده ص ٣٩

أما وصف الأسد عند أبى بكر بن دريد، فقد جاء فى مجلس يزيد بن معاوية، على ألسنة ثلاثة أشخاص هم: أبو زيد الطائى، الذى وصفه بقوله: "لونه ورد، وزئيره رعد. ووثبه شد، وأخذه جد، وهوله شديد وشره عتيد، ونابه حديد وأنفه أختم، وخده أدرم، ومشفره أولم، وكفاه عُراضتان، ووجنتاه ناتئـــتان، وعيناه وقادتان، كأنهم لمح بارق، أو نجم طارق، إذا استقبلته قلت أفدع. وإذا استعرضته قلت أكوع، وإذا استدبرته قلت أصمع، بصير إذا استغضى، هموس إذا مشى، إذا قــفىّ كمش، وإذا جرى طمش، براثنه، ومفاصله مترصة، مصعق لقلب الجبان، مروع لماض الجنان، إن قاسم ظلم، وإن كابر دهم، وإن نال غشم"[1].

ووصفه جميل بن معمر بقوله: "وجهه فدغم وشدقه شدقم، ولعزه مُعـــرنزم، مقدمه كثيف، ومؤخره لطيف، ووثبه خفيف، وأخذه عنيف، عبل الذراع، شديد النخاع، مرد للسباع، مصعق الزئير، شديد المرير، أهرت الشدقين، مترس الحصيرين، يركب الأهوال، ويهتصر الأبطال.

(١) ذيل الأمالى (كتاب النوادر) القالى ج٣ ص ١٨٠.

ويمنع الأشبال، ما إن يزال جاثماً فى خيس، أو رابضاً على فريس، أو ذا ولغ ونهيس"[1].

ووصفه الأخطل التغلبى بأنه "ضيغم ضرغام، غشمشم همهام، على الأهوال مقدام، وللأقران هضام، رئبال غنبس، جرئ دلهمس، ذو صدر مفردس، ظلوم أهوس، ليث كروس"[2].

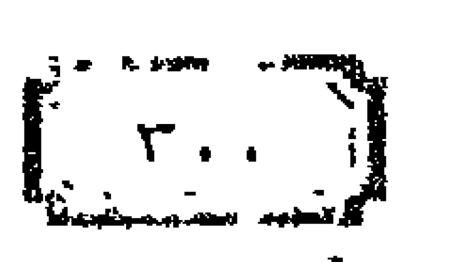
فما أورده ابن دريد في وصف الأسد على ألسنة هؤلاء الثلاثة، كان أوفى وأشمل مما أورده بديع الزمان فى مقامته الأسدية. وإذا كان ابن دريد والهمذانى قد وصفا الأسد، الأول فى أحاديثه، والثانى فى مقاماته، فهل يمنع ذلك أن يكون غيرهما قد فعل ذلك فى شكل آخر، وموضوع آخر، وأن يكون قد سبقهما إلى ذلك آخرون؟!.

ومن هنا يمكننا أن نقول أن أحاديث ابن دريد كانت إحدى الملهمات الكثيرة التى ألهمت البديع مقاماته، وليست هى كل شئ فى أصول المقامات كما ذكر الحصرى فى "زهر الآداب" وأيده فى ذلك الدكتور زكى مبارك فى "النثر الفنى"، وغيرهما من الباحثين.

---

(1) المصدر نفسه ج٣ ص ١١١.

(2) المصدر نفسه ج٣ ص ١١١.



ولذلك أرى ريادة بديع الزمان الهمذانى لفن المقامات، لأن "الإنسان إذا عارض شيئاً فإنه يحاول أن يحاكيه ليأتى بمثله، أو بأحسن منه إن استطاع، ولابد أن يوجد أساس تبنى عليه المعارضة أو المحاكاة"(١).

وبمقارنة مقامات الهمذانى بأحاديث ابن دريد لم تجد تشابهاً بين الموضوعات، ولا حتى فى طريقة العرض.

وهكذا تتسع هوة الاختلاف بين أحاديث ابن دريد، ومقامات بديع الزمان الهمذانى، مما لا يمكن معه ايجاد أى نوع من أنواع المقارنة بينهما.

وهناك رأى آخر يقول بأن أبا الحسن أحمد بن فارس، هو مبتدع فن المقامات، ولكن هذا الرأى الذى ينتزع من بديع الزمان قصب السبق لم يدعم بما يقويه من الحجج والنصوص، وإنما استند فى ذلك على تتلمذ الهمذانى على ابن فارس(٢)، واتخذ من التلمذة سبباً كافياً لأن يكون لابن فارس دون بديع الزمان حق ابتداع فن المقامات.

ولو اعترفنا بصحة أمثال هذا الدليل لاعطينا حق ابتداع المقامات لبقية الأساتذة الذين تتلمذ على أيديهم بديع الزمان الهمذانى فى همذان، والرى، ونيسابور.

---

(١) أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة محمد رشدى حسن ص ١٠.

(٢) تاريخ اداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج٢ ص ٣٥٧ الطبعة الثانية دار الهلال القاهرة

هذا بالإضافة إلى أن مقامات ابن فارس التى قالها لم تصل إلينا، حتى نستطيع أن نقارن بها مقامات بديع الزمان، ونعرف إلى أى حد استفاد منها فى منهجه وصياغته.

وغير بعيد عن هذا ما ذهب إليه أحد النقاد بقوله: "والتأريخ للمقامات يقتضينا الرجوع إلى ما قبل الهمذاني والحريرى، فإن ابن دريد صاحب المقصورة، قد حاول معالجة هذا اللون من الكتابة، أو النثر الأدبى، ثم حاول هذه المحاولة أيضاً ابن فارس صاحب كتاب المجمل في اللغة، إلا أن هذه المحاولة من هذين الرجلين قد باءت بالفشل، ولم يتناقل الناس شيئاً مما كتباه فى ذلك.

ولعل شهرتهما فى اللغة قد غطت على ما عداها، أو أن طبعهما اللغوى لم يساعدهما على الانسياب والاسترسال فى الكتابة القصصية، بالشكل الذى يجعل الكتابة سائغة مقبولة، والرجل الأول فى كتابة المقامات بأسلوبها المعروف هو الهمذانى، وهو من غير شك نادرة عصره، وفريد دهره، وحامل

لواء هذا اللون من الكتابة"(١).

---

(١) فى محيط [illegible] الأدبى ابراهيم على ابو الخشب ص: ١٠١ الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٩٨٥.

يفهم من ذلك أن ما قام به ابن دريد، وابن فارس. إن كانت لهما إسهامات فى ذلك. ما هى إلا محاولات لكتابة نثر أدبى، فيه معالجة لبعض الموضوعات الشيقة، لكنها باءت بالفشل، وهذا يؤكد ريادة بديع الزمان الهمذانى لفن المقامات.

ولقد أسترسلنا فى هذه القضية ليس من فضول القول، بل كان أمراً مقصوداً، إذ أن هذه الدراسة نحاول فيها إثبات أن المقامات تصور مجتمع بديع الزمان، وما فيه من تناقضات فهى صورة لحياة معاصرية، بما فيه من فقر وفاقه وعوز وغنى وتسول وكدية، وسطو وسرقة ونهب، وانحلال خلقى ونفاق اجتماعى، وغير ذلك فكان ابتكاره وابتداعه لهذا الفن الأدبى الجديد.

وقد كان لبديع الزمان الهمذانى ما أراد من ابتكار لون جديد. وأسلوب مبتكر، صب فيه قضايا مجتمعه، إذ كان النثر الفنى قبله مقصورا على الكتب الديوانية. والرسائل الأدبية والإخوانية، إلى أن ابتدع بديع الزمان مقاماته، فوضع أول بذور النثر القصصى فى الأدب العربى.

المقامة البغدادية

لبديع الزمان الهمذانى

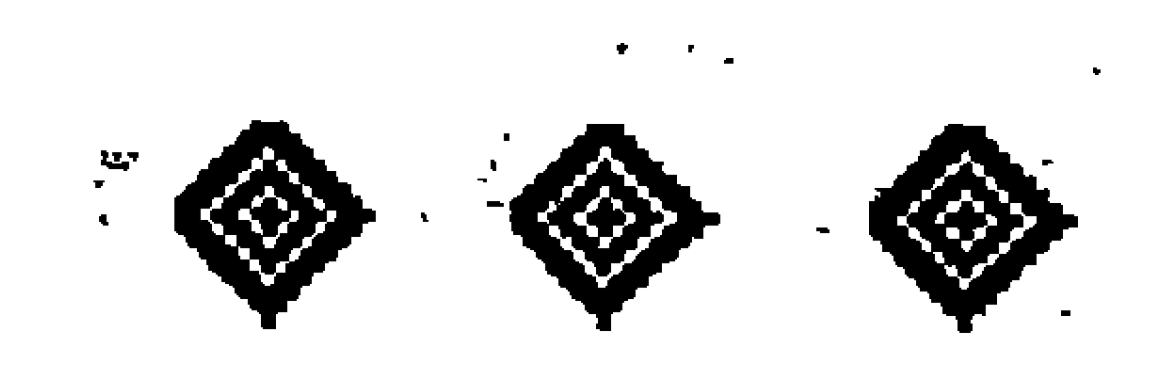
"حدثنا عيسى بن هشام قال : اشتهيت الأزاذ . وأنا ببغداد وليس معى عقد على نقد فخرجت أنتهز محاله حتى أحلنى الكرخ فإذا أنا بسوادى يسوق بالجهد حماره ويطرف بالعقد إزاره . فقلت : ظفرنا والله بصيد . وحياك الله أبا زيد . من أين أقبلت . وأين نزلت . ومتى وافيت ؟ وهلم إلى البيت . فقال السوادى : لست بأبى زيد . ولكنى أبو عبيد . فقلت : نعم لعن الله الشيطان وأبعد النسيان . أنسانيك طول العهد واتصال البعد فكيف حال أبيك أشاب كعهدى . أم شاب بعدى ؟ فقال : قد نبت الربيع على دمنته . وأرجو أن يصيره الله إلى جنته . إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ومددت يد البدار إلى الصدار . أريد تمزيقه . فقبض السوادى على خصرى بجمعه وقال : نشدتك الله لا مزقته . فقلت : هلم إلى البيت نصب غداء أو إلى السوق نشتر شواء . والسوق أقرب وطعامه أطيب . فاستفزته خمة القرم . وعطفته عاطفة اللقم . وطمع . ولم يعلم أنه وقع . ثم أتينا شواء يتقاطر شواؤه عرقا . وتتسايل جوذاباته مرقا .

فقلت أفرز لأبى زيد من هذا الشواء . ثم زن له من تلك الحلواء . واختر له من تلك الأطباق . وانضد عليها أوراق الرقاق . ورش عليه شيئا من ماء السماق . ليأكله أبو زيد هنيا . فانحنى الشواء بساطوره . على زبدة تنوره فجعلها كالكحل سحقا . وكالطحن دقا . ثم جلس وجلست . ولايئس ولايئست . حتى استوفينا وقلت لصاحب الحلوى : زن لأبى زيد من اللوز ينج رطلين فهو أجرى فى الحلوق . وأمضى فى العروق . وليكن ليلى العمر . يومى النشر . رقيق القشر . كثيف الحشو . لؤلؤى الدهن . كوكبى اللون . يذوب كالصمغ قبل المضغ . ليأكله أبو زيد هنيا . قال : فوزنه ثم قعد وقعدت . وجرد وجردت . حتى استوفيناه . ثم قلت : يا أبا زيد ماأحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصارة ويفثأ هذه اللقم الحارة . اجلس يا ابا زيد حتى نأتيك بسقاء يأتيك بشربة ماء . ثم خرجت وجلست بحيث أراه ولايرانى أنظر ما يصنع . فلما أبطأت عليه قام السوادى إلى حماره . فاعتلق الشواء بإزاره . وقال : أين ثمن ما أكلت؟ فقال أبو زيد : أكلت ضيفا . فلكمه لكمة . وثنى عليه بلطمة . ثم قال الشواء : هاك . ومتى دعوناك . زن يا أخا القحة عشرين . فجعل

السوادى يبكى و يحل عقده بأسنانه ويقول : كم قلت لذاك القريد أنا أبو عبيد. وهو يقول : أنت أبو زيد فأنشدت :

أعمل لرزقك كل آله ... لاتقعدن بكل حاله

وانهض بكل عظيمة ... فالمرء يعجز لامحالة (١)



- مقامات بديع الزمان أبى الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى قدم لها شرح عوارضها الشيخ ـحمد عبده دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ص ٧١ ، ٧٤ وكذا مقامات أبى الفضل بديع ـزمن الهمذانى تقديم : شريف عفت شرحها وحققها محمد محيى الدين عبد الحميد الهيئه ـمصريه العامة للكتاب ص ٩١ ، ٩٥

" حدثنا عيسى بن هشام قال : اشتهيت الأزاذ . وأنا ببغداد وليس معى عقد على نقد فخرجت أنتهز محاله حتى أحلنى الكرخ فإذا أنا بسوادي يسوق بالجهد حماره ويطرف بالعقد إزاره . فقلت : ظفرنا والله بصيد . وحياك الله أبا زيد . من أين أقبلت . وأين نزلت . ومتى وافيت ؟ وهلم إلى البيت . فقال السوادى : لست بأبى زيد . ولكنى أبو عبيد . فقلت : نعم لعن الله الشيطان وأبعد النسيان . آنسانيك طول العهد واتصال البعد فكيف حال أبيك أشاب كعهدى . أم شاب بعدى ؟ فقال : قد نبت الربيع على دمنته . وأرجو أن يصيره الله إلى جنته . إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ومددت يد البدار إلى الصدار . أريد تمزيقه . فقبض السوادى على خصرى بجمعه وقال : نشدتك الله لا مزقته."

اللغة

الأزاذ : من أجود أنواع التمر ، **وليس معى عقد على نقد** : أى الحال أنى معدم لا مال عندى ، **المحال** : جمع محله والمراد بها الأماكن التى يوجد بها الأزاذ ، وانتهز : المراد منه أتلمس وأقصد ولكنه جعلها بمنزلة الفرص التى يغتنمها الحاذق وسارع لانتهازها لشدة ولعه بالأزاذ . والضمير فى أحلنى للأزاذ لأنه السبب الباعث له على

الخروج والمسير ، **الكرخ** : في الجانب الغربي من بغداد .

السوادي : الرجل ريف العراق وقراه نسبة إلى السواد وسمي العراق سواداً لاكتساء أرضه بالخضرة من نباتات وأشجار ولون الخضرة فيما يبدو للناظر على بعد سواد أو يقرب منه .

والإزار : مايشد في الوسط سابغاً إلى أسفل الساقين كالذي يشده داخل الحمام ، **ويطرف الإزار** : أي يرد أحد طرفيه على الآخر بما يعقد بينهما .

بصيد : أراد بالصيد ذلك الرجل ثم أقبل عليه يحادثه ويكالمه ويتدخل معه لينال منه ماأراد .

كعهدي : أي عهدي به ومعرفته فيه أي أهو باق في شبيبته كما أعهده أم شاب بعد ما فارقته ، **الربّيع** : المرعى . وأراد من دمنته أثره لأن الدمنة آثار الدار بعد مضي أهلها وخرابها أي أنه مات في زمان بعيد يكفي لتخرب داره ونبت الربيع على آثارها . وقد يراد من دمنته أثر قبره أي أنه مات ودثر قبره ونبت الربيع على أثره بعد دثوره ، **البدار** : المبادرة والمسارعة ، **والصدار** : ثوب يلبس مما يلي الجسد ، جمع اليد بالضم قبضتها ، وقبضه على خصره ليمنعه عن تمزيق صداره .

المعنى

هذه المقامة ضروب من ضروب الاحتيال التى يصورها بديع الزمان على لسان عيسى بن هشام والذى يقع فيه بسطاء الناس وسذج الأرياف من غدر وخداع واحتيال ، فتحدث عن مأساة واحد من هؤلاء البسطاء ؟ إذ سافر إلى الحضر ، ووقع فريسة لاحتيال عيسى بن هشام الذى يقلد فى هذه المقامة البطل أبا الفتح الإسكندرى فى احتياله ، معتمداً على ذكائه وتفرسه .

فقد استغل عيسى بن هشام سذاجة السوادى وأفهمه أنه صديقه وصديق أبيه حتى هم أن يشق صدارته لما علم بموت أبيه ، وذلك نوع من أنواع التمثيل والدجل يلجأ إليه الحيالون فيتقنونه .

" فقلت : هلمّ إلى البيت نصب غداء أو إلى السوق نشتر شواء . والسوق أقرب وطعامه أطيب . فاستفزّته حمة القرم . وعطفته عاطفة اللقم . وطمع . ولم يعلم أنه وقع . ثم أتينا شواء يتقاطر شواؤه عرقا . وتتسايل جوذاباته مرقا . فقلت أفرز لأبى زيد من هذا الشواء . ثم زن له من تلك الحلواء . واختر له من تلك الأطباق . وانضد عليها أوراق الرقاق . ورش عليه شيئا من ماء السماق . ليأكله أبو زيد هنيا . فانحنى الشواء بساطوره على زبدة تنوره فجعلها كالكحل سحقا .

وكالطحن دقا. ثم جلس وجلست . ولايئس ولايئست . حتى استوفينا وقلت لصاحب الحلوى : زن لأبى زيد من اللوز ينج رطلين فهو أجرى في الحلوق . وأمضى فى العروق. وليكن ليلى العمر . يومى النشر . رقيق القشر . كثيف الحشو . لؤلؤى الدهن . كوكبى اللون . يذوب كالصمغ قبل المضغ . ليأكله أبو زيد هنيا . قال : فوزنه ثم قعد وقعدت . وجرد وجردت . حتى استوفيناه . ثم قلت : يا أبا زيد ماأحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصارة ويفثأ هذه اللقم الحارة " .

اللغة

نصب غداء : نتناول منه ، استغزته : استهوته وحركته بشدة ، **الحمة** : فى الأصل إبرة العقرب التى تلسع بها ثم حملت على الشدة مطلقاً ، **القرم** : الشهوة البالغة لأكل اللحم خاصة ، **اللقم** : الأكل السريع ، **والجوذابات** : جمع جوذابة وهى خبز تخبزه فى تنور وقد علق فوق الخبز طائر أو لحم غيره يشوى فيقطر ودكه على ذلك الخبز فيغنى عن الأدم ، **وتتسايل** : أى تسيل من كل وجه وإذا كان الخبز الذى تحت الشواء يسيل عرقا من ودكه فما أغزر ودكه : ما أكثر دسمه تضد الأوراق : صفها بعضها فوق بعض .

الرقاق : خبز رقيق معروف وجعل احاده اورقا ليدل على انتهائه فى الرقة إلى حد يشبه رقة الورق ، **السماق** : حب أحمر صغير بالغ فى الحموضة وشجره يشبه الرمان يثمر فى عناقيد تنتظم ذلك الحب ، **السباطور** : آلة للجزار يقطع بها اللحم معروفة ، **التنور** : موقد النار الذى يشوى عليه اللحم ، **اللوزينج** : نوع من الحلوى يصنع من نوع من الخبز ويسقى بدهن اللوز ويحشى بالجوز واللوز وما شابههما ، **أجرى فى الحلوق** : أمضى سيراً فيها لسهولته ، **وأمضى فى العروق** : أشد سرياناً فيها من غيره من أنواع الحلوى لسرعة هضمه ، **ليلى العمر** : أى قد صنع بالليل ، **يومى النشر** : أى نشر من مصنعه بالنهار فيكون قد نضج وسرت الحلاوة فى جميع أجزائه ، **ورقة القشر** : أن يكون الخبز المحشى رقيقاً إذ لو كان غليظاً لفقد السهولة واللطافة . ودهن اللوز إذا كان صافياً أشبه اللؤلؤ فى لونه فما سقى به من الحلوى يكون فى لمعانه أشبه بالكوكب ، وقوله : **يذوب قبل المضغ** بيان لدرجته من النضج ورقة القشر وإتقان الصنعة ، **جرد وجردت** : أى جرد يده من ثيابه أى شمر عن ساعده ليسرع فى الأكل ، **يشعشع بالثلج** : أى مزج به ،

والصارة : العطش ، يقمعها : يقهرها ويدفعها ، ويفثأ : أى يسكن وتسكين اللقم كسر الحدة من حرارتها .

المعنى

وبعد أن خدع عيسى بن هشام السوادى فى اسمه ، واسم أبيه ، ومعرفته به التى ادعاها لكى يقوم – كما زعم – باستضافته وهو فى حقيقة الأمر إنما يضيف نفسه ، ولسذاجة السوادى وغفلته ، وربما لسوء نيته وطويته ، ظن أنه مدعو على مائدة الصديق الصدوق عيسى بن هشام فلم يعارض فى كثرة المشترى من أنواع الطعام الفاخر بالثمن الموجع ولم يعلم أنه الغارم فى النهاية ، وسيدفع الثمن باهظاً.

وبعد أن أنس عيسى بن هشام واطمأن إلى قبول السوادى الدعوة ، وأن الحيلة قد جازت عليه وبذلك استطاع أن يحقق مأربه .

" اجلس يا ابا زيد حتى نأتيك بسقاء يأتيك بشربة ماء . ثم خرجت وجلست بحيث أراه ولايرانى أنظر ما يصنع . فلما أبطأت عليه قام السوادى إلى حماره . فاعتلق الشواء بإزاره . وقال : أين ثمن ما أكلت؟ فقال أبو زيد : أكلت ضيفا . فلكمه لكمة . وثنى عليه بلطمة . ثم قال الشواء: هاك . ومتى دعوناك . زن يا أخا القحة عشرين .

فجعل السوادى يبكى ويحل عقده بأسنانه ويقول : كم قلت لذاك القريد أنا أبو عبيد. وهو يقول : أنت أبو زيد فأنشدت :

أعمل لرزقك كل آله   لاتقعدن بكل حاله

وانهض بكل عظيمة   فالمرء يعجز لامحالة

اللغة

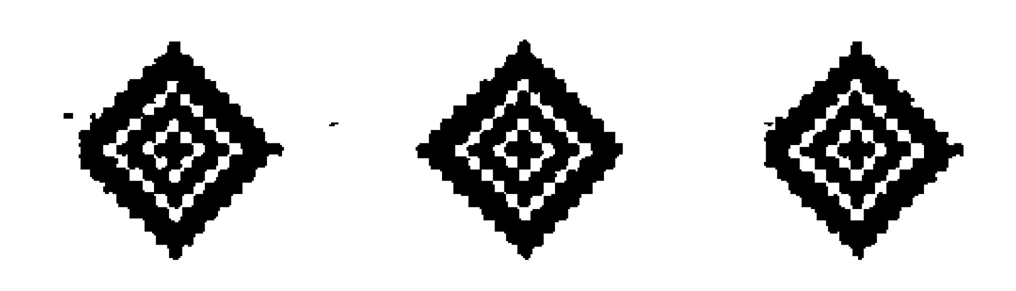
نأتيك بسقاء : يريد أن يذهب بحيلة أن يأتى بالسقاء وهو بائع الماء ليأتى بما احتاجوا إليه من الماء المشعشع بالثلج ثم يتوارى عن السوادى وهو أبو زيد ليلزمه الشواء بثمن ما أكلا معاً ويكون عيسى بن هشام قد حصل غايته من الأكل بدون ثمن ، **اعتلق** : تعلق ومسك أى أن الشواء لم يتركه يخرج بل أمسك به ليستوفى حقه منه ، **أكلته ضيفا** : أى كنت معى تتناول هذا الطعام فلا [illegible] تطالبنى بثمنه لأن الضيف لايدفع ثمن مايأكل ، **هاك** : اسم فعل بمعنى خذ ، ويقصد أى تناول من الضرب واللكم ما أنت به خليق ، **القحة** : الوقاحة وسوء الأدب ، **وزن** : من وزن أى أعط زنة عشرين

درهما وهي نسخة بعد عشرين ، وإلا أكملت ثلاثا وتسعين أى هذا العدد من الضربات ، **العقد** : بضم ففتح جمع عقدة أى عقد كيسه ليخرج الدراهم ، **القريد** : بضم ففتح تصغير قرد.

المعنى

وبعد أن حقق عيسى بن هشام مأربه ، أراد أن يحتال على السوادى المغفل ويهرب منه ويتركه ليلقى مصيره المجهول ، وكأنه بذلك يسخر من هؤلاء الناس البسطاء السذج الذين لايفكرون . ويلقى تبعة غفلتهم على من فرضها عليهم ، ولم يتح لهم فرص التحضر وإضاءة العقل ، فقد أظهر عيسى بن هشام للسوادى أنهما فى حاجة إلى الماء المخلوط بالثلج ليرد عنهما سطوات الحر ويخفف من حدة هذا الأكل ، ثم توارى عن السوادى ليلزمه الشواء بثمن ما أكلا معا وبذلك يكون قد حصل غايته من الأكل بدون ثمن ، فلما استبطأه السوادى هم بالانصراف وحيدا وقام على حماره . معتقداً أنه ضيف فيطالبه الشواء بثمن الطعام فيجيب بكل سذاجة انه أكله ضيفا فيكون نصيبه النكد واللطم من الشواء الذى يصيح مستنكرا . وهاك ومتى دعوناك ؟ فيدفع السوادى الثمن وهو نادم متحسر حزين لوقوعه فى هذا الشرك ولسانه يتمتم كم قلت لذلك القريد أنا ابو عبيد وهو يقول أنا أبو زيد.

ولقد استطاع بديع الزمان أن يعبر عن امتعاضه من هذه الجوانب السلبية فى مجتمعه بطريقته الخاصة ، وتصويراته الجميلة ، ومبالغاته الطريفة ، تعبيراً صادقاً عميقاً تصبغه اللوعة وحرارة المشاعر ومما لاشك فيـــه أن هذا يدل على أنه عاصر ظروفاً اجتماعية متردية ، وبخاصـــة بالنســبة للطبقات العامة ، بعد أن ساءت الأوضاع الاقتصادية وتزعزع الأمــن ، وبدأ الناس يشعرون بالتمزق والضياع .



تحليل وتعليق

تمثل المقامة البغدادية نمطاً من أنماط السلوك الشائع فى المجتمع العباسى فى القرن الرابع الهجرى . وتميز بين شريحتين اجتماعيتين تتمثلان فى طبقة المكدين الذين يلتمسون الرزق بأيسر السبل عن طريق الحيلة واستغفال الآخرين . وطبقة أهل السواد الذين يعيشون على الفطرة . والحقيقة أن النمط السلوكى هو المستهدف فى هذا النص وليس نسق التركيب الاجتماعى . فهى تفصح عما آل إليه الأمر بتلك الطبقة من المتأدبين الذين استغلوا مهاراتهم اللغوية وملكاتهم العقلية فى الإيقاع بالناس واستغفالهم . ولكن الجانب الاجتماعى الانتقادى لم يغب عن بال البديع وهو ينشىء هذا النص . أما السخرية التى يمكن أن تكون هدفاً من أهداف الكاتب بقصد الترويح عن القارىء والتخفيف من أعبائه فإنها ليست بمعزل عن روح العصر الذى أثقلته الأدواء الاجتماعية والخلقية . ولا أظن أن الهدف التعليمى اللغوى كان وارداً إلا بمقدار .

وأهم مايميز هذه المقامة خلوها إلى حد كبير من الألفاظ الغريبة الحوشية واستجابتها لدواعى الحدث وطبيعته ولهذا نجد نزوعاً قصصياً واضحاً فى هذا النص الذى يتمثل فى :

أولاً : حيوية المشهد الذى يضج بالحوار . فقد صور لنا السوادى وهو يسوق حماره ويعقد صرة نقوده . فإذا بنا أمام صورة حية لقروى يهبط إلى المدينة وهو فى غفلة عما يخبئه له القدر.

ثانياً : دينامية الحوار وحركته ومناسبته لتكوين الشخصية العقلى والنفسى . وتوظيفه بشكل جيد للكشف عن أعماق الشخصيتين الرئيسيتين فى المقامة . وقد تمثل ذلك فى استرسال الراوى عيسى بن هشام والتفافه السريع على الموقف وتغييره لصالحه . وقصر المقطع الحوارى الذى يرد على لسان السوادى وسذاجة منطقه.

ثالثاً : براعة بديع الزمان فى رسم شخصياته من خلال الحركة فهو يلجأ إلى التمثيل والتصوير لا إلى الإخبار والتقرير وهذا مما يقربه إلى حد كبير من منهج الكتابة القصصية .

رابعاً : الحبكة القائمة على المفاجأة وعنصر التشويق . وهى حبكة بسيطة أقرب إلى منهج القصص الشعبى فهى قائمة على التسلسل الخيطى المنتظم . وعلى طرافة الموقف .

خامساً : أما فيما يختص بالزمان والمكان . فلم يغفل البديع ذكر الوعاء البيئى والاجتماعى . فأحداث القصة قد وقعت فى بغداد .

وهوية الانتماء بارزة فالسوادي ينتمي إلى سواد العراق . وهو بيئة اجتماعية لها خصائصها النفسية والسلوكية ولم يغفل البديع البعد النفسي فيها .

سادساً : وحدة الأثر التي هي شرط القصة القصيرة تقضي بها نهاية القصة التي جاءت كبؤرة مضيئة كشفت عن عناصر الموقف برمته . وإن سبقته مقدمات أرهصت بها .

الخصائص الفنية للمقامات البديعية :

١ - البطل : حرص بديع الزمان الهمذاني على تقديم بطل نموذجي تتبدى من خلاله سمات مجتمعة وجوهر هذا البطل (أبو الفتح الإسكندري) يقوم على العبقرية في الحيلة والمراوغة . وهو يعمد إلى البراعة اللفظية أو الحيلة الفنية لنيل العطاء . والاحتجاب أو التنكر من أهم صفاته : وهو صاحب فلسفة تتبدى في أشعاره . ويرى بعض الباحثين أنه ربما كان شخصية حقيقية رأى فيها الهمذاني نموذجاً عصرياً ولم يظهر أبو الفتح في كل المقامات . بل هناك مقامات لم يظهر فيها هذا البطل منها على سبيل المثال المقامة البغدادية التي بين أيدينا .

٢ ـ الرواية : حيث تبدأ المقامات بـ (حدثنا عيسى بن هشام) وشخصية الرواية منتزعة من الأدب الشعبى ، وهى تشيع جواً واقعياً ، وهو يمثل ظهور البطل ويتابعه حيثما وجد وحسن طريقة التقديم ويبدع المناسبة لها ، ويساعد على بناء شخصية البطل .

٣ـ عنصر الرحلة : هو الأساس فى بناء الحكاية وحبكتها ، والرحلة عند الهمذانى ، مدخل إلى المكان وإلى النسيج الحكائى برمته .

٤ ـ العنصر السردى (القصصى) : تقوم المقامة على السرد (الحكى) بصفة خاصة ولذلك تعد المقامة نواة للقصة فى الأدب العربى ولكنها غير ناضجة ، وإن تحققت فيها بعض المقومات الفنية للقصة .

فهرس الموضوعات

